خورخي لويس بورخيس

الأعمال القصصية

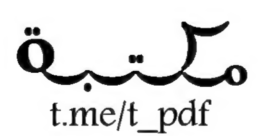
الجزء الأول

ترجمة: د. مزوار الإدريسي



منشورات الجمل

قصص


مكتبة
t.me/t_pdf

خورخي لويس بورخيس

الأعمال القصصية

الجزء الأول

(١٩٣٥-١٩٤٤)

ترجمة: د. مزوار الإدريسي



منشورات الجمل



خورخي لويس بورخيس: **الأعمال القصصية، الجزء الأول**، الطبعة الأولى
ترجمة: د. مزوار الإدريسي

Jorge Luis Borges: *Cuentos completos*, Vol. 1: 1935 – 1944

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

التاريخ الكونيّ للعار

(١٩٣٥)

توطئة الطبعة الأولى

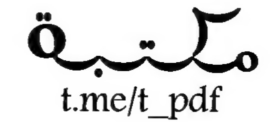
كُتبت التمارين النثرية التي تؤلِّف هذا الكتابَ بين سنتي ١٩٣٣ و١٩٣٤، وأعتقد أنها متفرِّعة عن قراءاتي لسْتِفِنْسُون وشِتِرْسْتُون وحتى عن الأفلام الأولى لِفُونْ سْتِرْنْبِرْغ، وربما عن سيرة ما لإِڤارِيسْتُو كارِّيِيغو. إنها تُسرف في بعض الإجراءات: تَعداد المختلفات، الحلُّ الفُجائيّ للاستمرارية، تقليص حياة رجُل برمَّتِها في مَشهديْن أو ثلاثة. (ذلك القصد البصريّ يتحكَّم كذلك في قصة «رجُل الزاوية الورديَّة».) إنها ليست إجراءات نفسية، ولا تسعى إلى أن تكونها.

وفي ما يخص أمثلةَ السِّحر التي يُختَم بها المُجلَّد، فليس لدي حقٌّ آخَرُ عليها نظيرَ حق المترجِم والقارئ. وأعتقد أن أفضل المترجِمين هم مثل طيور التَّمِّ بل هم أكْثرُ غموضا وتفرُّدا من أفضل المؤلِّفين. لا أحد سينكر عليَّ أن القطع المَعزُوّة من قِبل پُولْ ڤاليري إلى سابقه إِدْمونْد تِيسْتي تَصْلُح شهرةً أقل بكثير مما لزوجته وأصدقائه.

القراءة، إلى الآن، هي نشاط لاحق على الكتابة: أكثر استكانة، وأكثر مدنية، وأكثر فكرية.

خ. ل. ب

بْوِينُس آيْرِسْ، ٢٧ ماي ١٩٣٥



توطئة طبعة ١٩٥٤

قد أقول إن الباروكيّ هو ذلك الأسلوب الذي يستنفد عَمْدا (أو يرغب في أن يستنفد) إمكاناته، والذي يُتاخِم صورتَه الكاريكاتورية؟ عبثًا رغِب أَنْدْرِوْ لانْغْ أن يُقلِّد، حوالي ألف وثمانمائة ونيّف، أوديسةَ بُوپي Pope؛ كان العمل بالفعل محاكاته الساخرة، ولم يستطع المحاكي البارُودِيّ أن يبالغ في توتُّره. الباروكُو هو اسم إحدى صِيَغ القياس؛ وقد طبَّقه القرن الثامن عشر على تجاوزات معيّنة في الهندسة وعلى رسوم القرن السابع عشر؛ وقد أقول إنّ المرحلة النهائية لكل فن تكون باروكية، لما يَعرِض هذا الأخير وسائلَه ويُبدِّدها. إن النزوع الباروكي فعل فكري، وقد صرَّح بِرْنارْد شُو أنّ كل عمل فكري هو فكاهي. هذا النزوع الفُكاهي غيرُ الإرادي في عمل بَلْتَسَار غْرَاسْيانْ؛ هو تطوعيّ أو مسموح به، في أعمال جُونْ دُونْ.

يُعلن عنوانُ هذه الصفحات المُبالَغ فيه عن طبيعته الباروكية، التي كان التلطيف منها سيُوازي تدميرَها؛ لذلك أفضِّل، هذه المرّة، أن أستدعي الحُكم *ما كَتبْتُه قد كتبتُه* (لبابا خْوان، ١٩، ٢٢)، وطباعتَها، بعد عشرين سنة، بالتمام. إنها اللعب غير المسؤول من قِبَل رجُل خَجول، لم يتحمَّس لكتابة قصص، وتسلى بالتزوير

والتأويل المُغرِض لحِكايات غيْره (دون تبرير جمالي ذات مرة).
وانتقل من هذه التمارين الغامضة إلى التأليف الشَّاق لقصة مُباشرة - «رَجُل الزاوية الوردية» - التي وقَّعها باسم جدٍّ من أجدادِه، فْرانْسِيسْكو بُوسْتُوسْ، الذي حقق نجاحا متفرِّدا وغامضا بعض الشيء.

سيُلاحَظُ، في نصه ذي النَّبرة السَّاحلية، أني قد أقحمت بعض الكلمات المثقَّفة: أحشاء، تحوُّلات، إلخ. فعلْتُ ذلك، لأن العرَّاب يتطلّعُ إلى الرِّقة، أو (هذا السبب يُلغي الآخر، لكن ربما كان هذا الحقيقي) لأنّ العَرّابين هم أفراد، وهم لا يتحدَّثون دائما مثلَ العرَّاب، الذي هو وجْه أفلاطونية.

تُعلِّم قصة *علماء المركبة العظيمة* أن الجوهري في الكون هو الفراغ. هؤلاء لهم كامل الحق فيما يخص الإحالة إلى أصغر جزء من الكون ممثَّلا في هذا الكتاب، الذي تُعمِّره المشانق والقراصنة وكلمة العار تُذْهل في العنوان، ولكنْ لا شيء يوجد تحت الضوضاء. لا شيء آخَر يوجَد سوى المَظْهر، ولكنه سطْح مِنْ صُوَر؛ ولذلك السبب نفسه يُمكن أنْ يَروق. كان الرجل الذي أعدمه شديدَ التعاسة، لكنه تسلّى بالكتابة عنه؛ والأمل في أن يصل بعض من انعكاس تلك المتعة إلى القُرّاء.

في قصة *إلى آخره* أدرجْتُ ثلاث قطع جديدة.

خ.ل.ب.

I inscribe this book to S.D.: English, innumerable and an Angel. Also: I offer her that kernel of myself that I have saved, somehow – the central heart that deals not in words, traffics not with dreams and is untouched by time, by joy, by adversities.

أقدّم هذا الكتاب إلى س.د. : الإنجليزية، التي أفضالها لا تعد ولا تحصى، وإلى أَنجِل. كذلك: أقدم لها نواة نفسي التي صُنْتُها، بطريقة أو بأخرى - صميم القلب الذي لا يتعامل بالكلمات، ولا المتاجَرات، ولا بالأحلام، ولا يتأثر بالزمن والفرح والشدائد.

المخلِّص الفظيع لازارُوسْ مورِلْ

القضية القصِيّة

في ١٥١٧، غمر ب. بَرْتُلُومي دِلَاسْ كَسَسْ أسَفٌ كثير على الهنود الذين أُنْهكوا في تَعب جحيم مناجِم الذَّهب بِجُزر الأنْتِيل، وعرَض على الإمبراطور كارلوس الخامس استيراد سود آخرين، لتعويض الذين هلكوا في الجحيم الشاق لمناجم الذهب في جزر الأنتيل. إلى هذا التنويع الغريب من هذا المُحْسِن للبشر نَدين بوقائعَ لا متناهية: ألحان بْلُوزْ لِهانْدي، والنجاح الذي حققه في باريس الرَّسّام الطبيب الشرقي د. بِدْرُو فيغاري، والنثر المتوحِّش الجيد للشرقي أيضا السيد ڤيسِنْتِي رُوسِي، والحجم الأسطوري لأبراهام لينكولن، والخمسمائة ألف قتيل في الحرب الأهلية الأمريكية، والثلاثة آلاف وثلاثمائة مليون التي أُنفِقت على معاشات العسكر، وتمثال فالُوشُّو المُتَخيَّل، والقَبول بفعل *Linchar* [إعدام دون محاكمة] في الطبعة الثالثة عشرة لمُعجم أكاديمية اللغة الإسبانية، والفيلم العنيف Aleluya [سبِّحوا لله]، والهجمة القوية بالحربة التي قادها صُولِير على مُوَلَّديه وزنوجه في موقِعة السِّرِيطُو ، وملاحة الآنسة طَالْ، والأسمر الذي اغتال مارْتين فْيِرُّو، ورقصة الرومبا المؤسفة

لِلْمانيسِرُو، والنابِليونيّ تُوسَانْ لُوفِرْتُورْ الذي أُوقِف وسُجن في زنزانة، والصليب والحية في هايتي، ودم الماعز المذبوحة بساطور بَابَالُويْ، والموسيقى الْهَافانيَّة أم التَّانغو، وموسيقى الكانْدُومْبِي.

إضافة: الوجود المذنب والرائع المخلِّص الفظيع لازارُوسْ مورِلْ.

المكان

إنّ إله المياه، الميسيسيبي، النهرَ الأكثر شسوعا في العالم، كان المسرح الأكثر جدارة بأن يُقارَن بذلك الوغد. (ألْفارِيس دي بِينِيدا وأوَّل مكتشِف له هو القبطان هِرْنَانْدو دي سُوطُو، الغازي القديم للبيرو، الذي سَلّى إنْكا أتاهْوالْبا أثناء شهور سجنه بتعليمه لعبة الشطرنج. ولما تُوفي جُعِلتْ له مياهُ الميسيسيبي قبرًا.)

الميسيسيبي هو صدر رحب؛ إنه لا نهائي وشقيقٌ غامض لنهر بَرَانَا، في الأورغواي، والأمازون، والأُورينوكو. إنه نهر ذو مياه خِلاسية؛ بأكثر من أربعمائة مليون طن من الوَحَل تُلوِّن خليج المكسيك سنويا، يقذِفُها فيه. لقد شكَّلتْ كثيرٌ من الأزبال المُبجَّلة والقديمة دِلتا، حيث تنمو أشجارُ السرو العملاقة في مستنقَعات؛ هي التي تُؤلِّف بقايا قارة في انحلال أبديّ، وحيث متاهات الوَحَل، والأسماك الميتة، والخيزران، تُمدِّد حدودَ وسلامَ إمبراطوريتها النَّتِنة. وإلى الأعلى، في مستوى أَرْكَنْسَاس وأُوهَايُو، تتمدَّد أراض منخفضة أيضًا. تُعمِّرها سلالةٌ صفراء من رجال نحيلين، مُعرَّضين للحُمى، ينظرون بشرَه إلى الحجارة والحديد، لأنه لا يوجد بينهم شيء آخر سوى الرمل والحطب والمياه الكدِرة.

الرِّجال

في بداية القرن التاسع عشر (التاريخ الذي يَهُمّنا)، كان الزنوج يعملون، في حقول القطن الشاسعة بالضفتيْن، من شروق الشمس إلى غروبها. كانوا ينامون في أكواخ خشبية، على أرضية من تراب. وخارج العلاقة بين الأم والطفل، كانت علاقات القرابة تواضُعية ومضطربة. كانت لهم أسماء، ولكن كان بوُسعهم الاستغناء عن الألقاب. كانوا يعملون مصطفِّين، ومُقوَّسين تحت سوط رئيس العُمّال. كانوا يفرون، وكان رجال ذوو لحى كثيفة يقفزون على خيول جميلة، ويتعقبونهم كفرائس بكلاب قويَّة.

لقد أضافوا إلى راسب الآمال البهيمية والمخاوف الإفريقية، كلمات الكتاب المقدَّس: لقد كان اعتقادُهم بناء عليه إيمانَ المسيح. كانوا يُغنُّون عميقا وفي حشود: *اِنْزِل يا مُوسى*. كان نهر المسيسبي يُقدّم لهم صورةً رائعة عن الأردن البائس.

كان مُلّاكُ تلك الأرض المُجِدّة وأولئك العبيد السُّود فرسانًا، لهم شَعر طويل خامِلين وجَشعين، كانوا يعيشون في بيوت كبيرة وطويلة تُطِلّ على النهر، ودائمًا لها فِناءٌ يوناني زائف من الصنوبر الأبيض. كان ثمن عبد جيّد يُكلِّفُهم ألف دولار ولا يَدُوم لهم وقتا طويلا. كان بعضُهم يقترف جُحود المرَض والموت. كان ضروريا استخلاصُ أكبر مردود من أولئك العبيد غير الآمِنين. لذلك كانوا يُلزَمون بالعمل في الحقول من شروق الشمس إلى غروبها؛ ولذلك كانتِ المَزارع تُطالَب بغِلَّة سنويَّة من القطن أو التبغ أو السكر. وفي سنوات قليلة، أُنْهِكتِ الأرضُ المتعَبَةُ والمستنزَفة بتلك الزراعة المستعجِلة، فاندسَّتِ الصحراء الغامِضة والمُجرمة في المزارع. وفي

المَزارع المهجورة بالضواحي، وفي المَقْصبات المزدحمة، وفي المَواحِل المُذِلّة، كان البيض الفقراء يعيشون، الجنس الأبيض الوغد. كانوا صيادين، وقناصين كسالى، ولُصوص دوابّ. اعتادوا أن يتسوَّلوا من السود قطعا من الطعام المسروق، وكانوا يحافظون على نوع من الكبرياء عند الإذلال: كبرياء الدم الخالي من الدَّنس، غير المُختَلِط. كان لازاروس مُورِلْ واحدًا منهم.

الرَّجُل

ليست الصُّوَر الدّاغِيريَّة [نسبة إلى لويس داغير: Louis Daguerre] المُلتقَطة لمُورِلْ، والتي اعتادت المجلاتُ الأمريكية نشرَها أَصليَّةً. فذاك النقص في صُوَر حقيقية لرَجُل جدير كثيرا بالذِّكر وشهيرٍ، لا يلزم أن يكون مصادفة. ويُحتمل أن نفترض أن مُورِل قد تنصَّل من اللوحة المصقولة أساسا، لكي لا يترك آثارًا غير مفيدة تُقتَفى، وعَرَضا لكي يُضْفي اللغز على شخْصِه... نحن نعلم، مع ذلك، أنه لم يكن وسيما في شبابه، وأن العيْنيْن القريبتيْن كثيرا، والشفَتيْن الخطيَّتيْن لم تكن تَخلُق استعدادا لِصالحه. ثم إن الأعوامَ منحته تلك الجلالة المميِّزة التي لدى الأوغاد ذوي الشّيب، والمجرمين المحظوظين وغير المُعاقبين. كان فارسا قديمًا من الجنوب، على الرغم من الطفولة البائسة والحياة المُشينة. لم يكن على معرفة بالكتب المقدسة وكان يُبَشِّر عن اقتناع متفرِّد. «أنا رأيْتُ لازاروس مُورِلْ في المِنبر -سجَّل مالكُ بيت قِمار في باتُونْ رُوجْ، في لويزيانا-، وسمعْتُ كلماته المؤثِّرة، ورأيت الدموع تُبادر إلى عينيه. كنت أعلم أنه كان زانيا،

ويسرق السُّودَ، وقاتلا باسم الرب، لكنَّ عينيَّ بَكَتا أيضًا.»

وهناك شهادة أخرى طيبة أخرى عن هذه الفيوضات المقدسة هي التي يُزوِّدنا بها مُورِل نفسُه. «فتحت الكتاب المقدس عشوائيًّا، وصادفْتُ آية مناسبة للقديس بُولُس، فوعظتُ ساعةً وعشرين دقيقة. كذلك لم يهدر ذلك الوقتَ كْرِينْشَاوْ والرفاق، لأنهم انطلقوا مُسرعين بجميع خيول الحاضرين في القاعة. لقد بِعْناها في ولاية أرْكَنْساس، باستثناء حصان مُلوَّن ونشيط جدا، احتفظْتُ به لاستعمالي الخاص. استلْطَفه كْرِينْشَاوْ أيضًا، لكنني أفهمتُه أنه لنْ يصلُحَ له.»

المَنهج

الخيول التي سُرِقتْ في ولاية وبيعتْ في أخرى هي بالكاد استطراد في مَسِير مُورِل الإجراميّ، لكنها صوَّرتْ المنهج الذي يَضْمن له الآن مكانه الممتاز في *التاريخ الكوني للعار*. هذا المنهج نسيج وحده، ليس بسبب الظروف الفريدة التي حدَّدته، وإنما بسبب الخسة التي يقتضيها، وبسبب استخدامه القاتل للأمل، وبسبب التطوُّر التدريجي المُماثِل للتطور الفظيع لكابوس. لقد تعامل آلْ كاپُونِي وبُوغْس مُورَان مع رؤوس شهيرة وبرشاشات وضيعة في مدينة كبيرة، لكن تجارتهما تافهة. إنهم يتنازعان احتكارا، ذا كل ما في الأمر... أما في ما يخص عدد الرِّجال، فإن الأمر بلغ بمُورِل أنْ قاد حوالي ألفٍ، جميعهم أقسموا له بالوفاء. لقد ألَّف مئتان منهم المجلسَ الأعلى، وأصدر هذا الأخير الأوامر التي كان يُنفِّذها الثمانمائة المتبقُّون. كان الخطر يتمثَّل في الأتباع، ففي حال التمرد كانوا يُسَلَّمون إلى العدالة أو يُلقَوْن في النهر الجارف ذي المياه الثقيلة، مع

تثبيت حَجر في أقدامهم. كانوا خِلاسيِّين بتواتر. لقد تمثَّلت مهمتهم الرائعة في ما يلي:

كانوا يجوبون المَزارع الشاسعة؛ واضعين في أصابعهم خواتم تَرِفة ومؤقَّتة، للإيحاء بالاحترام. كانوا يختارون أسْوَد تَعِسا ويقترحون عليه الحرية. كانوا يحثونه على أن يهرب من مالِكه، لكي يقوموا هم أنفسُهم ببيعه مرة أخرى، في مزرعة بعيدة. وقد يُعطونه حينئذ نسبة مئوية من ثمن بيعه، وقد يُساعدونه على فرار آخر. وقد يقودونه لاحقا إلى ولاية حرة. المال والحرية، دولارات ترِنّ فِضّةً مع حرية، أيُّ غواية أفضل يُمكنُهم أن يُهدوه إياها؟ كان العَبْد يجرؤ على فراره الأوَّل.

النهر كان هو الطريق الطبيعي. زورق، أو عنبر باخرة، أو مركب كبير، أو مِعبَرة مثل الجنة ذات مرحاض في الطَّرف أو بخيام قماشية منصوبة؛ لم يكن المكان لِيَهُمّ، ولكن معرفة الهارب بأنه يتحرك، وأنه آمِن على نهر لا يَتْعب... كانوا يبيعونه في مزرعة أخرى. ومرَّةً أخرى، كان يفر إلى المَقصَبات أو إلى الوِهاد. عندئذ، كان المحسنون المُفزِعون (الذين يكون الأسْود قد بدأ في فَقْد الثقة فيهم) يُدْلون بنفقات غامضة ويُعلنون اضطرارَهم إلى بيعه للمرَّة الأخيرة. وأنهم سيعطونه عند عودته النِّسبة المئوية لعمليَّتيِ البيع الاثنتيْن والحرية. كان الرجل يستلم لكي يبيعَ نفسه، فيعمل مدة من الوقت، وكان يتحدى في الفرار الأخير لمجازَفته بنفسه أمام كلاب الصيد والسِّياط. ثم كان يعود مضرَّجا بالدم، والعرق، وفقدان الأمل وبرغبة في النوم.

يَفْضُل النظر في الجانب القانوني لهذه الوقائع. لا يُطْرَح الأسْود للبيع من قبل رجال مُورِل القتلةِ على أنْ يُبلِّغ المالك الأوّل عنْ فراره، وأنْ يَعرض مكافأة على من يعثر عليه. وحينئذ، بِوُسع أيٍّ كانَ أنْ يستبقِيَه، لِيَكون بيعُه الآتي خرقًا للثقة، وليس سرقة. كان اللجوء إلى العدالة المدنية نفقةً لا طائل منها، لأن الأذية لم يُدفَع ثمنُها أبدًا.

كل ذلك كان الأكثر تهدئة، ولكن ليس إلى الأبد. كان يمكن للأسْوَد أن يتكلَّم؛ وكان الأسود قادرا على التحدُّث، سواء أكان امتنانُه خالصا أو تَعِسا. إن أقداحًا من ويسكي الشَّيْلَم في بيت الدعارة *القاهرة*، و*الِينُويْ*، حيث قد يذهب الحقير الذي وُلِد عبدا لتبذير تلك العملة النقدية الثمينة، التي لم يكن عليهم أن يُعطوه إياها، وهناك كان السِّرّ يَشيع خبرُه منه. في تلك الأعوام، زرع *الحزبُ الإعتاقيّ للعبيد القلاقلَ* في شمال الولايات المتحدة الأمريكية، وهو مؤلَّف من حشد من الحمقى الخطرين الذين يُنْكِرون المِلكيَة الخاصة ويُبشِّرون بتحرير الزنوج ويُحرِّضونَهم على الفرار. لم يكن مُورِل ليَترِكَ نفسَه تُخلَط مع أولئك الفوضويِّين. لم يكن يانْكِيّا، كان رجُلا أبيض من الجنوب الأمريكي، وابْنا وحفيدا للبيض، وكان يَنتظر أن ينسحب من التجارة، وأن يصير سيّدا محترَما، وأن تكون له فراسخُ من حقول القطن، وصفوف من العبيد المُنْحَنين على القطن. إن التجربة التي راكمها لم تكن لتُعرِّضها لمُجازَفات لا فائدة منها.

كان الفارُّ ينتظر الحرية. عندئذ كان مُوَلَّدو لازارُوسْ مُورِل الغامضون يتناقلون أمْرا يمكن ألَّا يتجاوز علامةً، فكانوا يغضون عنه

البصَرَ والسمع واللمس، واليومَ، والعار، والزمن، والمُحْسنين، والرّحمة، والهواءَ والكلاب، والكونَ، والأمَل، والعَرق وعنه هو نفسه. إن رصاصة، أو طعنة تحتية، أو ضربة، كانت كافية لكي تستقبل سلاحفُ الميسيسيبي وسَمكُه البُوريُّ النّبأَ الأخير.

الكارثة

كان لابد لتجارة يخدمها رجالٌ مؤتَمنين أن تزدهر. في مستهل ١٨٣٤ «حُرِّر» حوالي سبعين زنجيا من قِبل مُورِلْ، وكان آخرون يستعدون للسير على منوال أولئك الرواد السُّعداء. كانت منطقة العمليات كبيرةً، وكان ضروريا قَبول مُلتحِقين جدد. وكان من بين الذين أدَّوا القسم فتًى، هو فِيرْجِيل سْتِيوارْت، من ولاية أرْكَنْساس، تميَّز سريعا جدا بقَساوَته. كان هذا الفتى ابْنَ أخت سيِّد فَقَدَ كثيرا من العبيد. وفي غشت ١٨٣٤، حنث في يمينه ووشى بمُورِل والآخرين. طُوِّق بيتُ مُورِلْ في نْيُوأورْلِيَانْز من قِبل رجال العدالة. وأفلح مُورِلْ، بسبب غفلة أو رشوة، في الفرار.

مرَّت ثلاثة أيام. ظلّ مُورِلْ مختفيا طيلة ذلك الوقت في بيت قديم، ذي فِناءات لها لبلاب وتماثيل، بشارع تُولُوز. يبدو أنه كان يتغذى على القليل جدا، وأنه اعتاد أن يجوب الغرف الكبيرةَ والمعتِمة حافِيَ القدميْن، وهو يُدخِّن سيجارات ومستغرِقا في أفكاره. وأرْسَل عبر عبد بالبيت رسالتيْن: واحدة إلى مدينة ناتْشِز، وأخرى إلى مدينة رِيدْ رِيفِرْ. في اليوم الرابع دخل إلى البيت أربعة رجال، ومكثوا يتناقشون معه حتى الفجر. في اليوم الخامس، استيقظ مُورِل والوقتُ ظلام، طلب موسى حلاقة، وحلق لحيته باحتراس. ارتدى

ملابسه وانصرف. عَبَر في سكينة بطيئة ضواحي الشمال. ولما كان في صميم الريف، وهو يُحاذي أراضي المسيسيبي الخفيضة، مشى بخطى أخَفّ.

كانت خطَّتُه خطَّةَ شَجاعةِ سُكْر. كان عليه أنْ يستغل آخر الرجال الذين ما يزالون يَدينون له بالتبجيل: إنهم سُودُ الجنوب الخَدومون. هؤلاء كانوا قد رأوا رفاقَهم يفرون ولم يروهم يَعُودون. كانوا، بناءً عليه، يؤمنون بحريتهم. كانت خطة مورل إحداثَ تمرد كلِّيّ للسُّود، والاستيلاءَ على نيوأورليانز وسَلبَها، واحتلال أراضيها. كان موريل، المنهار وشبه المُدمَّر بسبب الخيانة، يُفكِّرُ في رَدٍّ يَعُمُّ القارة: رَدّ يُرفع به المجرم إلى مرتبة الفداء ويدخل التاريخ.

«مَشيْتُ أربعة أيام قبل أن أحصُل على حصان. في اليوم الخامس توقفت عند جدول لكي أتزوَّد بالماء ولأتَقيَّل. كنت جالسًا على حطبة، وأنظر إلى الطريق الذي قطعتُه في تلك الساعات، لَمَّا رأيت فارسا يمتطي حصانا أسْمَر بهيَّ المظهر. عندما لمحتُه قرَّرتُ أن أسلُبَه الحصان. توقَّفت، ووجهت إليه مسدسا جميلا ذا اشدة رصاص تناوبية، وأمَرتُه بأن يترجَّل. نفَّذه فأمسكْتُ بيُسراي العنانَ، وأرَيتُه الجدولَ، وأمرتُه بأنْ يمضي إليه أمامي. مشى حوالي مائتي رُمح ثم توقف. أمرته بأن يخلع ملابسه، فقال لي: «طالما أنك اعتزمتَ قتلي، فدعني أُصلّي قبل الموت». أجبتُه بأنْ لا وقت لديّ لكي أستمع إلى صلواته. سقط على ركبتيه، وأفرغْتُ عيارا ناريا في قفاه. فتحْت له جرحا في بطنه، وانتزعت أحشاءَه، ثم أغرقته في الجدول. بعد ذلك فتّشتُ جميع جيوبه، فعثرْتُ على أربعمائة دولار مع سبعة وثلاثين سنتًا وكمية من الأوراق التي لم أتأخَّرْ في مُراجَعتها. كانت جَزمتاه جديدتيْن، ومتوهِّجَتيْن، فناسَبتا قَدَمَيَّ

جيدًا. أمّا جزْمَتايَ، اللتان كانتا رثَّتيْن جدا، فقد أغرقْتُهما في الجدول.

هكذا حصلت على الحصان الضروري لكي أدخل إلى ناتْشيز.»

الانقطاع

مورِلْ الذي كان يتزعّم قُرى سوداء كانت تحلم بشنْقه، مورِل المشنوق من قبل جيوش سوداء كان يحلم بتزعُّمها -يؤلمني أن أبوح بأن تاريخ المسيسيبي لم يستغل تلك الفرص الفاخرة. وخلافا لكل عدالة الشعرية (أو تناظر شعري)، فإن نهر جرائمه لم يكن قبره أيضا. يومَ ٢ يناير ١٨٣٥، توفي لازاروس مُورِلْ بسبب احتقان رئوي في مستشفى ناتْشيز، حيث أُدخِل باسْم آخر هو سِيلاسْ بَاكْلِي. وهناك تعرّف إليه نزيل في الغرفة المشْتَركة. في اليوم الثاني والرابع، أراد عبيد بعض المزارع أن يتمردوا، لكنهم قُمِعوا دونما إسراف في إراقة الدماء.

المحتال غير القابل للتصديق
تُومْ كَاسْتْرُو

ذلك الاسمُ أُعطيه إياه، لأنه بهذا الاسم عُرِف في شوارع تَالْكَهْوانُو وبيوتها، وفي سانتياغو دي شيلي، وفي دي ڤالْپرايِّيسُو، حوالي ١٨٥٠، ومن الصواب أن يتحمَّله مرة أخرى، الآن وهو يعود إلى هذه الأراضي -ولو بصفته مجرّد شبح وتسلية يوم السبت.[١]

يُسمّى أَرْتُور أُورْتُون Arthur Orton في سجل الولادة Wapping، ويُقيَّد في تاريخ ٧ يونيو ١٨٣٤. نحن نَعْلم أنه كان ابنَ جزار، وأن طفولته كانت تعرف البؤس السليخ الذي يُعاش في الأحياء الوضيعة في لندن، وأنه استشعر نداءَ البحر. ليست الحادثة غريبة. Run away to sea، فِرَّ إلى البحر، إنه الكَسر الإنجليزي التقليدي لسلطة الأبويَيْن، البداية البطولية. تُوصي به الجغرافيا وحتى الكتاب المقدس (مزامير، ١٠٧): *الذين ينزلون البحرَ في قوارب، والذين يتاجرون في المياه العظيمة؛ أولئك يرون أعمالَ الله وعجائبه في الوهدة*. فرَّ أُورْتُون من ضاحيته المحزِنة ذاتِ اللون الوردي الملطَّخ

---

(١) تصلح لي هذه الاستعارة لكي أُذكِّر القارئ بأن هذه السِّير الذاتية المشينة قد ظهرت في الملحق السبتي لجريدة يومية مسائية.

بالسواد، ونزل البحْرَ في قارب، وتأمَّل في خيبة أمل مألوفة صليبَ *الجنوب*، وأرسى في ميناء ڤالْبارايِسُو. كان شخصا ذا بلاهة هادئة. منطقيا، كان يمكن (وكان يَلزَم) أن يموت جوعا، ولكنَّ مرَحَه الغامض، وبسمته الدائمة، ووداعتَه اللانهائية مكَّنتْه من أفضال عائلة تُسمَّى كَاسْتْرُو، التي تَبَنَّى اسْمَها. لم تبق لتلك الحلقة الأمريكية اللاتينية آثارٌ، لكنَّ امتنانَه لم يَخْتف، لأنه في عام ١٨٦١ سيظهر مجدَّدا في أستراليا، بذلك الاسم دائما: تُومْ كَاسْتْرُو. في سيدني، تعرَّف إلى خادم أسْود يُدعى بُوغْلِي. بُوغْلِي الذي لم يكن وسيما، كانتْ له تلك المسحة الهادئة والرائعة، وتلك الصلابة مثل التي لبناء هندسي يمتلكه الرَّجُل الأسْود الموغِل في العُمر، وفي الجسد، وفي السلطة. كانت له حالٌ ثانية، قد أنْكرَتْها على جِنسه كُرّاساتٌ للاثنوغرافية معيَّنَة: الدُّعابة الممتِعة. وسنرى الدليلَ لاحقا. كان رجلا معتدِلًا ومحتشِما، مع تصحيح الشهية الأفريقية القديمة بشكل كبير باستخدام وإساءة استخدام الكَالْڤينية. خارج زيارات الإله (التي سنصفها لاحقًا)، كان الأمر طبيعيًا تمامًا، مع عدم وجود مخالفات أخرى بخوف متواضع وطويل أدى إلى تأخيره في الشوارع، المشبوهة في الشرق والغرب والجنوب والشمال، من السيارة العنيفة التي ستنتهي إلى أيامه.

رأى أُورْتُن ذلك ذات مساء في زاوية خَرِبة في سِيدْنِي، مما تسبَّب في قراره تفادي الموت المُتخَيَّل. بعد هنيهةٍ نظر طويلةٍ إليه، قدَّم له ذراعه وعبَرا معا مندَهِشيْن الشارعَ غيرَ المؤذي. بدء من تلك اللحظة لِمَساءٍ ولّى، أُنشِئتْ مَحْميّة: محميّة الأسْوَد غيْرِ الآمِن على الأخرق السمين لِحيّ وَابِينْ. وفي سبتمبر ١٨٦٥، قرأ كلاهما في جريدة يومية إشعارًا محزنًا.

الرّجل الميّت المعبود

في نهاية أبريل ١٨٥٤ (بينما كان أُورْتون يفْتَعل تدفقات الضيافة التشيلية الرَّحبة مثل فِناءاته)، غرقَتْ في مياه المحيط الأطلسي السفينةُ البخارية *مِرْمايْد*، الوافِدةُ من رِيُّو دي جَانِيرو، والمُتَّجِهة إلى ليڤربول. وكان رُوجِرْ تشَارْلْز تِيشبُورْن من بين الهالِكين، وهو عَسكري إنجليزي ترعرع في فرنسا، ووكيل إحدى العائلات الكاثوليكية الرئيسة في إنجلترا. ويبدو مما لا يَقبل التصديق، غير أن وفاة ذلك الشاب المُتَفَرْنِس، الذي يتكلم الإنجليزية بأرقّ نبرة في باريس، أيقظتْ ذلك الحقد منقطع النظير، الذي يُسبّبه الذكاء الفرنسي والمَلاحة والتَّعالُم فقط، وكان حدَثا مهمًا في مصير أُورْتُون، الذي لم يَرَ مِثْلَه من قبل. أبَت السيدة تِيشِبُورْن، والدةُ روجر المُروَّعَة، أن تؤمن بوفاته، فنشرت إشعارات أليمة في الصحف الأكثر سرَيَانًا. لقد وقع أحد ذلك الإشعارات في اليديْن المأتَميَّتيْن الناعمتيْن للأسْوَد بُوغْلِي، الذي صمَّم مشروعًا عبقريًا.

فضائل التبايُنات

كان تيشبورْن فارسا رَشيقًا ذا طبع كَتوم، وقَسمات حادة، وسحنة سمراء، وشَعَر أسْود مسترسل، وعيْنيْن مُتَّقِدتيْن، وكلمات ذات دقة مزعجة؛ كان أورتون جِلْفا شديدا، ذا بطن شاسعة، وقسَمات لغموض لامتناه، وبَشَرة تميل إلى المُنمَّشة، وشَعَرا بنيا مُقصَّب، وعينيْن ناعستيْن، وذا محادثة غائبة أو غامضة. اختلق بُوغْلي أن واجب أورتون كان امتطاء أوَّل باخرة تقصد أوروبا وأنْ

يُحقِّق أمَل السيدة تيشبورن، مُفصِحا عن أنه ابنها. كان المشروع ذا حذق أخرق. بَحَث عن مثال سهل. إذا ما سعى محتال في عام ١٩١٤ إلى تقديم نفسه بصفته إمبراطورَ ألمانيا، فإن أول ما يكون عليه أن يُزوِّره هو الشاربان الصاعدان، والذراع الميتة، والحاجبان المعقودان علامةَ التسلُّط، والعباءة الرمادية، والصَّدر المزيَّن بالنياشين، والخوذة العالية. لو كان بُوغْلي أكْثرَ نباهة: لَكان قَدَّم قيصرا أمْرَد، متحرِّرا من الصفات العسكرية والنسور التشريفية، وبذراعه اليسرى في حال صحية لا شكَّ فيها. لسنا بحاجة إلى الاستعارة؛ نحن نعلم أنه قدَّم تيشبورن مترهلا، بابتسامة لطيفة صادرة عن أبله ذي شعَر بُنّي، وجهل باللغة الفرنسية لا مثيل له. كان بُوغْلي يعرف باستحالة الحصول على نسخة طِبق الأصل كاملة من روجر تشارلز تيشبورن المرغوب فيه. كذلك كان يعلم أن كل التشابُهات التي حُقِّقتْ لن تُنجز شيئا سوى إبراز بعض الاختلافات التي لا مناص منها. لذلك صرف النظر عن كل شيء شبيه. لقد حدس أن العجز الهائل في الزَّعم قد يكون حجة مقْنعة على أن الأمر لا غشّ فيه، وأنه ما كان ليكتشف أبدا بتلك الطريقة الجليّة أبسط قَسَمات الاقتناع. ولا يجب أن ننسى التعاون القدير للزمان: أربعة عشر عامًا من نصف الكرة الجنوبي ومن الحظ يمكن أن تغير رجُلا.

وهنالك سبب أساسي آخَر: لقد برهنتْ تحذيراتُ السيدة تيشبورن المكَرَّرة والخرقاء ثقتها الكاملة في أن روجر تشارلز لم يكن قد مات، وعن رغبتها في الاعتراف به.

اللقاء

كتبَ تُومْ كاسْتْرُو، الخدومُ دوما، إلى السيدة تيشبورن، واستحضر لبناءِ هويته الحجَّةَ الخليقة بالثقة القائمة على شامتيْن موجودَتيْن في الثدي الأيسر، ومن حلقة طفولته تلك، شديدةِ الإيلام، ولكنها لذلك جديرة بالذِّكر، لمّا هاجَمه سِرب من النحل. كانت البرقية موجَزة، على منوال تُومْ كاسْتْرُو وبُوغْلي، استُغنِي فيها عن التدقيق الإملائي. وفي العزلة المهيبة لفندق بباريس، قرأتِ السيدة البرقية وأعادت قراءتَها بالدموع السعيدة، وفي أيام قليلة عثرت على الذكريات التي طلبها منها ابْنُها.

في ١٦ يناير ١٨٦٧، أُعلِن عن رُوجِرْ تشارْلْز تيشبورن في ذاك الفندق. تقدَّمَه خادمُه المحترَم، إِبنِزِرْ بُوغْلي. كان اليومُ شِتويّا صَحْوا جدًّا؛ وكانت عيْنا السيدة تيشبورن المرهقَتيْن مُغرَورقَتيْن بالدموع. أشْرَع الأسْود النوافذ على مصراعيها. قام النور بدور القناع: تعرفت الأم إلى الابن الضال وفتحتْ له ذراعَيْها. الآن وقد حصلتْ عليه حقيقةً، يُمكنها التخلّي عن اليومِيّة والرسائل التي بعثَها إليها من البرازيل: مجرد انعكاسات عشق كانت قد أذْكتْ وحدتَها طيلة أربع عشرة سنة حالكة. أعادها إليها بفخر: لا سنة منها فُقِدتْ.

ابتسم بوغْلي في تكتُّم: كان لديه المكان حيث يُوَثِّق لِشَبح روجر تشارلز الوديع.

مَجْدُ ماجُورِيم

ذلك الاعتراف السعيد -الذي يبدو أنه يُنجز تقليدًا من تقاليد المآسي الكلاسيكية- كان يقتضي أن يتوج هذه القِصّة، تاركاً ثلاث سعادات أكيدة أو على الأقل محتمَلة: سعادة الأم الحقيقية، وسعادة الابن المشكوك فيه والمتسامح، وسعادة المتآمِر المُكافأ من قِبل ذروة مَجْدِ العناية الإلهية لصناعته. لم يَحُلَّ القَدرُ (كذا هو الاسم الذي نطبقه على العملية المتواصلة واللانهائية لآلاف الأسباب المختلطة) بهذه الطريقة. توفيت السيدة تيشبورن في عام ١٨٧٠، فرفع أقاربُها شكوى في حقّ آرثر أورتن بتهمة انتحاله الحالة المدنية. كانت الدموع تُعوِزهم والوحدة، وليس الطمع، فهم لم يؤمنوا أبدًا بالابن السّمين وشبه الأُمِّيّ والابن الضال، الذي عاد إلى الظهور في وقت غير مناسب من أستراليا. اعتمد أورتون على دعم دائنين لا عَدَّ لهم، مِمّن كانوا قد قرَّرُوا أنه تيشبورن، حتى يتمكن من دَفْع تلك الديون.

كذلك اعتمد على صداقة محامي العائلة، إدوارد هوپْكنز، وصداقة تاجر التُّحف فرانسيس ج. بِيْجِين، لكن ذلك لم يكف. تصوَّر بُوغْلي أنَّه لربْح الشهادة كان لا مناص من فَضْل تيار شعبي قوي. استدعى الأمر قبعةَ التّشريفات والمظلة اللائقة، وذهب طالِبا الإلهام في شوارع لندن المزيَّنة. كان الغروب قد حلّ؛ فهام بُوغلي فيها إلى أن تضاعَف قمر بلون العسل في المياه المستطيلة للنافورات العمومية. زارَه الرَّبُّ. تفكَّه بوغْلي مع سائق عربة، فساقه إلى ديوان بِيْجِين للتُّحَف. بَعثَ الأخيرُ رسالة مُطوَّلَة إلى جريدة التَّايْمِز، أكَّد فيها أن تيشبورن المُفتَرَض كان مُخادِعا وقحًا، ووَقَّعها الأب غُودْرُون

من جمعية يسوع. وتَلَتْها شكاوى بابوية هي الأخرى. كان تأثيرها فوريًا: لم يتَخلَّ الناس الطيبون عن حزْر أن السّيد روجر تشارلز كان هدفا لمؤامرة مقيتة من قبل اليَسُوعيين.

العرَبَة

استمرَّ ت الدعوى مائة وتسعين يومًا. وأدلى حوالي مائة شاهد بأن المتهم كان هو تيشبورن نفسُه -من بينهم أربعة رفاق في السلاح من فوج التنين السادس. ولم يَكِلَّ أنصارُه عن تَرديد أنه لم يكن مخادِعًا، لأنه لو كان كذلك لكان سعى إلى محاكاة الصُّوَر الشبابية لمثاله. وللإضافة، فإنّ السيدة تيشبورن تعرفت إليه، والمُسلَّم به أن الأم لا تخطئ ابنَها. كل شيء كان يسير على ما يرام، أو بخير نوعا ما، إلى أنْ تقدَّمت عشيقةٌ قديمة لأورتون إلى المحكمة للشهادة. لم يضطرب بُوغْلي أمام تلك المناورة الغادرة من «الأقارب»؛ لقد احتاج إلى عربة ومَطريَّة، وذهب لِيَبتهل إلهاما ثالثا عبر شوارع لندن المُزيَّنة. أبدًا لن نَعْلم أبدا إنْ كان قد عثر عليه. وقبل وُصُوله إلى بْريمروزْ هِيلْ بوقت قصير، أدركَتْه العربَةُ المُفزِعة التي كانت تلاحقه منذ أعوامٍ خالية؛ رآها أنها آتيَة، فأطلق صرخة، لكنه لم يفلح في الخلاص. قُذِف به بعنف على الحجارة. لقد شجَّتْ حوافرُ الأحْصنة جمجمتَه.

الطَّيف

كان توم كاسترو شبح تيشبورن، لكنه شبح بئيس تَسكُنه عبقرية بوغْلي. عندما قِيلَ له إن بوغْلي قد مات أحسَّ بأنه قد قُضِيَ عليه.

استمرَّ يكذب، ولكن بحماس أقلَّ وبتناقضات خرقاء. كان يسيرا توقُّع النهاية.

يومَ ٢٧ فبراير ١٨٧٤، أُدين آرتور أورتن (المعروف ب) توم كاسترو بالسجن لمدة أربع عشرة سنة من الأعمال الشاقة. صيّر نفسَه في السجن محبوبا. كانت تلك حرفتَه. صلُح له سلوكه المثالي لكي تُخفَّض مدَّتُه أرْبعَ سنوات. ولَمّا انتهتْ تلك الضيافة النهائية -ضيافة السجن- جابَ قُرى المملكة المتحدة ومراكزها، وألقى محاضَرات قصيرة أعلن فيها براءته أو أكد فيها ذَنْبَه. كان تواضعه ورغبته في الإرضاء على درجة من الاستمرار حتى إنه في ليالي كثيرة بدأ محاضراته بالدفاع وأنهاها بالاعتراف، وخادما لميول الجمهور دوْمًا.

توفي في ٢ أبريل ١٨٩٨.

الأرْملة شِينْغ، القُرصان

تجازف كلمة قرصنة corsarias بإيقاظ ذِكْرى مزعجة بشكل غامض: ذكرَى موسيقى ورقص ثارْثويلا التي بَهَت لونها فعلا، مع نظرياتها الجلية عن الخادمات، اللائي تصرَّفن كقُرصنات راقصات في بحار من الكارْتُون جدير بالذِّكر. ومع ذلك، فقد وُجِدت قُرصانات: نساء ماهرات في المناورات البحرية، في تسيير ملَّاحين بهيميين، وفي تعقُّب ونهب السفن ذات الشأن. كانت إحداهنَّ ماري رِيدْ، التي أعلنت ذات مرة أن مهنة القرصنة ليست لكي يمتهنها أي كان، ولكي تُمارَس بكرامة، كان من الضروري أن يكون المرءُ مِقداما، مثلها هي. في البداية غير المهمة لمَسيرها المهني، لما لم تكن قبطانًا بعد، أُهِين أحد عاشقيها من قبل قَبضاي سفينتها. لقد تحدَّته ماري بدعوته إلى مبارزة وقاتلته بكلتا يديْها، وفق الطراز القديم لجزر البحر الكاريبي: المسدس المتغوِّر وغير الثابت في اليد اليسرى، والسيف الوفيّ في اليد اليُمنى. أخفق المسدس، لكن السيف تصرَّف بشكل جيد... وحوالي سنة ١٧٢٠، توقف مَسير ماري رِيدْ الخطير بسبب مشنقة إسبانية، في سانتياغو دي لا فيغا (جامايكا).

وكانت هناك امرأة قُرصانٌ أخرى بتلك البحار هي آنِي بُونِيْ،

التي كانت امرأة إيرلندية وضّاءة ذات ثديين نافريْن وشعَر متوثّب، جازفت بجسدها أكثر من مرة على متن السفن. كانت رفيقةَ سلاح لماري رِيدْ، ثم في المشنقة أخيرًا. وكان لعشيقها، القبطان جُونْ راكام، الذي كانت له كذلك عقدتُه الزالقة في هذه المهمة. آنِي المُهينة وجدتْ هذا الصنف الخَشن من اللوم في تعامل «عايشة» مع «أبو عبد الله»: «لو كنت قد قاتَلتَ مثل الرجال لما كنتَ ستُشنَق مثل الكلب[1]».

وهناك امرأة أخرى، أكثر حظًا وعمرًا مديدا، كانت قُرصانًا تجوب مياه آسيا، بدء من البحر الأصفر إلى أنهار التي على تخوم أنَام. أتَحدَّث عن أرملة شينغ المُحنّكة.

سنوات التعلُّم

حوالي ١٧٩٧، أسس المُسهِمون في الكثير من كتائب القراصنة في ذلك البحر اتحادا، وعيَّنوا رجُلا يُدعى شِينْغ أميرالا عليهم، وهو رجل منصف ومجرَّب. وكان هذا شديد الصرامة ومثاليًا في نهب السواحل لدرجة أن السكان المذعورين توسَّلوا نجْدَةَ الإمبراطور بالعطايا والدّموع. لم يُعْرَض عنْ طلبِهم المثير للشفقة: لقد تلقَّوا الأمر بإضرام النار في قُراهم، وأنْ ينسوا أشغالَهم في الصيد، وأنْ يُهاجروا إلى داخل البلد، وأنْ يتعلَّموا عِلما مجهولا يُسمّى الزراعة. لذلك، وجدوا أنفسَهم مضطرّين إلى التعاطي لسلب السُّفن: وهو

---

(١) العبارة الشهيرة هي لأبي عبد الله آخر ملوك بني أحمر في الأندلس: «ابكِ مثل النساء ما لم تُدافع عنه مثل الرِّجال.» [المترجم]

تَلَف أيضا أكثر إضرارا من السابق، لأنه كان يُزعِج التجارة بحق. لم تتردد الحكومة الإمبراطورية، وأمرت الصيادين القُدامى بترك المحراث والثَّوريْن، وأنْ يُصلحوا المجاذيف والشباك. ثار هؤلاء، الذين كانوا أوفياء للخوف القديم، فقرَّرت السلطات سلوكًا آخر: عيَّنتِ الأميرال شينغ رئيسًا للإسطبلات الملكية. كان هذا الأخير سيقبل الرشوة. وعرَف المُسهِمون بذلك في الوقت المناسب، فأبدوا سُخطَهم البارع في صحن يرقات مسمومة، طُبِخت مع أرز. كانت الحلوى قاتلة: فقد أسلم الأميرال السابق والرئيس الجديد لإسطبلات الإمبراطورية روحَه إلى آلهة البحر. حشدتِ الأرملةُ، التي تغيَّرتْ بفعل الغدر المُضاعَف، القراصنةَ وأطلعَتْهم على القضية المُعقَّدة، وحثَّتهم على رفض رحمة الإمبراطور المُزيَّفة والخدمةِ الجحود للمُسْهِمين هُواة التسميم. واقترحتْ عليهم النهب البحريّ لحسابهم الشخصي، وأنْ يختاروا بالتصويت أميرالا عليهم جديدا. لقد وقع اختيارهم عليها هي نفسُها. كانت امرأة هزيلة، ذات عينيْن ناعستيْن وابتسامة ساخرة، وشعَر أسود ومُزيَّت أكثر التماعا من العينيْن.

بأوامرها الهادئة، اندفعت السفن تخوض في الخطر وفي أعالي البحار.

القيادة

تتابعت ثلاث عشرة سنة من المغامرة المنهجية. تكوَّن الأسطول البحري من ستة فيالق في سفن ذات أعلام مختلفة الألوان: الأحمر، والأصفر، والأخضر، والأسود، والبنفسجي، وسفينة الأفعى، التي كانت سفينة القيادة. كان رؤساء السُّفن يُسمَّون الطائر والحجر،

وعِقاب ماء الصباح، وجوهرة الطاقم، وموجة بكثير من الأسماك، والشمس العالية. القانونُ، الذي كتبتْه الأرملة شينغ شخصيًّا، ذو صرامة غير قابلة للاستئناف، وأسلوبُها العادل والموجَز يصرف النَّظر عن التنميقات البلاغية، التي تُضفي جلالا، بالأحرى، تافها على الطريقة الصينية الرسمية، التي سنقدم منها بعض الأمثلة المُخوِّفة في وقت لاحق. أنقُل بعض البنود:

«ستُنقل كلُّ الخيرات المنقولة من سفن العدو إلى مستودع، وستُسجَّل هناك. وسيُسلَّم لاحقا لكل قُرصان خُمُسُ ما يُسْهِم به؛ وسيُحتَفظ بالباقي في المستودَع. إنّ انتهاك هذا الأمر جزاؤه الموت.

«عقوبة القرصان الذي قد يترك موقعه دون إذن خاص سيكون هو ثقب أذنيه أمام الملأ. العودة إلى ارتكاب هذه المخالفة جزاؤها الموت.

«المُتَاجَرة بالنساء المختطفات من القرى محظور على ظهر السفينة؛ ويجب أن تقتصر على عنبر السفينة، ودائما بإذن من وكيل الشَّحن. وانتهاك هذا الأمر جزاؤه الموت».

وتؤكد التقارير التي أمدَّها السُّجناء أن جراية أولئك القراصنة تتمثَّل أساسا في بسكويتات، وفئران سمينة وأرز مطبوخ، وأنهم تعوّدوا أيامَ القتال على مزج البارود بكحولهم. أوراق اللعب والنردات التدليسية، والكأس ومستطيل «الفانتان»، وخيالات غليون الأفيون والفانوس الصغير لتزجية الوقت. سيْفان للاستعمال المتزامن كانا السلاح المفضَّل. قبل ركوب السفينة، كانت الوجنتان والجسد تُرَشُّ بنقيع الثوم؛ وهو طلسم موثوق فيه لتفادي أفواه النَّار.

كان المَلاحون يُسافر مع زوجاتهم، لكنَّ القبطان يكون مع

حريمه، الذي كان يتألَّف من خمس نساء أو سِتّ، وكانت الانتصارات تُجدِّدُهن.

يتحدَّث كِيَنْغ-كِينْغ، الإمبراطور الشاب

في منتصف سنة ١٨٠٩ صدر منشور إمبراطوري، أنْقُل منه الجزأيْن الأوَّلَ والأخير. وقد انتقد كثيرون أسلوبه:

«رجال تُعساء ومؤذون، رجال يدوسون الخبز، رجال لا يأبَهون لصخب جُباة الضرائب والأيتام، رجال صُوِّر في ملابسهم الداخلية طائِر الفينيق والتنين، رجال ينكرون حقيقة الكتب المطبوعة، رجال يتركون دموعهم تنهمر وهم ينظرون إلى الشَّمال، رجال يُزعجون سعادة أنهارنا والثقة القديمة لبحارنا. رجال في سفن معطَّلة وهشَّة يواجهون العاصفة ليلَ نهارَ. هدفُهم ليس خيريّا: لَيسوا أصدقاء حقيقيين للبَحَّار ولم يكونوا كذلك أبدا. وبعيدًا عن تقديم يد العون له، هم يُهاجِمونَه بدافع مفترِس ويدْعُونه إلى الخراب أو بتر عضو أو الموت. هكذا ينتهكون القوانين الطبيعية للكون، بحيث تفيض الأنهار، وتغمر المياه الضفافَ، ويقلب الأطفال ظهر المجن للوالدين، وتختلُّ قوانينُ الرطوبة والجفاف ...

... ولذلك أَعْهد إليك بالعقاب، أيها الأميرال كُفُو-لانْغ. لا تَنْس أن الرحمةَ صفةٌ إمبريالية، وأنها قد تكون ادّعاء من الرعية محاولة تَوَلّيها. كن فظيعا، وعادلا، ومُطاعا، ومُنتصرا.»

طبعا، كانت الإشارة العرَضية إلى المراكب المعطَّلة خاطئة. كان هدفها استنهاض همم حملة كُفولانْغ Kvo-Lang. تسعين يومًا بعد ذلك، واجهت قوات أرملة شينغ قوات الإمبراطورية المركزية.

تقاتلت قرابة ألف سفينة من شروق الشمس إلى غروبها. ورافقت العملية جوقة مختلطة من النواقيس، والطبول، وضرْب المدافع، واللعنات، والصنوج، والنبوءات. تفكَّكتْ قوات الإمبراطورية. لم تُتَح الفرصة للصفح الممنوع ولا القسوة الموصى بها لكي تُزاوَل. لقد راقب كْفُولانْغ طقسًا اختار معه جنرالاتنا المهزومون إغفاله بقرار: الانتحار.

الضِّفاف المَذعورَة

وقتئذ، صعدتْ قوات الأرملة المتغطرسة نهْرَ سي-كيانغ من مَصبِّه بستمائة قصبة حربية والأربعين ألف قرصان المنتصرين، فضاعفوا الحرائق والاحتفالات المُفزِعة والأيتام يُمنة ويُسرة. لقد سُحقتْ قرى برمَّتها؛ ففي إحداها فقط، تخطى عدد السجناء ألْفا. إن مائة وعشرين امرأة ممّن التَمسن الحمايةَ الغامضة في المأسُلات وحقول الأرز المجاورة فضَحَهُنّ بكاء طفل عجزْن عن احتوائه، فبِيعتْ في ماكَاوْ لاحقًا. وعلى الرغم من بُعد كيا-كينج، ابن السماء، فإن الدموع البائسة وأحزان تلك الأضرار بلغتْه أنباؤُها. يزعم بعض المؤرخين أنها آلَمتْه أقلَّ من كارثة حملته التأديبية. الأكيدُ هو أنه نظَّم حملة ثانية فظيعة ببيارِقها، وبحَّارتها، وجنودها، وعتادها الحربي، ومُؤَنها، وتطيُّراتها ومُنجِّميها. وُضعتِ القيادة هذه المرة على عاتق تينْغ-كْفي. صعدت تلك الحشود الهائلة من السفن دِلْتا سي-كيانغ، وأغلقتْ المنافذ على فيلق القراصنة. تجهَّزت الأرملة للمعركة. كانت تعلم بصعوبتها، صعوبتها الشديدة، ويائِسةً تقريبًا؛ بسبب ليالي السلب وأشْهُره، وكثرة الترفيه الذي أضعفَ رجالَها،

وبسبب المعركة التي لم تَشرع أبدا. دون عجلة كانت الشمس تشرق وتغرب على القصب المرتجف. كان الرجال والأسلحة يسهرون الليل. كانت منتصفات النهار أكثر جبروتا، وأوقات القيلولة لانهائية.

التّنين والثّعلبة

ومع ذلك، كانت قطعان من التِّنّينات الطائشة والعالية والكسولة تظهر كل مساء من فيالق السفن الإمبراطورية، وتستريح بلباقة على الماء وعلى سطوح سُفن العدو. كانت بناءات هوائية من ورق وقصب، في صيغة طائرات ورقية، وكان سطحُها الفضي أو الأحمر يُكرِّر سِمات مُتطابقة. دقَّقت الأرملة بتلهُّف في تلك النيازك العادية، وقرأت فيها خرافةَ تِنّين بطيئةً وغامضة، كان يحمي ثعلبة دوما، على الرغم من جحودها الطويل وجرائمِها الثابتة. امَّحق القمر في السماء، وجَلبتِ الصُّور التي من ورق ومن قصب، كلَّ مساء، القصَّةَ نفسَها، مع اختلافات تكاد تكون غير محسوسة. كانت الأرملة تَقلق وتُفكّر. ولَما اكتمل البدر في السماء والماء احْمَرّ، بدا أنّ القصة قد أشرفتْ على نهايتها. لا أحد أمْكَنَه أن يتنبأ إنْ كان صفحٌ بلا حدّ أو عقابٌ غير محدود سيَحلّان بالثّعلبة، لكن النهاية التي لا مناص منها كانت تدنو. فهمت الأرملة ذلك؛ فألقت بِكِلا سيْفيْها في النهر، وجلسَت على رُكْبتيْها في زورق، وأمرتْ بأنْ تُقادَ حتى سفينة القيادة الإمبراطورية.

كان الغروب قد حل: كانت السماء ممتلِئة بالتنينات، وهذه المرة صفراء. همهمتِ الأرملة جملة: «الثعلب يبحث عن جناح التنين»، وهي تصعد على متن السفينة.

التّمجيد

يحكي الإخباريُّون أن الثعلبة حصلتْ على الصّفح وكرَّست شيخوختَها البطيئة لتهريب الأفيون. لقد تخلَّتْ عن أنْ صفتها *الأرملة*؛ وتبنَّتْ اسمًا معنى ترجمتِه الإسبانية هو *التماعُ التعليمات الحقيقية*.

«منذ ذلك اليوم (يكتب مؤرخ)، استردَّت المَراكب السلام، وصارت البحار الأربعة والأنهار التي لا عَدَّ لها طرقًا آمِنة وسعيدة.

«تمكَّن المزارعون من بيع السيوف وشراء الثيران لأجل حرث حقولهم. وقدَّموا أُضحيات، وأنشدوا ابتهالات على قمم الجبال، وابتهجوا طيلة النهار وهم يغنون خلف سواتر خشبية.»

مقدم الإثم الراهب إِيشْتْمَان

رِجال أمريكا هذه

رفيقان ارتسَما جانبيًّا على خلفية من جدران سماوية اللون أو من السماء العالية، يرتديان ملابس سوداء رزينة، ويرقصان بأحذية نسائية رقصة شديدة الخطورة، هي رقصة السكاكين المتماثلة، إلى أنْ تقفز من أُذن قرنفلة، لأن السّكين يكون قد دخل في رَجل، هذا الأخير يُغلِق بموته وتمدُّده أفقيًّا الرقصة دونما موسيقى. مُذعِنا، يُسوي الآخَرُ البرنيطة، ويَصْرفُ شيخوخته لحكاية تلك المبارزة النظيفة جدا. تلك هي القصة مفصَّلةً وكاملة لسَفالَتِنا. أما قصَّة رجال العِراك في نيويورك فهي أكثر إثارة للدّوار وأكثر رعونة.

رِجال الأخرى

لحكاية عصابات نيويورك (التي كَشف عنها سنة ١٩٢٨ هِرْبِرْت أَسْبُورِي في مجلد لائق من ٤٠٠ صفحة من قطع الثُّمْن) الغموض والقساوة التي لحكاية نشأة الكون المتوحِّشة ولكثير من عدم أهليتها العِملاقة: قِباءُ المَعامِل القديمة للجعة أُهِّلتْ لتُستَعمل مَنازلَ للسُّود،

هي بنايات نيويوركية من طوابق ثلاثة أصابَها الكُساح، عصابات من قُطّاع طُرق مثل ملائكة *المستنقع* Swamp Angels تَنهب بين متاهات البالوعات، وعصابات من قُطّاع طُرق مثل *أولاد الفجر* Daybreak Boys الذين كانوا يُجنِّدون قتلة مُبَكّرين عُمُرُهم بين عشرة أعوام وأحد عشر عاما، عمالقة وحيدون ووَقِحون مثل *الأغنياء الشَّرسين* Plug Uglies، الذين يتحرَّوْنَ اقتناء ضحكة الآخرين، التي لا يُمْكن تصديقُها بقبعة ثابتة وعالية ممتلئة بالصوف، وبتنورات واسِعة للقميص تموِّجُها ريح الضاحية، ولكن بِهِراوة في اليُمنى ومسدس ضخم متواضع؛ عصابات من قُطّاع الطُّرق مثل *الأرانب الميتة* Dead Rabbits الذين كانوا يدخلون المعركة تحت لواء أرنب ميت على عمود؛ رجالٌ مثل جُونِي دُولَانْ الدَّانْدي، الشهير بِبَكرة الشَّعَر الزيتيّة على جبينِه، وبِعِصيٍّ لها رأس قِرد، وبالجِهاز النحاسيّ الصغير والدقيق، الذي عادة ما كانَ يُنتَعَل في الإبهام لتفريغ عيْني الخصم؛ رجال مثل كِيتْ بِيرْنْزْ، القادر على قطع رأس جُرذ حي بعضَّة واحدة؛ رجال مثل بْلِينْدْ داني لِيُونْز، الفتى الأشقر ذي العيْنيْن الميِّتيْن والواسِعتيْن، قَوّاد له ثلاث عاهرات كُنّ يتجوَّلْن بكبرياء بسبَبِ حمايته؛ صفوفُ منازلَ بشرفة حمراء كتلك التي تديرها الشَّقيقات السبع في نْيُو إِنْجلَانْد، اللائي كُنّ يُخصِّصن أرباح ليلة عيد الميلاد لأعمال خيرية؛ ومنظم القتال بين جرذان جائعة، وبين كلاب سَغِبة، وصاحب بيوت القمار الصينية، ونساءٌ مثل رِيدْ نُورَا التي ترمَّلتْ مرارا، تلك التي أحبها وتباهى بها أمام جميع الرجال الذين سيَّروا عصابةَ غُوفِرْس؛ ونساء مثل ليزي دي الدُّوفْ، التي لبستْ الأسود حدادا على دانِي لِيونْز التي أُعدِمتْ ذبحا من قبل جِنْتْلِ مَاجي، التي ناقشَتْها شغفَها القديم بالرجل الأعمى والميت؛

وعصيانات مثل عصيان الأسبوع الوحشي عام ١٨٦٣، الذي أُحرِقت فيه مائة بناية وكاد المتمردون يسيطرون أثناءَه على المدينة؛ معارك في الأزقة التي كان يضيع فيها الرجل مثلما في البحر، لأنه كان يُداس حتى الموت؛ لصوص الخيول ومُسمِّموها مثل يُوسْكي نِيجِر - هم الذين نسجوا هذه الحكاية الفوضوية. أما بطلُها الأشهر فهو إِدْوَارْدْ دِيلَاني، الذي يُعرَف باسم ويليام ديلاني، وباسم جُوزِيفْ مَارْفِين، وباسم جوزيف مورِّيس، وباسم مُونْك إِيسْتْمان، زعيم ١٢٠٠ رَجل.

البطل

تلك الخِداعات التدريجية (المؤلمة مثل لُعْبة الأقنعة التي لا يُعْرف فيها من يكون خلفَها) يُغفَل اسمُها الحقيقي - إذا ما جرُؤنا على التفكير في وجود نظير هذا الشيء في العالم. الأكيد هو أنه في *السجل المدني في ويليامزبرغ*، بروكلين، الاسم هو إِدْوَارْد أُوسْتِرْمَان، وجُنِّسَ أميركيا في إيستمان لاحقًا. الشيء الغريب هو أن ذلك الشرير العاصف كان عِبريًّا. كان ابْنا لمالك مطعم كان يُعرَف باسم كُوشِير Kosher [موافق للشريعة اليهودية]، حيث بوُسع الأحبار الربانيّين المُلْتَحين أن يستهلكوا دون مجازفةٍ اللحومَ النازفة والنظيفة ثلاث مرات لعجول مذبوحة بِاستقامة. في التاسعة عشرة من عمره، حوالي عام ١٨٩٢، دشَّن بمساعدة والده متجرًا لبيع الطيور. كان حبّ الاطلاع على مَعيش الحيوانات، والتأمُّل في قراراتها الصغيرة وسَبْر غور براءَتها شغَفا رافقه حتى نهايتِه. في مراحل تألُّق لاحقة، لما كان يأبى في ازدراء تدخينَ السيجار الورقي *ساشيم* sachems

[رئيس القبيلة] المُنمَّش لتَماني Tammany أو كان يَزور أفضل المواخير في عربَة متنقّلة سابقة الأوان، والتي كانت تبدو ابنا طبيعيا لجندول، لقد فتح متجرًا ثانيًا مزوَّرًا، كان يأوي مائة قط راق وأكثر من أربعمائة حمامة، لم تكن للبيع لأيّ كان. كان يُحبُّها واحدة واحدة، وكان يترجَّل في حيِّه رفقة قطة سعيدة في ذراعه، وكانت القطط الأخرى تتبعه في حماس.

لقد كان رجلاً مخرِّبًا وضخْما. كانت الرقبة قصيرة، مثل رقبة الثور، والصدر حصينا، والذراعان قتاليتيْن وطويلَتيْن، والأنف مكسورا، والوجه ولو أن ندوبَه لها تاريخ فهي أقل أهمية من الجسم، والساقان مُلتويَتيْن مثل فارس أو بَحار. كان يمكنه أنْ يستغني عن القميص وكذلك السُّترة، وليس عن عُرف جاليريتا تافهة على رأس ماردة. يُعنى الرجال بذِكْراه. جسديا، هو حامل المسدَّس المتعارَف عليه في أفلام تقليد، وليس على شاكلة كابُوني الخُنثى والرِّخو. يُقال عن فولْهِيم إنه شُغِّل في هوليوود، لأن قسَماته ألمحت مباشرة إلى تلك التي للمَرْثي له مونْك إيسْتْمان... هذا الأخير خرج ليجوب إمبراطوريته الخارجة عن سيطرته بحمامة ذات ريش أزْرق على كتفه، مثلما ثور على متنه طائرُ الحَوِيَّة.

حوالي عام ١٨٩٤، كانت قاعات الرقص العمومية كثيرَة في مدينة نيويورك. وكان إيستمان مكلَّفا في إحداها بالحفاظ على النظام. وتحكي الأسطورة أن رجل الأعمال لم يرغب في حضوره وأن مونك أظهر كفاءتَه بتدميره بضوضاء لعملاقيْن توَلَّيا أمْرَ العَمَل. مارس ذلك العمل إلى غاية سنة ١٨٩٩، وكان مَهيب الجانب ووحيدا.

كان مقابل كل مشاجِر يُهدِّئُ، يرسم علامة بالسكين في الهراوة

المتوحِّشة. ذات ليلة، لفتتْ نظرَه صلعةٌ برّاقة كانت تنحني على قنينة جعة فقرَع صاحِبها بضربة هراوته، وصاح لاحقا: «كانت تنقصُني علامة واحدة لإتمام خمسين!»

القيادة

منذ ١٨٩٩، لم يكن إيسْتْمان مشهورًا فحسب، بل زعيما انتخابيا لمنطقة مهمة، وكان يحصل على إعانات مالية قوية من بيوت الأضواء الحمراء، ومن المَقْمرات، ومن مومسات الشوارع، ومن لصوص تلك الإقطاعية الخسيسة. كانت اللجان تستشيره لتُنظِّم أعمال الإساءة والخاصة كذلك. وها هنا مداخيل أتعابه: ١٥ دولارًا لقاءَ قَطع أُذُن، و١٩ مقابل كَسر ساق، و٢٥ مقابل طلقة في ساق، ٢٥ مقابل طعنة، ١٠٠ مقابل العمل برمَّتِه. أحيانا، ولِيلّا يُضيِّع إيستمان عادتَه، كان يُنفّذ المهمة شخصيا.

لقد وضعتْهُ مسألة حدود (الرهافة والمزاج العكر مثل الأخرى التي يُرجئُها القانون الدولي) في مواجَهة بُولْ كِيلِي، الزعيم الشهير لعصابة أخرى. كانت الطلقات النارية واختلاط الدوريات هي التي عيّنت الحدود. عبَر إيستمان تلك الحدود ذاتَ فجر، فهاجَمه خمسة رجال. بتلكما الذِّراعيْن الدّوارِيتيْن اللتيْن تُشبهان ذراعي قرد، وبضربة الهراوة جعل ثلاثة منهم يتدحرجون، لكنهم رموا بطنَه برصاصتين وتركوه في حُكم القتيل. ثبَّتَ إيستمان جرحه الساخن بالإبهام والسبابة، وخطا بخطوات سِكِّير إلى غاية المستشفى. تعاقبت عليه الحياةُ والحمى المرتفعة والموت أسابيعَ عديدة، لكن شَفتيه لم تنبسا ببنت شفة لتُبلِّغ عن أي شخص. ولَمّا خرج، كانت الحرب

واقعة، وازدهرت في تراشق بالنار مستمر إلى التاسع عشر من غشت من سنة تسعمائة وثلاثة.

معركة رِيفِينْغْتُون

حوالي مائة بطَل يختلفون بشكل مبهم عن الصور التي ستكون في تلاش بالمذكِّرات، هم حوالي مائة من أبطال مُتْخمين بدخان التبغ والكحول، وحوالي مائة أبطال بقبعات من قش ذات شريط ملوَّن، وحوالي مائة أبطال قِلّةٌ منهم أو كثرة مُصابون بأمراض مُخجِلة، أو التسوُّس، أو وعكات المسالك التنفُّسية، أو الكِلي، هم حوالي مائة أبطال تافهين أو رائعين مثل أبطال طروادة أو جونين، هم من نفّذوا ذلك الفعل الداكن المُسلَّح في عتمة أقواس إِلِفايْتِدْ *Elevated*. كان السبب هو الجزية التي ألحَّ في طلبها مسلحو كِيلِي من رجل أعمال صاحب مَقْمَرة، وصديق مونك إيستمان. قُتل أحد المسلحين وتطوَّر التراشق بالنار إلى معركة لرقم لا يُعَدّ من المسدَّسات. في حمايةِ الأعمدة الشاهقة، كان الرجال ذوو الذقون الحليقة يُطلقون الرصاص في صمت، وكانوا مركز أفق مذعور من سيارات أجرة محمَّلة بتعزيزات من المتوثِّبين، وبمَدفعية كُولْت في قبضاتهم. بم أحَسّ أبطال تلك المعركة؟ أوّلا (أظُنّ) الاقتناع المتوحّش بأن الضجيج الأرعن لمائة مسدس سيقضي عليهم فوْرا؛ ثانيًا (أظن) الوثوق الأقلّ خطأ بأن إطلاق النار الأوَّل إذا لم يقض عليهم، فلأنهم لا يُمكن النيْل منهم. الأكيد هو أنهم قاتلوا بحماس، متحصِّنين بالحديد والليل. تدخلت الشرطة مرَّتين ورُدَّت مرَّتين. عند الإشراقة الأولى للفجر انتهى القتال، كما لو كان داعرًا أو طيفيًّا.

تحت الأقواس الهندسية الهائلة، عُثر على سبعة رجال بجروح بليغة، وأربعة جثامين وحمامة ميتة.

الطَّقطقات

لطالما كذّب السياسيون الخورانيون، الذين كان مُونْك إيستمان في خدمتهم، على الملأ وجود نظير تلك العصابات، أو أوضحوا أنَّ الأمر لا يعدو مجرّد جمعيات ترفيهية. لقد أثارت معارك ريفينجتون غير المتحفِّظة تخوُّفَهم، فدَعوا القائدين إلى اجتماع لإبلاغِهم ضرورةَ الوصول إلى هدنة. كيلي (العليم جدًّا بأن السياسيين كانوا أكثر أهليّة من كلّ مسدَّسات كُولْتْ لعرقلة عمل الشرطة) قال على الفور نعم؛ إيستمان (مَزْهوا بغطرسة جسده الهائل والعنيف) تاق لمزيد من التفجيرات والمزيد من الاشتباكات، فبدأ بالرفض، فاضطروا إلى تهديده بالسجن. في الأخير، اجتمع الشِّريران البارزان في حانة، وكان كل منهما يضع في فمه سيجارًا مورّقًا، بينما اليد اليمنى على المسدس وحولَه تحرسه سحابة من المسلحين بالمسدَّسات. لقد أرْسَوا على قرار أمريكي جدا: أن يُوكلوا خصامَهم إلى مباراة ملاكمة. كان كيلي ملاكمًا شديد المهارة. وجرت المبارزة في عنبر وكانت شاذة، شاهدَها أربعون ومائة متفرجٍ، بين أصدقاء السجن المُشوَّه ونساء ذوات تسريحات شَعَر هشة وضخمة. استمرت المباراة ساعتَيْن وانتهت بإنهاك تام. أسبوع بعدها، شُرِع في التراشق بالنَّار. أُلقِي القبض على مونْكْ مَرّات لا تُعَدُّ. الحُماة شُغِلوا عنه بارتياح؛ وقد تنبَّأ له القاضي، بمنتهى الصدق، بعشر سنوات سجْنًا.

إيستمان مناهضا لألمانيا

عندما خرج مونْكْ الذي كان لا يزال مرتبكا من سجن سِينْغَ سينْغ، كان الأَلْفُ ومائتا قُطّاع الطرق ممَّن كانوا تحت قيادته قد تفرَّقوا. لم يعرف السبيل إلى جمعهم، فاستسلم ليعمل لحسابه الشخصي. ويومَ ٨ سبتمبر ١٩١٧، أثار فوضى في الطريق العام. ويوم ٩ قرر المشاركة في اضطراب آخر، والتحق مُجنَّدا بفوج مشاة.

نَعلَم العَديد من ملامح حملته. ونَعلم أن استهجانَه بحماس إلقاء القبض على السجناء، وأنه ذات مرة (بعقب بندقيته وحدها) منع تلك الممارسة المحزنة. ونعلم عن نجاحه في الفرار من المستشفى إلى الخنادق. ونعلم أنه تميّز في المعارك التي جرتْ قريبا من مونْتْفاوْكُون. ونعلم أنه لاحقا أبدى رأيه في أن العديد من الرَّقصات الصغيرة لِبُورِي كانت أشْجَعَ من الحرب الأوروبية.

السِّرّيّ، نهاية منطقية

في ٢٥ من ديسمبر ١٩٢٠، استفاق أحَدُ شوارع نيويورك المركزية على جسد مونْك إيستمان مُمدّدا. لقد تلقى خمس عيارات نارية. حولَ جثته، كانت قطة جاهلة سعيدة بالموت ومن أكثر القطط ابتذالا تحوم حوله بنوع من الحيرة.



القاتلُ غيرُ المكترث بِيلْ هاريغان

صورة أراضي أَرِيزُونَا، قبل أي صورة أخرى: صورة أراضي أريزونا ونيو مكسيكو، أراضٍ ذات أساس سَنِيّ من ذهب وفضة، أراضٍ مُدوِّخة وهوائية، أراضي الهضبة الضخمة والألوان اللطيفة، أراضٍ بِوهج أبيض لهيكل عظمي نتفته الطيور. في تلك الأراضي صورة أخرى، صورة بِيلِي الطِّفْل: الْفارس المسَمَّر على الحصان، الشاب ذو المسدسات القاسية التي تصيب الصحراءَ بالدُّوار، مُرسِل رصاصات غير مرئيّة تقتل من مسافة بعيدة، مثلما السِّحر.

الصحراء ملَوَّنةٌ معادنَ، قاحلة ومتوهِّجة. شِبْهُ الصِّبِيّ الذي بموته في الواحد والعشرين من عمره كان مَدينا لِعَدالة الرجال بواحد وعشرين قتيلا - «دون احتساب المكسيكيين».

ولاية لارْفَالْ

حوالي سنة ١٨٥٩، وُلِد من سيكون رَجُل الرّعب والمجد بِيلِي ذِي كِيدْ، في دِيْر صغير ديماسيّ في نيويورك. قِيل إن رَحِمًا إيرلنديًّا متعَبًا قد أنجَبه، ولكنه نشأ بين السُّود. في تلك الفوضى من الصَّنن والعيوب البسيطة استَمْع المتقدِّمُ بما تَهَبُه النَّمش ومَفْرق شَعَر أحمر.

كان يمارس كبرياءَ كونه أبيض؛ وكذلك كان هزيلا، مُتوَحِّشا، وبَذِيئا. في الثانية عشرة من عمره انضمَّ إلى عصابة مستنقع *الملائكة*، الآلهة التي تعمل بين المجاري. في الليالي التي تكون برائحة ضباب محترق، كانوا يَنْبَرون من تلك المتاهة النتنة، ويتبعون مَسير ملّاح ألماني، ويُحطّمونه بشظِيّة، ويسلبونه حتى ملابسه الداخلية، ثم يَنْقلبون لاحقا إلى الزبالة الأخرى. كان يقودهم أسود شائب، هو غَاسْ هَاوْسِرْ جُونَاسْ، المعروف بصفته مُسَمِّم الخيول أيضا.

أحيانا، من شُبّاك عُليّة منزل محدودَب قريبا من الماء، كانت امرأة تدلق دلوًا من رماد على رأس عابِر. كان الرجل يرتجُّ ويختنق. ومباشَرة كان أفراد ملائكة *المستنقع* ينقضون عليه، ويخطفونه إلى فم قبو، ويسلبونه.

كذلك كانت سنوات تَعلُّم بِيلِي هَارِيغان، الذي سيصير بِيلِي الطِّفْل في المستقبل. لم يكن يزْدري العروض المسرحية؛ وكان يروقه حضور مِيلُودْرامات رعاة البقر (ربما دون أي شعور مسبَّق بأنها كانت رموزا ورسائل من مَصيره).

اِمْضِ غَربا

إذا كانت المسارح الجماهيرية في بَاوِرِي (التي يصيح المتزاحمون فيها «أشهِروا الخرقة!» عند أقلِّ تأخر في رفع الستارة) تكثر فيها تلك الميلودرامات بفارسها وطلقات النار، فالسبب الأَسْهل هو أن أمريكا كانت تعاني وقتئذ من جاذبية الغرب. خلفَ الأراضي الغَرْبيّة كان ذَهَبُ نيفادا وكاليفورنيا. خلفَ الأراضي الغَرْبيّة كانت الفأس محطّمة الأرْز، والوجه الأسطوري الضخم لِثور البَيْسُون،

والقبعة العالية والعديد من قيعان أنهار بْريغام يُونْغ، وشعائر الرجل الأحمر وغضبه، والجوّ الصافي للصحارى، والمرج شاسع الامتداد، الأرض الأساسية التي تُسرِّع نبضات القلب مثلما يحدث عند الاقتراب من البحر. الغرب كان ينادي. لقد عمَّرتْ تلكَ السنواتِ إشاعةٌ موزونة إيقاعيا: إشاعة أولئك الآلاف من الرجال الأمريكيين المحتلِّين الغربَ. في ذلك التقدم، حوالي ١٨٧٢، كان بيل هاريغان المتلوِّي دوْمًا، يفر من زنزانة مستطيلة.

تدمير مكسيكي

تقترح الحكاية (التي، على غرار مخرج فيلم سينمائي معيّن، تمضي قُدُما عَبر صُوَر مُتقَطِّعة) الآن حكاية حانة خَطِرة، توجَد في الصحراء القديرة مثلما في أعالي البحار. الوقت ليلة عاصفة عام ١٨٧٣؛ المكان محدَّد، جانو *إسْتاكادو* (*نِيُو مِكْسِيكو*). الأرْضُ تكاد تكون ناعمة بشكل خارق للعادة، لكن السَّماء ذات سحب مختلة، مع تمزُّقات تُحدِثها العاصفة والقمر، وهو مكانٌ مليء بآبار تتشقَّق وبالجبال. توجد على التراب جمجمة بقرة وعواء الذئب وعيْناه في العتمة، وخيول لطيفة، وضياء الحانة المُمدَّد. في الداخل، الرجال الأشداء جنبا إلى جنب يشربون كحولا مثيرا للشجار، ويتباهون بقطع نقدية كبيرة من فضة، فيها حية ونسر. سكير يغني في لا مبالاة. هناك من يتحدثون بنطق صوت السِّين، ما يَلْزم أن تكون اللغة إسبانية، ذلك أن من يتكلمونها مُزدَرَون. بِيلْ هاريغان، هذا الجُرَذ الحمراوي، هو واحد مِن السِّكّيرين. لقد أتى على شرب كأسَيْ عَرَق، وهو يفكر في طلب أخرى، ربما لعدم توافره على فلس واحد. يُرهِقُه رجال تلك

الصحراء. يراهم مُفزِعين، وعاصفين، وسعداء، وبدافع الحِقد يراهم حُكماء في إدارة الممتلكات من عبيد وخيول طويلة. بغتة يَعمّ صمتٌ مطبق، وحْدَه الصوْتُ الأخرق للسِّكّير يتجاهلُه. دخل مكسيكي أكثر من مَتين، ذو وجهِ هنديّة عجوز. يبدو ضخما في قبعته الكبيرة وبمسدَّسيْن على ورِكيْه. بلغة إنجليزية صفيقة يرجو ليلة سعيدة لجميع الغرباء الأمريكيِّين أبناءِ العاهرات الذين يَشربون الخمرة. لا أحد جَرُؤ على أن يتحداه. يسأل بِيلْ من يكون الرَّجُل، فَهُمِس في ارتعابٍ أنه الدَّاجُو - دِيِّيغُو - إنه بِليسارْيُو فِيَّاغْران، مِن تِشيهِوَاوا. مُباشرَةً دوَّى انفجار. مُحصَّنًا بحزام من أولئك الرِّجال الطِّوال، أَطلَق بِيلْ رصاصة على الدَّخيل. سقطت الكأسُ من قبضة فِيَّاغْران؛ وبعد ذلك، سقط الرجل برُمّته. لم يحتج الرَّجلُ إلى رصاصة أخرى. ودون التفضُّل بالنظر إلى الميّت الفاخر، استأنف بِيلْ الكلام. يقول «أصحيح؟». [٢] «طيِّب، أنا بيل هاريغان، من نيويورك.» وواصل السِّكّير الغناء، في غير اكتراث.

الآن يُحزَر التأليه. سمح بأن يُصافَح بالضغط على يده، وقبِل المداهَنات، والهتافات وكؤوس الويسكي. لاحظ أحدُهم عدم وجود علامات في مسدسه، فاقترح عليه أنْ يحفر له واحدة لِتدُلّ على وفاة فِيَّاغْران. احتفظ بِيلِي كِيدْ بخنجر ذلك الشخص، لكنه قال «لا مدعاة لتسجيل المكسيكيين». ربما، ذاك، لا يكفي. بِيلْ، في تلك الليلة، افترش غطاءَ سريره إلى جانب الجثة، ونام حتى الفجر -في تباه.

وَفيات لأنها بالتأكيد كذلك

من تلك الطلقة السّعيدة (في سِنّ الرابعة عشرة) وُلِد بِيلي كِيدْ البطل وتُوفِّي بِيلْ هاريغَان الهارب. ارتقى صبي المجاري والشَّطيةِ إلى رَجُل الْحُدود. أضحى فارسا؛ تعلّم اعتلاء الحصان على طريقة وْيُومِنْغ أو تِكْساس، ليس بالجسد متراجعا القهقرى، على طريقة أُورِيغُون وكاليفورنيا. أبدا لم يُشابِه أسطورتَه، لكنه كان بصدد الدنُوّ منها. إنَّ شيئا من عرّاب نيويورك استمرّ في راعي البقر؛ لقد زرع في المكسيكيين الكراهية التي كان السود سابقا يلهمونهم إيّاها، لكن الكَلمات الأخيرة التي فاه بها كانت (سيئة) كلمات باللغة الإسبانية. تَعلَّم فن الصعلكة من رُعاة البقر. تعلَّم الشيءَ الآخر، الشيءَ الأصعب، تعلم أن يقود الرجال؛ كلا الشيئيْن ساعداه على أن يكون سارقا جيدًا للممتلَكات. أحيانا، كانت القيثارات ومواخير المكسيك تجرجره إليها.

مع الوضوح الفظيع للأرق، كان يُنظّم حفلات قصف حاشدة، كانت تستمر أربعة أيام بليلها ونهارها. وفي الأخير، قرِفا، كان يدفع الحساب بالرَّصاص. لقد كان الرجل الأكثر تخويفًا، طالما أن إصبع الزناد لم يخذله (وربما لا أحد سواه وأكثر فرادة) على تلك الحدود. غَارِيتْ، صديقه، العمدة الذي قتله لاحقا، قال له ذات مرة، «أنا مارستُ الرماية كثيرا بقتل الجواميس.» فأجابه بيلي بلطف شديد: «أنا مارستُها أكثرَ، بقتلي للرجال». التفاصيل غير قابلة للاسترداد، لكننا نعلم أنه مَدين في حدود إحدى وعشرين وفاة – «دون احتساب المكسيكيين». طيلة سبع سنوات شديدة الخطورة، مارس ذلك البذْخ: الشجاعة.

ليلةَ ٢٥ يوليو ١٨٨٠، عبَر بيلي كِيدْ الشارع الرئيسَ راكضا بحصانه ذي الشعر الأبيض والأحمر، أو الشارعَ الوحيد، في فُورْتْ سُومْنِر. كانت الحرارة ضاغطة ولم تَكن المصابيح قد أُشعِلتْ؛ العمدة غاريتْ جالسًا على كرسي أرجوحة في ممر، أخرج المسدس، ورماه بعيار ناري في بطنه. واصل الحصان ذو الشعر الأبيض والأحمر سَيْرَه، بينما خَرَّ الفارس على الطريق الترابي. رماه غاريت برصاصة ثانية. أهل القرية (العارفون بأن الجريح هو بِيلِي ذي كِيدْ) أحكموا إغلاق النوافذ. كان الاحتضار طويلا وتجديفيًّا. ومع طلوع الشمس عاليةً، شرعوا يقتربون ونَزعوا عنه سلاحَه؛ كان الرَّجل ميِّتا. لقد لاحظوا عليه مِسحة التفاهة التي تكون عند الموتى.

حلقوا له لحيته، وغمدوه في ملابس جاهزة، وعرضوه للتخويف وللهزء به في الواجهة الزجاجية لأفضل مستودع.

توافد الرجال على الخيول أو في عربة تِيلْبُورِي على مدار عشرة فراسخ. وكان عليهم في اليوم الثالث أن يضعوا له الماكياج. وفي اليوم الرابع وارَوْهُ التراب جَذِلين.

سيِّد الاحتفالات غير المتَحضِّر
كُوتْسُوكِ نُو سُوكِ

الرّجُل المُشين في هذا الفصل هو سيد الاحتفالات غير المتحضر كُوتْسُوكِ نُو سُوكِ، وهو موظّف مشؤوم تَسَبَّب في تقهقر رتبة سيّد بُرج آكُو ومَوتِه، والذي لم يرغب في أن يَقضِيَ على نفسه مِثل فارس عندما هدَّده الانتقامُ المناسب. إنه رجل يستحق عرفان كلِّ الرجال، لأنه أيقظ ولاءات ثمينة، وكانت المناسبة السيئة والضرورية لعَمل خالد. هناك مائة رواية ودراسة، وأطروحة دكتوراه وأوبرا خَلَّدتْ الْحَدث -حتى لا نأتي على ذكر التدفُّق في الخزف واللّازَورد الرخامي وصمغ اللَّكّ. حتى السيلولويد المتقلِّب يَخْدُمه، لأن التاريخ العقائدي لسبعة وأربعين قُبطانا - كَذا هو اسمه - هو الإلهام الأكثر تكرارا للمصور السينمائي الياباني. إن المجد الدقيق الذي تؤكده تلك الانتباهات المضطرمة هو شيء أكثر من مبرَّر: إنه عادل لأي شخص على الفور.

أتابع قصة م.ب.مِيتْفُورْد، الذي يتغاضى عن التّسليات المستمرة التي يقوم بها اللَّوْن المحلي، ويُؤْثر العناية بحركة الحلقة المجيدة. ذلك النقص الجيّد في «الاستشراق» يدعو إلى الارتياب في رواية مباشرة من اللغة اليابانية.

الشريط المَفكوك

في ربيع ١٧٠٢ الحائل، كان على السيِّد الشهير صاحب بُرْجِ آكُو أن يستقبل مبعوثا إمبراطوريا ويُرحِّب به. ثلاثمائة وألفا عام من المجاملة (بعضُها أسطورية)، قد عقَّدت بشكل مُقلِق مراسم حفل الاستقبال. كان المبعوث يمثل الإمبراطور، ولكن على سبيل الإلماع أو الرَّمز: طابَع لم يكن أقل ملاءمة لإعادة الشحن من التخفيف. ولمنع أخطاء مُتعِبة وقاتلة بسهولة، استبقه مُوظَّفٌ في بَلاطِ يِيدُو بصفته رئيسا للاحتفالات. كِيرَا كُوتْسُوكِ ولَيس سُوكِ بعيدًا عن رفاهية البلاط، ومحكوم عليه بالإقامة في قرية جبلية، تَلزَم أن تكون قد بدت له منفى، أعطى التعليمات دون نعمة. أحيانا كان يُمدِّد وقاحةَ نبرة حازمة. كان مُريدُه، سيِّدُ البرج، يسعى إلى إخفاء ذلك الهزء. لم يكن يعرف سبيلا إلى الرَّد، وكانت التربية تنهاه عن أيِّ عنف. وعلى الرغم ذلك، فذات صباح، فُكَّ شريط حذاء المعلم، فطلب هذا الأخير منه أن يربطه له. أنجز الفارس ذلك بتواضع، لكن مع غيظ داخلي. فقال له سيِّد الاحتفالات غير المتحضِّر إنه، في الحقيقة، كان غير قابل للإصلاح، وأن شخصا خَشِنا وحْدَه كان قادرا على أن يُسفسف عقدة شديدة الرُّعونة. اِسْتَلَّ سيِّدُ البرج السيفَ، وعالَجَه بضربة. الآخَرُ فَرّ، بالجبين بالكاد وُقِّع عليه بخيط دقيق من الدم . . . أيّاما بعد ذلك، قَضَت المحكمة العسكرية على الجارِح مدينة إيّاه بالانتحار. في الفناء المركزي لبرج آكو، نُصبتْ منصة من اللِّبد الأحمر وعليها أُظْهِر الرَّجلُ المُدان، وسُلِّم خنجرًا من الذهب والأحجار الكريمة، اعترف الرجل علانية بذنبه، وشرع يخلع ملابسه حتى الحزام، وبَقَر بطنه بجرْحيْن شعائرِييْن، ومات مثل ساموراي،

ولم ير المتفرِّجون الأكثرُ بُعدا الدماء، لأن اللِّبْد كان أحمر. بالسَّيف قَطع رأسَه رجلٌ أشْيب وشديد الحذر: المستشار كورانوسوكي، عرَّابُه.

مُصطَنِعُ العار

صُودِر بُرج *تاكومي نو كامي*. وشُتِّتَ قباطنتُه، وحُطِّمتْ عائلتُه وعُتِّم عليها، وقُرِن اسمُه باللَّعن. لقد راجتْ إشاعة ذهبتْ إلى أنّه في الليلة نفسها التي قُتل فيها، تداول سبعة وأربعون من قباطنته في قمة جبل وخططوا، بمنتهى الدقة، لما حدث بعد ذلك بسَنة. الحقيقة هي أن تلك الأحداث لزِمَ أن تُباشَر بين تأخُّرات مبرَّرَة وحدوثِ بعض مَجالِسهم، ليس في قمة جبل وعرة، وإنما في كنيسة صغيرة في غابة، ذات جناح متواضع ذي خشب أبيض، لا زُخرف آخَر فيه سوى الصندوق المستطيل، الذي يحوي مرآة. كانت لديهم رغبة في الانتقام، ويَلْزم أن يكون الانتقامُ قد بدا لهم بلوغُه متعذِّرا.

كان كِيرا كُوتسُوك نو سُوك، سيِّدُ الاحتفالات الممقوت، قد حصَّن بيتَه، وتكفَّلت سحابة من الرُّماة والمُسايِفين بحراسة هودجه. كان يعتمد على جواسيس غير قابلين للارتشاء، منتَظِمين وكَتومين. لم يُسْهر على حراسة أي أحد منهم ومراقبته مثلما حصل مع القبطان المُفتَرض للمنتقمين: كُورَانُوسوكِ، المستشار. لاحظها هذا الأخيرُ ذلك مصادَفة، فأقامَ مشروعَه الثَّأرِيَّ على هذا المعطى.

انتقل إلى كِيُوتُو، وهي مدينة لا تُضاهى في الإمبراطورية بكاملها بسبب الألوان في خريفها. انساق مع فتنة المواخير، والمَقمرات والحانات. وعلى الرغم من الشَّيب في رأسه، فإنه كان يُخالط

المومسات والشعراء، وحتى أشخاصا أسوأ منهم. وقد طُرِد ذات مرَّة من حانة، فصحا صُبحا وهو نائمٌ في العتبة، برأسه مُمرَّغا في القيء.

تعرَّفه رجُلٌ من سَاتْسُومَا، فقال في حزن وحنق: *أليس هَذا، بالمُصادَفة، ذلك المستَشار لِأَسَانو تاكومي نُو كَامي، الذي ساعده على الموت، والذي عِوضًا عن الثأر لسيّده انساق مع الملذات والخِزْي؟ آه، أنتَ، يا من لا يليق بك اسم ساموراي!*

داس الرَّجُل على الوجه النائم وبصق عليه. ولَمَّا دان الجواسيسُ تلك الاستكانة، أحسَّ كُوتْسُوكِ نو سُوكِ بارتياح كبير.

لم تقف الوقائعُ هناك، فقد طرد المستشار زوجة الرجل وأصغر أبنائه، واشترى عشيقة في ماخور، وذاك عار شهير أفرح قلب العدو وأراح الحذر المتوجِّس لديه من العدو. وانتهى الأمر بالأخير إلى صرف نصف حراسه إلى حال سبيلهم.

في إحدى ليالي الشتاء الفظيعة من عام ١٧٠٣، تجمّع سبعة وأربعون قبطانًا في حديقة خَرِبة بضاحية يِيدُو، قريبا من جسر ومن معمل لبطاقات اللَّعب. ذهبوا حاملين أعلام سيِّدهم. وقبل أن يشْرَعوا في الهجوم، نبَّهوا الجيران إلى أن الأمرَ لا علاقة له بانتهاك، بل بعملية عسكرية هي قمَّة في العدل.

الندبة

هاجمت جماعتان قصر كِيرَا كُوتْسُوكِ نُو سُوكِ. قاد المستشار الجماعةَ الأولى، التي هاجمتْ الباب الأمامي؛ وقاد الثانية، ابنُه الأكبر، الذي كان يوشك على بلوغِ ستة عشر عاما، والذي توفي في تلك الليلة. يَعلَم التاريخ باللحظات المتنوعة لذلك الكابوس الجليَّة

للغاية: النزول المجازف بالتَّدلي في سلالم من حبال، وطبل الهجوم، وتسرُّع المدافعين، والرماة المُهدِّدون فوق السطح، والاتجاه المباشر للسِّهام نحو الأعضاء الحيوية في الإنسان، والخزف المَعيب بالدم، والموت الملتهب الذي يصير ثلجيا بَعْدُ، ووقاحات الموتِ واضطراباتُه. مات تسعة قباطنة؛ ولم يكن المدافعون أقَلَّ شجاعة، ولم يريدوا الاستسلام. بعد منتصف الليل بقليل، كَفَّتْ كلُّ مقاومة.

كِيرَا كُوتْسُوكِ نُو سُوكِ، السبب المخزي لتلك الولاءات، لم يظهر له أثر. بُحِث عنه في كل أركان ذلك القصر المُبَلبل، وشرع اليأس من العثور عليه يدب في النفوس لما انتبه المستشار إلى أن ملاءات سريره لا تزال دافِئة. أُعيدَ التفتيش مُجدَّدا، فاكْتُشفتْ نافذة ضيّقة تُخفيها مرآة برونزية. وفي الأسفل، انطلاقا من فناء صغير معتِم، كان رجل في لباس أبيض ينظر إليهم. كان في يده اليمنى سيف يرتجف. ولَمَّا نزل الجنود إليه، استسلم الرجل دون عراك. في جبينه كانت ندبة تَلمع: الرسم القديم لسيف تَاكُومي نو كامي.

عندئذ، انطرح القباطنة الدّمويون عند أقدام المبْغوض، وقالوا له إنهم كانوا ضُبّاط سيِّد *البرج*، الذي كان هو المذنب المسؤول عن هلاكه ونهايته، وتوسلوا إليه أن ينتحر، كما يليق بساموراي أنْ يفعل.

عبثا كان اقتراحهم مثل تلك اللباقة على روحِه الخنوع. كان رجلا يتعذَّر على الشرف الوصول إليه؛ وعند الفجر اضطُرُّوا إلى ذبحه.

الشهادة

بعد أنْ شفى القباطنةُ غليلَهم بالانتقام (ولكن دون حنق، ودون اضطراب، ودون أسف)، ذهبوا إلى المعبد الذي تُحفَظ فيه رُفاتُ سيِّدهم.

في مرجل يحملون رأسَ كِيرَا كُوتْسُوكِ نُو سُوكِ غير القابل للتصديق، ويتناوبون على الاعتناء به. يعبرون الحقول والأقاليم، في هُدى ضوء النهار الصادق. يباركهم الرجال ويبكون. يَرغب أميرُ سِنْدَايْ في أن يُضِيفهم، لكنهم يُجيبون بأن سيدهم ينتظرهم منذ عامين تقريبا. يَصِلون إلى القبر المُعتِم ويُقدِّمون رأسَ العدو قُرْبانا.

أذلت المحكمة العليا بِحُكمها. إنه الرَّجل الذي ينتظرون: لقد مُنحوا امتياز الانتحار. جميعُهم ينفِّذونه، وبعضهم في سكينة مضطرمة، ويستريح بجانب سيِّدهم. يأتي رجال وأطفال للدعاء عند قبر أولئك الرجال المؤمنين للغاية.

رَجُلُ ساتْسُومَا

من بين الحجاج الذين يأتون، يوجد فتى أَغْبر وتَعِب أكيد أنه قدِم من بعيد. يسجد أمام نُصُب أُوِيشِي كُورَانُوسُوكِ، المستشار، ويقول بصوت عالٍ: *رأيتك مستلقيا عند باب ماخور في كِيُوتُو، ولم أتصوَّرْ أنك كنت تُدبِّر أمر الانتقام لسيِّدك، واعتقدْتُ أنك جندي لا إيمانَ له، فبصقْتُ على وجهك. لقد جئت لأقدِّم لك رضاي*. قال هذا وارتكب *الهَرَاكارِي*.

تعاطف رئيسُ الدَّيْر مع شجاعَتِه، ومنحَه قبرا في المكان الذي يستريح فيه القباطنة.

هذه هي نهاية حكاية الرجال السبعة والأربعين المخلصين - والتي لا نهاية لها، لأن الرجال الآخرين، أقْصِدُ نفسَنا نحن الذين قد لا نكون مخلصين، ومع ذلك لن نفقد الأمل بالكامل في أن نكون كذلك، سنستمر في تكريمهم بالكلمات.

الصّباغُ المُقنَّع حَكيمُ المَرْوَزيّ

إلى أَنْخِلِيكَا أُوكَامْبُو

إذا لم أُخطئ، فإن المصادر الأصلية للمعلومات عن المقنع، نَبِيّ خُرَاسانَ المَخفيّ (أو بدقة أكْثَر، المقنع)، تُقلَّص إلى أربع: أ) مُوجَزات *تاريخ الخلفاء* المحفوظة من قبل البَلاَذِرِيّ، ب) *المُختَصَر العملاق* أو *كتاب الدقة والمراجعة* للمؤرخ الرسمي للعباسيين، ابن أبي طاهر طيفور، ج) المخطوط العربي بعنوان *إبادة الوردة*، حيث تُفنَّد الهرطقات المقيتة *للوردة السوداء* أو *الوردة المَخْفِيّة*، الذي كان الكتاب الكهنوتي للنبي، د) نقود بدون صور منحوتة نَبش عنها المهندس أَنْدْرُوسُوف أثناء تسوية أرض لِمَدِّ سكة الحديد تْرانْس قَزْوِين. أُودِعتْ تلك النقود في خزانة نُقود طِهران، وتضم نُتَفًا من الدُوبَيْت الفارسي، تلخِّص أو تُصحِّح بعض المقاطع من *الإبادة*. لقد ضاعت *الوردة* الأصلية، لأن المخطوط الذي عُثِر عليه في ١٨٩٩، نُشِر بنوع من الاستخفاف من قِبل Morgenländisches Archiv [الأرشيف الشرقي]، وأَعْلنَ هُورْنَ أنه منتَحَلٌ وأكّد ذلك بَعْده السَّيد بِيرْسِي سَايْكس.

تعود الشّهرة الغربية للنَّبي المَخفيّ إلى قصيدةٍ ثرثارة للشاعر مُور Moore، مثقلة حنينا وبتنهيدات متآمِرٍ إيرلندي.

اللون القِرمزيّ الأرجواني

في عام ١٢٠ للهجرة وعام ٧٣٦ للصليب، وُلِد في تُرْكِستان الرجُل حَكِيم، الذي سيُلقِّبه رجال ذلك الزمان وذلك المكان المَخفيّ لاحقًا. كان موطنُه مدينةَ مَرْوَ القديمة، التي تنظُر حدائقُها وكرومها ومروجها في حزن إلى الصحراء. في الظهيرة تكون بيضاء ومُبْهِرة، عندما لا تُعتِمها سُحبُ الغبار تخنق الرجال، وتترك على العناقيد السوداء رقائق ضاربة إلى البياض.

نشأ حكيم في تلك المدينة المتعَبة. ونَعلم أن أخًا لأبيه مَرَّنه على صنعة الصّباغة: فن الكُفّار والمزيِّفين والمُتقَلّبين، الذي أوحى له بأولى اللّعنات في مَسيرِه الحافل.

و«وجهي من ذهب (يُعلن في صفحة شهيرة من *إبَادة*) *لكنني نقعْت الأرجوان، وفي الليلة الثانية ضمَّختُ الصوف غير المُكشَّط، وأتخْمتُ في الليلة الثالثة الصّوفَ الجاهز، وكان أباطرة الجزر لا يزال يتنازعون تلك الملابس المُضرَّجة دَمًا. هكذا أذنبت في سنوات شبابي، وقوَّضْت الألوان الحقيقية للمخلوقات. وكان الملاك يقول لي إن الأكباش لم تكن بلون النمور، وكان الشيطان يقول لي إن الإله الجَبّار يريدها له وأن الاعتماد يكون على خِداعي وأرجواني. الآن، أنا أعرف أن الملاك والشيطان ضَلّا الحقيقةَ وأن الألوان كلّها مَقيتة*.»

في عام ١٤٦ للهجرة، اختفى حكيم من وطنه. وعُثِر على الغَلايّات وصهاريج الغطس، إضافة إلى سيف هندي من شيراز ومرآة برونزية جميعُها محطَّمة.

الثور

في مُحاق شعبان سنة ١٥٨، كان هواء الصحراء صافيا جدا، وكان الرجال ينظرون جهة الغرب بحثا عن هلال رمضان، الذي يحثّ على قهر النفس والصيام. كانوا عبيدا، وشحاذين، وتُجّارَ خيول، ولصوصَ جِمال وجزّارين. في وقار افترشوا الأرضَ، مُنتظرين العلامة، عند مَدخل محطّة قوافلَ في الطريق إلى مَرْوَ. كانوا ينظرون إلى المغيب، وكان لون الغروب بلون الرّمال.

من أعماق الفلاة المُدوِّخة (التي تتسبب شمسها في الحمى، مثلما يَبعثُ قمرها على الدهشة) شاهدوا ثلاثة أشكال تتقدم، وتراءتْ لهم طويلة جدّا. كانت الأشكال الثلاثة جميعُها لآدميين، وكان لأوسطهم رأس ثور. عندما دَنَوا، انتبهوا إلى أن الأخير كان يعتمر قناعا، وأنَّ الآخَريْن كانا أعمَييْن.

استقصى أحدُهم (كما في حكايات ألف ليلة وليلة) سبب تلك الأعجوبة. *إنهما أعمَيان*، أفادَ الرَّجلُ المُقَنَّع، *لأنهما نظرا إلى وجهي*.

النمر الأرْقط

يحكي الإخباريّ العباسي أن رجل الفلاة (الذي كان صوته حُلوا بشكل استثنائيّ، أو هكذا بدا لهم لاختلافه عن وحشية قِناعه)، قال لهم إنهم ينتظرون علامة شهر التوبة، لكنه هو كان يُبشّر بعلامة فُضلى: علامة حياة توبة برمتها وبموت مَهين. قال لهم إنه حكيم بن عثمان، وأنه في عام ١٤٦ للهجرة اقتحم عليه رجُلٌ بيتَه، وبعد أن

توضَّأ وصلى، قطع رأس المقتحِم بسيف هندي وانتقل به إلى الجنة. على اليد اليمنى للرَّجل (الذي كان هو الملاك جَبريل) كان رأسُه أمام الإله، الذي أسند إليه مهمة نشر الرسالة، ولقَّنه كلمات قديمة للغاية كان تَكرارُها يُحرق الأفواه، ونفخ فيه وهَجا مجيدا لم تُطقه العيونُ الفانية. التسامح. كذلك كان التبرير للقناع. وعندما سيؤمن كلُّ أهْل الأرض بالقانون الجديد، سيُكْشَف لهم عن الوَجْه، وسيكون لهم أن يعبدوه دون مُجازَفة -كما تعشقه الملائكة الآن. بعد إعلان حكيم عن مهمته، حضَّهم على الحرب المُقدَّسة -الجِهاد - وعلى الاستشهاد المُناسِب.

أنكر الإيمانَ بعقيدته العبيدُ، والشحّاذون، وتُجار الخيول، ولصوص الإبل، والجزّارون: وصرخ صوتٌ *ساحرٌ* وآخَرُ *دَجَّال*.

أحضر أَحدُهم نمِرا أرْقط -ربما مثال من تلك السلالة الممشوقة والدموية، التي يُربِّيها القنّاصون الفارسيون. الأكيد هو أنه تخلَّص من سجنه. عَدَا النبيّ المقنع والخادِمَيْن، تدافع النَّاسُ للفرار. ولَمّا عادوا، كان الوحش قد عَمِيَ. وأمام العيون المضيئة والميِّتة، سجد الناسُ لحكيم، واعترفوا بفضيلته الخارقة للطبيعة.

النبي المَخفيّ

يروي المؤرِّخ الرَّسمي للعباسيين، دُون حماس كبير، تقَدُّم حكيم *المَخفيّ* في خُراسَان. ذلك الإقليم -الذي تأثر كثيرا بِنكبة زعيمِه الأكثر شهرة وصَلبِه- اعتنق بحماس يائس مَذهب *المُحَيّا الوهّاج*، وقدَّم له دمه وذهبه. (حكيم، حينها، صرف النَّظر عن صورته الوحشية مقابل حجاب رُباعِيّ من الحرير الأكثرِ بياضا

والمُطرَّز حِجارَةً. كان اللون الشِّعاريّ لبني عباس هو الأسْود؛ فاختار حكيم اللون الأبيض -الأكثر تعارضًا- مع *الحجاب الواقي* والبيارق والعِمامات.) بدأت الحَملة جيِّدًا. صحيح أنه في *كتاب الدقة* أعلامُ الخليفة هي المنتصرة في كل مكان، ولكن بما أن النتيجة الأكثر تواترا لتلك الانتصارات هي تنحية الجنرالات وهجر الحصون الحصينة، فإن القارئ الفطِنَ يعرف ما يمكن أن يتَّكل عليه. عند مُحاق قمر رجب سنة ١٦١ للهجرة، فتحت مدينة نيسابور الشهيرة أبوابها المعدنية *لِلمُقَنَّع*؛ وفي مُستهَل سنة ١٦٢ للهجرة، فُتِحت له أبواب أستراباذ. لقد قُلِّصَ الدَّور العسكري لحكيم (مثلما الدَّور العسكري لنبيٍ آخَرَ أكْثرَ حظّا) إلى ابتهالِ صوتِ مُغنٍّ صادِح، لكنه يرتقي إلى الأُلُوهيَّة انطلاقا من مَتن جمل أحْمرَ، في القلب المضطرب للمعارك. كانت السهام حوله تَصفِر دون أنْ تجرحَه أبدا. بدا أنه كان يبحث عن الخطر: وفي الليلة التي طاف فيها حول قصره بعض المجذومين المَقيتين، أمرهم بالمُثول بين يديه، وقبَّلهم وسلَّمَهم فضة وذَهبا.

فوَّض أعباءَ الحُكم إلى ستة أو سبعة من أتباعه. كان بحّاثَةً مُجِدّا في التَّأمل والسلام: لقد سعت امرأة من بين حريمه ١١٤ العمياوات إلى أن تُلبيَّ حاجات جسده الإلهي.

المرايا المَقيتة

يتسامح الإسلام في ظهور صحابة مقرَّبين إلى الله، طالما أن كلماتهم لا تُلغي العقيدة القويمة، ومهما كانت تلك الكلمات غير متكتِّمة أو تهديدية. ولربما لم يكن الرسول ليزدري أفضال ذلك

الازدراء، لكن أنصاره، وانتصاراته، والغضب العلني للخليفة -الذي كان محمدا المهدي- أمورٌ أجبرتْه على الهرطقة. ذاك النزاعُ دمّره، لكنه قبل ذلك جعله يُحدّد عقائِدَ دِينٍ شخصي، ولو بتَسلُّلٍ جليّ لعصور ما قبل تاريخ الغنوصية.

يوجَد في مستهل نشأة الكون *للحَكيم* إله طيْفِيّ. ويُعوز تلك الألوهيةَ جلالةُ الأصْل، وكذلك اسمٌ ووجه. إنه إله غير مُتبدِّل، لكن صورته ألقتْ تسعةَ ظلال، وهي تتلطَّف بالفعل، جهَّزتِ السَّماء الأولى وتصدَّرتْها. ومن ذلك التاج الأول خالقِ الكون صَدَر تاج ثان، كذلك بملائكة وقُدرات وعروش، وهذه شيّدتْ سماء أخرى أكثر سُفليّة، والتي كانت النسخة المتناظرة للأولى. ذلك المَجمَع الثاني شُوهِدتْ إعادةُ إنتاجِه في تاج ثالث، وذلك في آخر أسفل، وهكذا دواليك حتى التاج ٩٩٩. إنّ سيد السماء في الخلفية هو من يتحكم -ظِلّ لظِلال أخرى- وينحو جزء ألوهيته إلى صفر.

إن الأرض التي نسكنها هي خطأ، ومحاكاة ساخرة دون أهلية، فالمرايا والأبُوّة مَقيتَتان، لأنهما يُكوثرانها ويؤكدانها. القَرَف هو الفضيلة الأساسُ. ويمكن لنظامَيْن (قد ترك النبي اختيارهما حُرّا) أن يقودانا إليها: التعفُّف والخلاعة، أداءُ الجسد أو عِفّته.

لم تكن فردوس الحكيم وجحيمه أقل قنوطا. *بالنسبة إلى أولئك الذين يُنكِرون الكلمة، ومن يُنكرون الحجاب المُجوْهر والوجه* (تقول دعواتٌ بالشَّر إنه يُحافَظ عليه من *الوردة المخفية*)، *أَعِدُكم* بجحيم رائع، *لأن كل منهم سيَسُود أكْثَر من ٩٩٩ إمبراطوريةِ نارٍ، وفي كل إمبراطورية ٩٩٩ جبلِ نارٍ، وفي كل جبل ٩٩٩ بُرجِ نار، وفي كل برج ٩٩٩ طابق نار، وفي كل طابق ٩٩٩ سرير نار، وعلى كل سرير*

سيكون هو هناك و٩٩٩ شكل نار (*سيكون لها وجهه وصوته*) *ستُعذِّبه إلى الأبد*. ويؤكد في مكان آخر: *هنا في الحياة تعانون في جسد؛ في الموت والمكافأة، وفي ما لا يُعَدّ*. الفردوس أقل ملموسية. *الليل سرمديّ وهناك أحواضٌ حجرية صغيرة، وسعادة ذلك الفردوس هي السعادة الخاصة بالوداعات والتخلّيات وسعادة من يعرفون أنهم ينامون*.

الوجه

في السنة ١٦٣ للهجرة والخامسة للمحيّا الوهّاج، حوصِر حكيم في صنعاء من قِبل جيش الخليفة. لم تُعوز المؤنُ والشهداء، وكانت الإغاثة الوشيكة لعُصبة من ملائكة النور تُنتَظر. كانوا في تلك الحال لَمَّا عبَرت القصر إشاعة مفزعة. لقد حُكِي أن امرأة زانية من الحريم، لما خنَقها الخصيان، كانت قد صرخت أن البِنْصر تنقص في اليد اليُمنى للرسول وأنّ الأصابع الباقية تفتقر إلى الأظفار. سرت الإشاعة بين المؤمنين. وفي واضحة النهار، ومن شرفة عالية، التمس حكيم انتصارا أو علامة من ألوهية العائلة. وبرأسيْن مطَأْطأيْن وذليليْن تقدّم نحوه قبطانان -كما لو كانا يجريان موهِميْن بأنهما يتَّقِيان المطر- ونزعَا عنه الحِجابَ المطرّز بالأحجار الكريمة.

أولا، حدَث ارتجاج. ذلك أنَّ وجه الرسول الموعود، الوجه الذي كان في السماوات، كان في الواقع أبْيَض، ولكنَّ البياضَ الخاصّ كان بياضَ الجُذام المبقَّع. كان شديد الضخامة، أو يصْعُب تصديقُه حتى إنه بدا لهم شبيها بقناع تنكُّر. لم يكن بوجهه حاجبان؛ وكان الجفن الأسفل يتدلى على الوجنة الهَرِمَة؛ وكان عُنقود ثقيل من

الدَّرَنات يأكُل منه الشفتيْن؛ وكان الأنْف غير بشري ومُفطَّسا كأنه لأسد.

جرَّب صوتُ الحكيم خدعة ختامية. تمنعكم خطيئتكم *المقيتة* من إدراك *بَهَائِي* . . . شرع *يقول*. لم يُصْغوا إليه واخترقوه بالرِّماح.

رَجُل الزاوية الوردية

إلى إِنْرِيكِ أَمُورِيمْ

بالنسبة إلي، لاحقًا، هم تحدَّثوا معي عن المرحوم فْرَانْسِيسْكُو رِيَالْ. أنا عرفتُه، مع أن هذه الأحياءَ لم تكن أحياءَه، لأنه كان بالأحرى يَعرِف لعِبَ الأوراق جِهةَ الشَّمال، في تلك الأنحاء من بحيرة غْوَادَالُوبِّي ولَابَاتِرِيَّا. لأكْثَرَ من ثلاث مرَّات لم أتعاملْ معه، لكنّ تلك الليلة لن تُنسى بالنسبة إلي، أجل، بما أنّ لالُوخَانِرَا جاءتْ فيها للمبيت في مزرعتي، وهي الليلة التي تَخَلَّى فيها رُوسِنْدُو خْوَارِيسْ عن السكن في إِلْأَرُويُو، لكي لا يعود إليه بَعْدُ. بالنسبة إليكم، طبْعا، تنْقُصُكم الخبرة اللازمة للتّعرف إلى ذلك الاسم، لكن رُوسِنْدُو خْوَارِيسْ إِلْبِيغَادُورْ كان من أولئك الذين حَضَروا بقوة في فِيَّا سَانْتَا رِيتَا. كان فتى مشهورا بالسكين، وكان من رجال نِيكُولَاسْ بَارِدِسْ، الذي كان من رجال مُورِلْ. كان يَعْرف السبيل إلى الوصول إلى كويلومبو في أبهى أناقة، في الظُّلمة الدامسة، بملابس من فضة؛ كان الرجال والكلاب يحترمانه، والنساء الصينيات أيضًا؛ ولا أحد كان يجهل أنّه كان مدينًا بمَيْتَتَيْن. كان يعتمر قبعة عالية، بحافة رفيعة، فوق الشَّعر المسترسل والدُّهْني؛ كان الحَظُّ يُدَلِّلُه، مثلما

يُقال. ونحن فتيان لافِيًا كنا نُقلِّده حتى في صيغة الْبَصْق. ومع ذلك، فقد بيَّنتْ لنا ليْلةٌ الحالَ الحقيقية رُوسِينْدُو:

تبدو كأنها خرافة، لكنها قصةُ تِلك الليلة الغريبة للغاية، التي بدأت بمتعة وقحة على عجلات حمراء، مليئة عن آخرها بالرجال، التي كانت تمضي إلى المراكب عبر تلك الأزقة من الطِّين الصلب، بين أفران اللَّبنات والفراغات، والرجل عازف القيثارة المُذهِل، والحوذيّ الذي يَجلد بكرباج الكلابَ الطليقة التي تَعْبر المستنقع، ورجلٌ مُريب يمشي صامتا في الوسط، وكان ذلك مُربي طيور بحظيرة فيها كثير من النعناع، وكان الرجل ذاهبًا لكي يُعارك ويقتل. كانت الليلة نِعْمة ومنعشة للغاية؛ وكان اثنان منهم يركبون على غطاء المحرك المُنكفئ، كأنما العزلة كانت قرصانا. ذاك كان أول ما حدث من بين أحداث كثيرة وقعت، لكننا علِمنا بها مؤخَّرا. كُنّا نحن الفتيان منذ وقت مبكر في صالون خُولْيا، الذي كان نوعا من هُرْيٍ من صفائح الزنك، بين الطريق إلى غَوُونا ومالْدُونادو. كان مكانًا يمكنكم رؤيته من بعيد، بسبب الضوء الذي كان يبعثُه الفنار إلى الناحية دون حياء، وبالجَلبة أيضًا. كان هُرْيُ خُولْيا، ولو أنّه ذو لون متواضع، من أكثر الهِراء حيوية ونظاما، لذلك لم يكن يفتقر إلى موسيقيين وشاربي الكحول وشريكات مقاوِمات أثناء الرقص. لكنَّ لَالُوخَانِرَا، التي كانت زوجةَ روسِنْدو، تجاوزتْهن جميعا إلى حد بعيد. لقد تُوفِّيت، يا إلهي، وأقول إنه تأتي سنوات لا أفكر فيها، لكن كان لزاما رؤيَتُها في أيام عِزّها، بتلكما العيْنيْن. كانت رؤيتُها تُسبِّب سَهَر الليالي.

اَلْكَانْيَا [أغنية فلكلورية أندلسية]، والمِيلُونْغَا [أغنية فلكلورية أرجنتينية]، وإِمْبْراخي [جماعة من نساء]، كلمة سيئة تتنزَّل من فم

رُوسِنْدو، هي صفعة منه ضِمن جملةٍ مما حاوَلتُ أن أُحِس به كصداقة: كل ما في الأمر أنني كنت أكْثر الناس سعادة. كانت من نصيبي رفيقةُ رقص تُتابِعني بقوة، وتتصرَّف كأنها تتنبَّأ بِقَصْدي. التَّانْغو كان يفرض إرادتَه علينا، ويُرخي زِمامَنا، ويُفرِّقنا، ويُنظِّمُنا ويُعيد جمْعَنا ثانية. في ذلك الترفيه كان الرجال، مثلما في حلم تماما، لَمّا بغتةً تهيَّأتْ لي الموسيقى عالية، ذلك أن كانت تتشابك معها موسيقى عازفي القيثارات في العربة، الذين كانوا يقتربون في كلّ مرّةٍ أكثر فأكثر. وبعد ذلك، انصرف بها إلى وجهةٍ أخرى النسيمُ الذي جاءَ بها، وعاودتُ الاهتمام بجسدي وجسد رفيقتي وبحوارات الباليه. بعد وقت طويل، طُرِقت البابُ بحزم، وجاءت طرْقة وصوت. وبعدَها صمت عام، ودَفعة للباب جبّارةٌ، وإذا بالرجل في الداخل. كان الرجل شبيها بالصوت.

بالنسبة إليْنا، لم يكن هو فرانْسِيسْكو رِيَال، لكنه كان بالتأكيد رجُلا طويلا، ومتينا، يرتدي كُلُّه بذلة سوداء، ويلتفع رباط عنق كأنه كُميْت، يُرسله على الكتف. أتذكر أنّ وجهه كان ذا قَسَمات هندية وشرِسة.

ضربَني مِصراعُ الباب عندما انفتح. برعونة خالصة، انقضضتُ عليه، ووجهتُ له باليُسرى لكمة في الوجه، بينما كنتُ باليُمنى أُخرجُ السكين الحاد، الذي كنت أحْمِله في كُمِّ السُّترة، بجانب الإبط الأيسر. لم يستمرَّ طيشي سوى قليل، ذلك أن الرجل لِيُثبِّت نفسَه، مَدّ الذِّراعيْن وركنني إلى جانب، كأنه كان يتخلَّص من شيء مُزعِج. لقد تركني مُنحنيا وراءَه، ويده لا تزال تحت المِرْيلة، على السلاح غير المُستعمَل. وتابع كأن شيئًا لم يحدث، إلى الأمام. تابعَ، ودائما أعلى من أي كان من أولئك الذين كان يُنحِّيهم، ودائما كأنه لا

يراهم. الأوائل -إيطاليون خالصون استرقوا النظر- انفتحوا تَلقاء ذاتِهم مثل مِروحة، على عجل. في الكَمِّ اللاحق كان الرجل الإنجليزي في انتظاره، فعلا، وقبل أن يُحِس في كتفه بيد الغريب، أنامَه بخطة مُحكَمة كان جاهزة لديه. أنا ذهبْتُ لأرى تلك الخطة المُحْكمة، فرأيتُهم جميعًا يأتون إليه مُسرعين. كانت للبناية في عُمقِها كثرةٌ من عديد من القضبان الحديدية، التي أنزلوها مثل المسيح، تقريبًا من أقصاها إلى أقصاها، بالتدافع والتصفير واللعاب. أوّلا رمَوْه باللكمات، ولاحقا، عندما رأوا أنه لم يُرْتَج عليه بالضربات، مرُّوا إلى الصفعات الخالصة بيد مُشرَعة أو بأهداب رباط العنُق غير المؤذية، كما لو أنهم يضْحكون منه. كذلك، كما لو أنهم يحتفظون به لروسيندو، الذي لم يتزحزح عند ذلك الجدار في العمق، الذي كان يوليه ظهرَه في صمت. كان يُدخِّن سيجارته بسرعة، كما لو أنه أدرك فعلا ما رأيناه جليّا فيما بعد. لقد دُفِع مُربّي الطيور إلى أنْ وصل إليه، ثابتا ومُدَمًّى، مع تلك الرِّيح التي للرَّعاع الساخر وراءَه. صفير، وضربٌ بالسوط، وبصق، وفورا تحدث روسِنْدُو لمّا واجهَه. عندئذ نظر إليه، ونظّف الوجه بالساعد، وقال هذه الأشياء:

- أنا فْرانْسيسْكو رِيَالْ، رجل من الشمال. أنا فرانسيسكو ريَال، الذي يَدعونه مُربي الطيور. أنا من سمحت لهؤلاء الأشقياء أن يرفعوا لي يدي، لأن ما أبحث عنه هو رجل. ها هنا يتجول بعض الكذّابين وهم يقولون إنه يوجَد في هذه المنطقة النائية شخص لديه سكّين نعناع، وأنه سيئ، وأنهم يُسمّونَه *الوَخّاز*. أريد أن أعثرَ عليه لكي يُعلِّمني، فأنا لا شيء، مُقابل ما هو عليه من رجل شجاعة وبَصر.

قال تلك الأشياء ولم يرفع عنه عينيه. الآن تتلألأ في يده اليمنى سِكين، كان قد أحضرها مُثبّتةً في كُمِّه. حوْلَه شرع يَنفَتِح جَمْعُ من

كانوا يدفعون، وكلُّنا كُنّا ننظر إليهما في صمت عظيم. حتَّى إن خَطْم المولَّد الأعمى الذي كان يعزف على الكمان، اتَّبع تلك الوِجْهة.

أثناءَ ذلك، سمِعْتُ أنهما كانا ينتقلان إلى الخلف، ورأيت في إطار الباب ستة رجال أو سبعة، قد يكونون من جماعة مُربّي الطُّيور. تقدَّم أكبرُهم سِنّا، وهو رجل بَيِّن البداوة، مَدبوغ الجلد، ذو شارب شبه رماديّ، ليمْكُث مُنبهرا من كثرة النساء وكثرة الضوء، وكشف عن نفسه باحترام. وكان الآخرون يراقبون، وعلى أهبة للتدخُّل للحسم إذا لم تكن اللعبة عادلة.

ما الذي حدث لروسِنْدو أثناء ذلك، حتى إنه لم يُخْرِج بالدَّوس كتلةَ التِّبن تلك؟ لقد استمرَّ صامتًا، دون أن يرفع عينيْه. لستُ أدري إنْ كان قد بصقَ السيجارةَ أم سقطت من وجهه. في الأخير، أفلَحَ في أنْ يَعثر على كلمات، ولكن ببطء شديد حتى إن الموجودين في الطرف الآخر من الصالون لم يَصِلهم ما قاله. عاد فرانسيسكو ريَال إلى تَحدّيه وهو إلى رفضه. حينئذ، صفَّر أكْثرُ الغرباء فُتوّة. نظرتْ إليه لالُوخَانِرَا في مقت، وشقت لنفسها طريقا مثل جديلتي مَفْرق شعَرها المُسْدَلَيْن على ظهرها، بين الحُوذِيِّين والصينيّات، ومضتْ إلى زوجها ووضعت يدَها على صدره، وأخرجتْ له السّكينَ غير المغمّد وأعطتْه إيّاه مع هذه الكلمات:

- رُوسِنْدو، أعتقد أنك ستُضْطرُّ إليه.

في مستوى ارتفاع السقف كان هناك نوع من النافذة الطويلة، التي تُشرف على الجدول. بكلتا يديْه استلم رُوسِنْدُو السكينَ، وفحَصه كما لو أنه لم يتعرَّف إليه. انتصب فجأة نحو الْوَراء، وسرق السكين مُباشَرة، ومضى ليَضيع في الخارج، في المَالْدُونَادُو. أنا أحسستُ بشيء مثل البرد.

- لا أقتلك، لأنك مُقرِف- قال الآخر، ورفع اليد لكي يُعاقِبه.
حينئذ، أمسكتْ بِها لالوخانِرا، وارتمتْ بذراعيها على عُنقه، ونظرتْ إليه بتلك العينَيْن، وقالت له في غضب:

- اتركْهُ لذلك الشخص، الذي أوهَمَنا بأنه رجُلٌ.

مكث فرانسيسكو ريَال مرتبكا لهنيهة، ثم عانقَها كأنما للأبد، وصاح في الموسيقيين ليعزفوا التانغو والميلونْغَا، وفي الآخرين ليخوضوا في الترفيه، لكي نرقص. اشتعلتْ موسيقى الميلونغا كالنار في الهشيم من أقصى الصالون إلى أقصاه. كان ريَال يرقص في وقار شديد، ولكن دون أي ضوء إثارة، وكان في وُسعه ذلك. ولما وصلوا إلى الباب صرخ :

- هيّا افتحوا لنا المجال، يا سادة، أنا أحمِلُها في يدي نائمة!

قال ذلك، فخرجوا مندفِعين، كما هياج رقصة التانغو، كما لو أنهم كان سَيَفُوتهم حضور التانغو.

يلزم أن أكون قد احمرَّ وجهي خجلا. أنجزْتُ بعض اللّفات مع امرأة وأوقَفْتها بغتة. ادَّعيْتُ أن الحرارة هي السبب، وبسبب الزحام، مضيْتُ محاذيًا الجدار إلى أن خرجْتُ. الليل لطيف، بالنسبة إلى من؟ عند منعطف الزقاق كان هناك بائع مأكولات، وقيثارتان منتصبتان في المقعد، مثل المسيحيين. خالجتْني المرارة لإحساسي بأنهما تُهمَلان هكذا، كما لو أننا لا نصلح حتى لجمع القيثارات. وغمرتني الشجاعة لأحسّ بأننا لسنا أيّ شيء. هوتْ يَدٌ كبيرة على قرنفلتي التي خلف الأذن، فرميْتُها في بِركة، وبقيت هنيهةً أنظر إليها، كأنني لا أرغب في أن أفكر في أي شيء آخر. كنت أودّ لو أني انتقلْتُ مرة واحدة إلى اليوم التالي، كنتُ أود أن أَخرج من تلك الليلة. أثناء

ذلك، تلقَّيتُ ضربة في مرفقي، وكادتْ تكون تخفيفا عليّ. كان صاحب الضربة هو روسِنْدُو، الذي كان يخرج هاربا من الحي وحيدا.

- أنت دائمًا تكون عائقًا، أيها الأبله -دمدمَ لي عند مروره، لستُ أدري إن كان ذلك لكي يُفرِّجَ عن نفسه، أو لشيء غريب. قصَد الناحية الأكثر ظلاما، ناحية مَالْدُونَادُو؛ ولم أعد إلى رؤيته بَعْدُ.

بقيتُ أنظر تلك الأشياء مدى الحياة -سماءٌ حتى التخمة، الجدول الذي كان يُصرّ على الجريان وحيدًا هناك في الأسفل، حصان نائم، زقاق من تراب، الأفران -وفكَّرْت في أني كنتُ بالكاد حشيشة سيئة أخرى من حشائش تلك الضفَّتين، ترعرعت بين أزهار الضفدع والهياكل العظمية. أيُّ شيءٍ قد يَخرُج من تلك القمامة سوانا نحن الذين نصرخ، ولكنَّنا ليِّنون لا نصْلُح للعقاب، لسنا سوى الفم والتهور؟ أحسستُ بَعدُ عكس ذلك، فبقدر ما يكون الحي أكثر بؤسا، يكون المرءُ مُطالَبا أكثرَ بأن يكون وسيمًا. قمامة؟ الميلونغا دفعتْ به إلى الجنون، وإلى أنْ يُزعِج في البيوت، وكان ذلك يجلب روائِح زَهْرِ العسل. الليلةُ تُلاطِف العقدة. كانت السماء ملأى نجوما حتى إن النظر إليها يُصيب بالدوار، نجمة فوق أخرى. أجْهدتُ نفسي لأُحسّ بأن القضية لا تُمثِّلني في أي شيء، لكن جبن روسِنْدو وشجاعة الغريب التي لا تُحتَمل لم ترغبا في أنْ تغادراني. حتى إنّ الرجل الطويل في تلك الليلة كان بوسعه أن يَفوزَ بامرأة. لهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة، فكّرْتُ، وربما للأسباب جميعها، أنَّ تصرُّف لالوخانِرا كان خطيرًا. وحْدَه الله يعلم الناحية التي سارا فيها. لا يُمكن أن يكونا بعيدَيْن جدا. رُبّما كانا الاثنان يُشَغّلان كلاهما، في مجاري صرف الماء.

عندما تمكنت من الرجوع، كان المَرْقص الشعبي على حاله، وكأن لا شيء حدث.

تصنَّعتُ أني فتى صغير، أَلْفيتُني في الحشد، ورأيت أن بعضًا منا قد خارتْ عزيمتُه، وأن رجال الشَّمال كانوا يرقصون التّانْغو مع الآخرين. لم يكن من ضرب بالأكواع والاصطدامات، ولكنّ الأكيد أنّ الارتياب واللياقة كانا موجودَيْن. بدت الموسيقى مُنوِّمة، فالنساء اللواتي كنّ يرقصن التانغو مع رجال الشَّمال، لم يَقُلن هذا الفَمُ لي.

كنت أنتظرُ شيئًا، لكِنْ ليس ما حدث.

في الخارج، سمعنا امرأة تبكي، وبعد ذلك، سمعنا الصوت الذي كنا نَعرفه فعلا، لكنه رصين، في غاية الرصانة تقريبًا، وكأنه لم يكن صوتا لشخص، كان يقول:

- أُدخُلي، يا ابنتي -ثم بكاءٌ آخَر. كأنها بدأتْ تفقد اليأس.

- افتحي أقول لك، افتحي أيتها اليتيمة المومس، افتحي، يا عاهرة! -أثناء ذلك فُتح الباب المرتعِش، ودخلت لالوخانِرا، وحيدة. دخلت مأمورةً، كما لو كان هناك من يستحِثُّها.

- بَعثْتكِ روحٌ -قال الإنكليزي.

- ميِّت، يا صديقُ -قال مُربي الطيور حينئذ. كان الوجه شبيها بوجه سِكّير. دخل، وفي مضمار الرقص، الذي فتحنا له فيه الطريق جميعًا، كما في السابق، خطا خطواتٍ متدبدبة كأن به دوارا - طويلا، ودون أن ينظر- خرَّ على الأرض مرَّة واحدة، مثل عمود. أسندَه إلى ظهره شخصٌ من الذين جاءوا معه، بوضعه على ظهره، وعدَّل العباءَةَ لتكونَ وسادةً. تلك الإسعافات وسَّختْه بالدماء. حينئذ، رأينا أنه جاء مُصابا بجرح غائر في الصدر؛ وأن الدم كان يفيض ويصِم بالسواد لسانًا أحمرَ قانيا لم أكن قد لاحظتُه سابقا، لأن

الوشاح أخفاه. في العلاج الأول، جلبتِ إحدى النساء قصبة وبعض مِزَق الخرق المحروقة. لم يكن الرجل في وضع يسمح له بالتفسير. كانت لالوخانِرا تنظر إليه مثل شاردة، بالذراعيْن مُسدَلَتيْن. الجميعُ كانوا يتساءلون بعلامات مرسومة على وجوههم، وتمكَّنت هي من الكلام. قالت إنه بعد الخروج مع مُربّي الطيور، ذهبوا إلى حقل صغير، وأنه هناك انتبه إلى شخص غريب، فدعاه إلى العِراك وكأنه يائس، فعالجه بتلك الطعنة، وأقسمَتْ أنها لا تعرفُ من يكون، وأنه ليس رُوسِنْدو. من يُمكن أن يُصدّقها؟

الرجل كان يُحتضر عند أقدامنا. تصوَّرتُ أن نبْضَها لم يرتجفْ وأنا ضبَطتُه. ومع ذلك، فقد كان الرجل شديدا. عندما ضرب، كانت خوليا تهيئ نقيع الشعير، دار النقيعُ دورة كاملة وعادَ إلى يدي. قبل أن يموت، قال على مهل «غطُّوا لي وجهي»، لَمَّا عجز عن التحمُّل. بقي له الكبرياء وحده، ولن يرضى بأن تُستَطلَع قسماتُ وجهه أثناء الاحتضار. وضع له أحدُهم على الرأس قبعة سوداء، ذات قُنّة عالية جدًا. مات تحت القبعة، دون تَشَكٍّ. لما توقف الصدر المضطجع على الجنب عن الصعود والنزول، تشجَّعوا لاكتشافه. كانت لديه تلك المسحة المتْعَبة التي تكون عند الموتى؛ كان من أشجع الرجال الذين وُجِدوا في ذلك الوقت، بدءً من لاباطِريًّا حتى الجنوب؛ ولما عَلِمتُ أنه مات وأنه لا يتكلم، تخلَّيْت عن كرهه.

- لأجل الموت لا يتوجّب من المرء سوى أنْ يكون قيد الحياة- قالت امرأة من الحشد، وقالت أخرى متأمِّلة أيضا:

في الرجل عجرفة كثيرة، وهو لا يصلح لشيء أكثر سوى جمع الذباب.

حينئذ شرع الشَّماليون في قول شيء ما على مهل، وكرَّره اثنان بقوة في الوقت ذاته لاحقا:

- قتلته المرأة.

صرخ أحدُهم في وجهها إنْ كانت هي القاتلة، فحاصروها جميعا. فعلا نسيت أنه كان يلزمني تمالُك نفسي، واخترقتُهم مثل الضوء. من طيشي، كدْتُ أكون في سرعة السكين. أحسسْتُ أن كثيرين مهم ينظرون إلي، حتى لا أقول جميعَهم. قلتُ كما لو بخبث ساخر:

- ركِّزوا نظرَكم على يدي تلك المرأة. أيّ نبض أو قلب سيكونان لديها حتى توغِرَ طعنة؟

وأضَفْت، في شبه فتور لِوَسيم:

- من كان سيحلم بأن المتوَفّى، الذي وَفق ما يُقال، كان سيئا في حيّه، وأنه ينتهي بطريقة شديدة الوحشية، وفي موضع ميت للغاية مثل هذا المكان، هيّا لا شيء يحدث، عندما لا يحضُر أحدُهم من الخارج لِيُلْهِينا ويبقى لكي يبصق لاحقا؟

لم تَطلبِ المومساتُ أن يُجْلَد أيُّ أحد.

في ذلك الوقت، شرعت جَلبة فرسان تنمو في العزلة. كانت جلبة للشرطة. هناك من لديه زيادة، ومن لديه القليل، وقد يكون لدى الجميع أسبابهم لكي لا يبحثوا عن ذلك الاتفاق، لأنهم قرَّروا أن الأفضل هو إنفاذ الميت إلى الجدول. سوف تتذكرون، يا سادة، تلك النافذة المُطوَّلة التي مرّ عبرها الخنجرُ في لمحة برق. من هناك مَرَّ الرَّجل ذو اللباس الأسود لاحقا. لقد حُمِل بين كثيرين، وبين حديث عن مقدار ما لديه من السنتيمات وكم من الحماقات التي كان يرتكبُها، خفَّفتْه تلك الأيدي وشذَّب له أحدُهم إصبعا ليُعيدَ إبراز

خاتَمه. إنهم مستغِلُّون، يا سيدي، وهكذا يُنعِشون متوفّى مسكينا وأعزلَ، بعد أن يكون قد أصْلَحَ حالَه رجُلٌ آخر أكثر رجولة. كانت دفْعةٌ وإذا بالماء الجارف والعَكِر يَمضي به. ولكي لا يطفو، لستُ أدري إن كانوا قد انتزعوا أحشاءَه، لأنني فضَّلت عدم النظر. ذو الشارب الرمادي لم تغفل عيناه عني. واستغلَّت لالوخانِرا المأزق لكي تنصرف.

ولما ألقى رجال القانون نظرتَهم، كان الباليه نصف حامٍ. وعرفَ عازفُ الكمان العجُوزُ الأعمى عزْفَ بعض أغاني مدينة لاهَاڤانا، التي ما عادتْ تسمع اليوم. في الخارج، كان الجو يُبدي رغبة في أن يَصحُو. بعض أعمدة ميموزا أمريكا كانت على تل تبدو كأنها طليقة، لأن الأسلاك الدقيقة لم تكن لتَتْرُكَ ذاتَها تُرى في وقت مبكر جدا.

في هدوء، ذهبتُ إلى مزرعتي التي كانتْ تبعد حوالي ثلاث كتل سكنية. كان ضوء صغير يضطرم في النافذة، ثم انطفأ مُباشرة. أقسم أنني عانيتُ لكي أصل، لمّا انتبهتُ. عندئذ، يا بورخيس، عُدتُ إلى إخراج السكين القصير والحاد، الذي عرفت كيف أثَبِّتُه هنا، في السُّترة، بجانب الإبط الأيسر، وضربته بآخر، وألقيْتُ عليه نظرةَ مراجَعة أخرى على مهل، فكان أن صار كأنه جديد، وبريء، ولم يبق فيه ولو أثرٌ دقيق للدم.



إلى آخره

إلى نِسْطُورْ إِيبَارًّا

لاهوتيّ متخصِّص في الموت

أَبْلغتني الملائكة أن مِلانْشْتُون لما تُوُفي، أُعْطي في عالم الغيب بيتا مساويا بشكل خادع للذي كان يمتلكه في الأرض. (يكاد يَحْدث الشيء نفسُه تقريبًا لحديثي العهد بالحلول في الأبدية، ولذلك السبب يعتقدون أنهم لم يموتوا). الأدوات المنزلية كانت مماثلة: الطاولة، والمَكْتب بأدراجه، والمكتبة. لما استيقظ مِلانْشْتُون في ذلك البيت، استأنف مهماته الأدبية كما لو أنه لم يكن جثة، وكتب طيلة أيام عن التبرير بالإيمان. ومثلما هي عادته، فهو لم يقل ولو كلمة واحدة عن الإحسان. انتبهت الملائكة إلى ذلك الإغفال، فبعثتْ أشخاصا لاستجوابه. قال لهم مِلانْشْتُون: «لقد بيّنتُ بشكل غير قابل للدحض أن الروح بوُسعها الاستغناء عن الإحسان، وأن الإيمان وحدَه يكفي لدخول الجنة». قال لهم تلك الأشياء بعجرفة، ولم يكن يَعلم أنه كان قد مات، وأن مكانَه لم يكن الجَنّة. عندما سمعت الملائكة ذلك الخطاب انصرفت عنه.

بعد أسابيع قليلة، بدأ الأثاثُ يتشبَّح حتى صار غير مرئيّ، باستثناء الكرسيّ، والطاولة، وصفحات الأوراق، والمِحبَرة.

بالإضافة إلى ذلك، تلطَّخت جدران الحجرة جِيرًا، والأرضية الخشبية بَرْنيقا أصفر، وأضحت ملابسه الآن أكثر ابتذالا. وعلى الرغم من ذلك، واصَل الكتابة، ولكن بما أنه ألح على إنكاره الإحسانَ، فقد نُقِل إلى مَشغَل ديماسيّ، حيث كان هناك لاهوتيون آخرون مثله. هنالك سُجن أيّاما، وشرع يرتاب في أطروحته، فسُمح له بالعودة. كانت ملابسُه من جلد غير مدبوغ، لكنه سعى إلى أن يتخيّل الوقائعَ السابقة مجرّدَ أوهام، وواصل إعلاءَه للإيمان وذَمّه الإحسان. ذات مساء شَعُرَ بالبرد. عندئذ جابَ البيتَ وتحقَّق من أن باقي الحجرات لا تُماثل حجرات منزله في الأرض. بعض تلك الحجرات كانت ممتلئة بأدوات مجهولة؛ وأخرى كانت قد تضاءلت كثيرا إلى درجة استحالة دخولِها؛ وأخرى لم تكن تغيَّرت، لكن نوافذها وأبوابها كانت تطل على كثبان كبيرة. الغرفة الخلفية كانت غاصة بأشخاص كانوا يُحبُّونه، وكانوا يُكرِّرون عليه قولَهم إنه لا لاهوتيّ مثلَه أكثرُ حِكمة. لقد سَرَّه ذلك الحبّ، لكن نظرًا إلى أن بعض أولئك الأشخاص لم يكن لديهم وجه، وأنّ آخرين بَدَوا أمواتا، فقد انتهى به الأمر إلى كرههم والارتياب. عندئذ، اعتزم أن يكتب مديحا للإحسان، لكنّ الصفحات المكتوبة اليومَ تظهر مَمحُوَّةً غدًا. ذاك ما حدَث له، لأنه ألَّفها دون اقتناع.

كان يستقبل زيارات كثيرة من أناس حديثي العهد بالموت، لكنه كان يشعر بالخجل من أنْ يُظهر نفسَه في مَسكَن شديد الوساخة. لكي يجعلهم يعتقدون أنه كان في الجنة، اتفق مع ساحر في الغرفة الخلفية، وكان هذا الأخير يخدعُهم بمُصطَنعات غاية في البهاء والصفاء. وبمجرَّد انصراف الزوار، كانت علامات الفقر والجير تعود إلى الظهور، وأحيانًا قبل ذلك بقليل.

تقول آخر أخبار مِلانشتون إن الساحر وأحد الرِّجال من مجهولي الوجه اقتاداه صوبَ الكثبان، وأنه الآن شبيه بخادم الشياطين.

(من كتاب *الكَسل الغامض* Arcana coelestia،
بقلم إيمانويل سْوِدِنْبُورْج.)

غرفة التماثيل

في الأيام الأولى وُجِدت في مملكة الأندلسيين مدينة أقام فيها ملُوكُهم، وعُرِفت باسم لِبْتِيت أو سَبتة أو جَيَّان. كانت هناك في تلك المدينة قلعة حصينة، بابها ذو الدِّفّتيْن لم يكن للدخول أو حتى للخروج، وإنما ليَظلّ مُغْلَقا. في كل مرة كان يموت فيها ملك ويرثُ ملك آخر عرشَه العالي، كان هذا الأخير يُضيف بيديْه قُفلًا جديدًا للباب، إلى أن غدت الأقفال أربعة وعشرين، قفلٌ لكل ملك. ثم حدث أن رجُلا شريرا، لم يكن من الأُسْرة الملكية، استولى على السلطة، وعوضًا عن إضافة قفل، رغِبَ في فتح الأقفال الأربعة والعشرين السابقة، لكي يرى محتويات تلك القلعة. توسل إليه الوزير والأمراء ألا يأتي فعلا كذلك، وأخْفَوا عنه حلقة المفتاح الحديدي، وقالوا له إن إضافة قفل أيسر من فتح الأربعة والعشرين عُنوة، لكنه ظلّ يُردِّد بمكر رائع: «أريد أن أتحقّق من محتويات هذه القلعة». حينئذ، قدَّموا إليه ما تيسَّر لهم جَمْعه من الثروات التي تمكّنوا من مُراكَمتها، مِنْ قطعان ماشية، وأصنام مسيحية، ومن فضة وذهب، لكنه أبى أن يتخلى عن هدفه، وفتح الباب بيده اليمنى (التي ستضطرم نارا إلى الأبد). في الداخل، كان العرب مُصوَّرين في المعدن والخشب، وهم يمتطون جِمالهم السريعة ومهورَهم، ويعتمرون

عمامات تتموَّج على الظهر والسيوف الهندية المعلقة في حِمالاتها والرمح في اليد اليمنى. كل تلك الأشكال كانت ضخمة، وتعكس ظِلالا في المنزل، وكان يُمكِن لأعمى أن يتعرف إليها بوَساطة اللمس فقط، وكانت القوائم الأمامية للخيول لا تلمس الأرض، ولا تسقط، كما لو أنها كانت قد ارتفعت عموديا. أحدثت تلك الأشكالُ المُتقَنة فزعا كبيرا في الملك، وأكثرُ من ذلك الترتيبُ والصمتُ الممتاز الذي كان يُلاحَظُ فيها، لأنها جميعًا كانت تنظر إلى الناحية نفسها، وهي الغرب، ولم يكن أي صوت يُسمَع أو نفير. ذاك كان في الغرفة الأولى بالقلعة. وفي الثانية كانت مائدة سليمان، ابن داود -ليَكُن الخَلاص لكليهما! - منحوتة في حجر واحد من زمرد، لونه أخضر، كما هو معروف، والذي خاصياته السرّية لا وصْف لها وأصيلة. لأنه يسكِّن العواصف، ويصون عفّة حامله، ويطْرد الزُّحَار والأرواح الشريرة، ويَبتُّ في نزاع ما بإيجابيّة، ويُساعِد كثيرًا أثناء الولادة.

وفي الغرفة الثالثة عثروا على كتابيْن: أحدهما كان أسْوَد ويُعَلّم فضائل معادن التعاويذ والأيَّام، وكذلك تحضير السُّموم والتِّرياق. وكان ثانيهما أبْيَضَ، ولم يُتَمكّن من فك شيفرة تعاليمه، ولو أن الكتابة كانت واضحة. وفي الغرفة الرَّابعة عثروا على خارطة للعالَم، حيث كانت الممالك، والمدن، والبحار، والقلاع، والأخطار، كل واحدة باسمها الحقيقي وبشكلها الدقيق.

وفي الغرفة الخامسة عثروا على مرآة ذات شكل دائري، مِن عَمل سليمان، ابن داود ليَكُن الخلاص لكليهما! - التي كان ثمنها كثيرا، لأنها كانت قد صُنِعت من معادن متنوعة، ولأن مَن كان يَنظُر في الشكل الدائري القمريِّ كان يرى وجوهَ والِديْه وأولادَه، من آدم الأوَّل إلى الذين سيسْمعون البوق. الغرفة السادسة كانت مليئة

بالإكْسير، الذي كان تكفي منه قطعة صغيرة لتحويل ثلاثة آلاف أوقية من الفضة إلى ثلاثة آلاف أوقية من الذهب. وبدتْ لهم الغرفة السابعة فارغة، وكانت شديدة الطول لدرجة أن أمْهَر الرّماة يكون بوُسعه إطلاق سهم من الباب دون أن يُمكِنه تثبيتُه في العُمق. وفي الجدار النهائي رأوا تقييدا فظيعا مَنحوتا. تفحَّصه الملك وفهِمَه، كان يقول عن هذا الحظّ: «إذا ما فَتَحتْ يدٌ باب هذه القلعة، فإن محارِبي الجسد الذين يُشْبِهون محاربي المعدن الموجودين عند المدخل سيستولون على المملكة».

حدثت هذه الأشياء عام ٨٩ للهجرة. وقبل أن يَبلُغ العامُ نهايتَه، استولى طارق على تلك القلعة، وهزم ذلك الملك، وباع نساءَه وأولادَه، وخرَّب أراضيه. وهكذا شرع العرب في التمدُّد عبر مملكة الأندلس، بأشجار تينِها ومروجها المَسقيَّة حيث لا عطشَ يُعانى. أما فيما يخص الكنوز، فالشهيرُ أن طارق بن زياد بعثَها إلى الخليفة سيِّدِه، الذي احتفظ بها في هرم.

(من كتاب *ألف ليلة وليلة*، الليلة ٢٧٢).

قصة الاثنيْن اللذين حَلُما

يسرد المؤرخ العربي الإسحاقي هذا الحدث:

«يحكي الرجال من أهْل الإيمان (وحدَه الله العلِيم القدير الرحيم الذي لا ينام)، أنه كان في القاهرة رجل يمتلك ثروات، ولكنه كان كثير الشهامة والتحرر لدرجة أنه بدَّد تلك الثروات جميعها سوى بيت أبيه، وأنه ألفى نفسَه مُجبَرا على العمل لكسب لقمة العيش. لقد

اشتغل كثيرا لدرجة أن النوم غلبَه ذات ليلة تحت شجرة تين في حديقته، وأنه رأى في الحلم رجلًا مُبلَّلا قد أخْرجَ من فمه عملةً ذهبية، وقال له: «ثروتك في بلاد فارس، في أصفهان؛ اذهب بَحْثا عنها». استيقظ، في صباح اليوم اللاحق، وشرع في الرحلة الطويلة، واجه أخطارَ الصحاري، والسفنَ، والقراصنة، وعبَدةَ الأوثان، والأنهارَ، والوحوش، والرجال. ووصل إلى أصفهان أخيرا، لكن الليل فاجأه وهو في محيط تلك المدينة، فتمدَّد لينام في فناء مسجد. وكان هناك يجانب المسجد بيْتٌ، وبأمر من الله القدير، عبرتْ عصابةٌ من اللصوص المسجدَ ودخلتْ إلى البيت، فاستيقظ الأشخاص الذي كانوا ينامون على ضوضاء اللصوص، وطلبوا النجدة. كذلك صرخ الجيران، إلى أن حضر رئيس حَرَس ذلك الحي مع رجاله، ففرَّ اللصوص عبر السطح. أمر رئيس الحرس بتفتيش المسجد، فعثروا فيه على الرجل القاهِرِيّ، وأشبعوه سياطا مبرِّحة بقضبان الخيزران حتى إنه أشرف على الموت. وبعد يومين استعاد وعيَه في السِّجن. فأمر رئيس الحرس بإحضاره إليه، وقال له: «من أنت وما بَلدُك؟» فصرَّح الآخَر: «أنا من المدينة الشهيرة *القاهرة*، واسمي محمد المغربي». فسأله الرئيس: ما أتى بك إلى بلاد فارس؟ اختار الآخَر الحقيقةَ، فقال له: «أمرني رجُلٌ أثناءَ الحلُم أن آتي إلى أصفهان، لأن ثروتي موجودةٌ هناك. ها أنا فعلا في أصفهان، وأرى أن تلك الثروة التي وَعدني بها يَلزَم أن تكون السياط التي أشبعْتَني إيّاها بسخاء».

أمام نظير هذه الكلمات، انفجر الرئيس ضحِكا حتى كشف عن أضراس العقل، وانتهى بأن قال له: «أيها الرَّجل الأحمق والساذج، لقد حلُمت ثلاث مرات ببيت في مدينة القاهرة، توجَد في عمقه

حديقة وفي الحديقة مِزْوَلة، وبعد المِزولة شجرة تين، وبعد شجرة التين نافورة، وتحت النافورة كنز. لم أُولِ أقلَّ تصديقٍ لتلك الكذبة. أنتَ، مع ذلك، يا مِسخا من سِفاد بغل مع شيطان، جئتَ متشرِّدا من مدينة إلى أخرى، تحت وقع الإيمان بحلمك فقط. لا أريد أن أعود إلى رؤيتك في أصفهان. خذ هذه القطع النقدية وامْضِ».

أخذ الرجل تلك النقود وعاد إلى الوطن. وتحت نافورة حديقته (التي كانت في حلم رئيس الحرس) استخرج الكنز. هكذا وهبه الله البركة وكافأه وعظَّمه. الله هو الكريم، هو الخفيّ.»

(من كتاب *ألف ليلة وليلة*، الليلة ٣٥١).

الساحر المُرجَأ

في سانتياغو كان هناك عميد لديه تعطُّش إلى تعلم فن السحر. لقد سمع أن السيد إيَّانْ دِي طُولِدُو يَعرِف السِّحر أكثر من أيٍّ كان، فقصدَ طُليطلةَ بحثا عنه.

اتّجه، يومَ وصوله، إلى منزل السيد إيّانْ، فوجده يقرأ في غرفة منعزلة. استقبله هذا الأخير بطيبة، وطلب أنْ يُرجِئ الحديث عن سبب زيارته إلى ما بعد الغَداء. ودلَّه على محلّ إقامة منعش جدا، وقال له إن مجيئَه يَسرُّه كثيرا. بعد تناول الغداء، حكى العميدُ له سبَبَ تلك الزيارة وتوسَّل إليه لكي يُعلِّمه العِلم السِّحريّ. قال له السيد إيَّانْ إنه تنبَّأ أنه كان عميدًا، ورجلًا ذا مكانة طيبة ومستقبل حسن، وأنه يخشى أن يُنسى من قِبَله لاحقًا. وعده العميدُ وأكد له أنه لن ينسى أبدا ذلك الإحسان، وأنه سيكون سيأتمر بأوامره دوما. وبتسوية القضية فعلا، فسَّر له السيد إيّانْ أنَّ الفنون السحرية لا يُمكن

أن تُتَعلّم إلا في مكان منعزل، ومُمسِكًا بيده، اقتادَه إلى غرفة مجاورة، كانت توجد على أرضيتها حلقة حديدية ضخمة. قبل ذلك، قال للخادمة أن تهيئ الحجل وجبة للعشاء، ولكن عليها ألا تَشوِيَها حتى يأمُرَها. رفع الاثنان الحلقة بيْنَهما ونزلا عبر سُلّم حجريّ منحوت جيدًا، حتى تهيّأ للعميد أنهما قد نزَلا كثيرا، لدرجة أنَّ مجرى نهر التَّاجُو كان فوقهما. عند أسفل السُّلم كانت توجد زنزانة، ثم مكتبة، ثم نوع من المكتَب فيه أدوات سحرية. راجَعا الكُتُب، وبينما هما في ذلك، دخل رجُلان برسالة مُوَجَّهة إلى العميد، كتبها الأسقُف، عمُّه، يُعلِمه فيها أنه مريض جدا، وأنّه إذا أراد أن يَجِده حيًّا فيلزَمه ألا يتأخّر في القدوم إليه. أحسّ العميد بأن الخبريْن قد عاكَساه، أحدهما سببُه مرضُ عمه، والآخر اضطراره إلى قطع دراسته. اختار العميد أن يكتب اعتذارا للأسقف، وأرسله إليه. بعد ثلاثة أيام، وصل رجال في لباسِ الحِداد حاملين رسائل أخرى للعميد، يُقرَأ فيها أن الأسقف قد توفي، وأنّ الناسَ بصدد اختيار خليفة له، وأنَّه يُنتَظر بفضل الله أن يُختَارَ العميدُ. كذلك قالوا له ألا يُزعجَ نفسه بالقدوم إلى بلدته، لأنه يبدو من الأفضل كثيرا أنْ يُختارَ في غيابه.

بعد عشرة أيام، قَدِم وَصِيفان في ملابس أنيقة، وركعا عند قدميه، وحَيّياه بصفته أُسْقفا. لما رأى السيد إيّانْ هذه الأشياء، قصد في فرح شديد إلى رئيس الدير الجديد، وأخبره أنه يشكر الرب على وصول هذه الأخبار الجيدة إلى منزله. ثم طلب منه منصب العِمادة الشاغر لأحد أبنائه. أفهمَه الأُسقُف أنه كان قد حجز العِمادة لأخيه، لكنه كان قد قرَّر مُساعدَتَه بأنْ يذهبا معًا إلى سانتياغو.

ذهب الثلاثة إلى سانتياغو، حيث استُقبِلوا بتكريمات. وبعد ستة

أشهر، استقْبَل الأسقف سُعاةً من البابا، الذي عرض عليه منصب رئيس أساقفة تُولُوسَا، وترك له قرارَ تعيين خليفته بيديْه. عندما علم السيد إيَّانْ بهذا، ذكّره بالوعد القديم وطلب منه ذلك اللَّقب لابنه. أَفهَمَه رئيس الأساقفة أنه كان قد حجز الأسقفية لعمه، أَخِ أبيه، ولكنه قرر أن يُساعده، وأنهما سيسافران معًا إلى تولوسا. لم يكن مِن خيار أمام السيد إيَّانْ سوى القَبول.

ذهب الثلاثة إلى تُولُوسَا، حيث استُقبِلوا بتكريمات وقُدّاسات. بعد ذلك بعامين، استقبل رئيسُ الأساقفة سُعاةً من البابا الذي قدَّم له قلنسوة كارْدِينال، تاركًا له قرارَ تعيين خليفة له بيديْه. عندما علم السيد إيّانْ بهذا، ذكّره بالوعد القديم، وطلب ذلك اللقب لابنه. فأعلمه الكاردينال أنه قد حجز منصب رئيس الأساقفة لخاله، شقيق والدته، ولكنه كان قد قرَّر أن يساعده، وأنهما سيَمضيان معًا إلى روما. لم يكن من خيار أمام السيد إيَّانْ سوى القَبول. ذهب الثلاثة إلى روما، حيث استُقبِوا بتكريمات وقُدّاسات وزِياحات. في السنة الرابعة توفي البابا، وانتُخب كارْدينَالُنا بابا من قِبل جميع الآخَرين. لَمّا علم السيِّد إيَّان بهذا، قبَّلَ قدميْ قداسَتِه، وذكَّره بالوعد القديم وطَلب منه منصب الكاردينال لابنه. هددَّه البابا بالسجن، قائلا له إنه يعرف جيدا أنه لم يكن شيئا أكثر من ساحر، وأنه كان في طُليطلة أستاذا للفنون السِّحرية. السيد إيَّانْ البائس قال إنَّه كان سيعود إلى إسبانيا، وطلب منه شيئا يَأكُله خلالَ الطريق. البابا لم يستجِب له.

عندئذ قال السيد إيَّان (الذي تجدد شبابُ وجْهِه بصيغة غريبة)، بصوت لا ارتجاف فيه:

- حسنًا، عليَّ أنْ آكُلَ الحَجَل التي طلبتُها لِمِثل هذه الليلة.

تقدَّمت الخادمة، وقال لها السيد إيَّان أن تشويَ الحجل. بهذه

الكلمات، على وقع هذه الكلمات ألْفى البابا نفسه في زنزانة ديماسية في طُلَيْطلة، وحدَه عميد سانتياغو الخجل جدا من جحوده حتى إنه لم يُوفَّق في العثور على اعتذار. قال السيد إيَّان إن تلك التجربة تكفي، وحرَمَه من نصيبه من الحجل، ورافقه حتى الشارع، حيث تمنى له سفرا سعيدا، وودَّعَه بلطف كبير.

(من كتاب *بَاتْرونيُّو* للأمير السيد خْوَانْ مَانويل، الذي اشتَقَّه من كتاب عربي: الأصباح الأربعون والليالي الأربعون)

مرآة الحبر

يعرف التاريخ أن يعقوب العليل كان أفظع حكام السودان، فقد سلَّم بلدَه إلى جوْر جُباة الضَّرائب المصريين، وتُوفّي في غرفة بالقصر، في اليوم الرابع عشر من قمر برمجات، سنة ١٨٤٢. ويُلمِّح بعضُهم إلى أن الساحر عبد الرحمن المصمودي (الذي يمكن ترجمة اسمه عبد الرحيم) قضى عليه بالخنجر أو بالسم، ولكن الموت الطبيعي أكثر احتمالا -لأنه أُطلِق عليه العليل. ومع ذلك، فإن القبطان ريتشارد فرانسيس بورتُون قد تحدَّث عن السَّاحر في عام ١٨٥٣، وقال إنه قص عليه ما نسخ عنه:

«صحيح أنني كابدْتُ الأَسْر في قصر يعقوب العليل، عقِب المؤامرة التي دبَّرها أخي إبراهيم، بنجدة ماكرة وعبثية من الزّعماء السود لِكُرْدُفَان، الذين وَشَوا به. هلك أخي بالسيف، على جلد دم العدالة، لكنني ارتمَيْتُ عند قدَمي العليل الكريهتَيْن، وقلتُ له بأني كنتُ ساحرا، وأنّه إذا منحني الحياة، فسأُطلِعه على أشكال ومظاهرَ أروع من تلك التي أتى بها *فانوس الخيال* (المصباح السحري).

طالبَني الظّالمُ بدليل فوري. طلبتُ ريشة من قصب، ومِقصًّا، وورقة كبيرة من الورق البندقي، وقرْن حبر، ومِجمرَة، وبعض بذور الكُزْبرة، وأوقية من الجاوي. قطعت الورقة إلى ست قِطَع مستطيلة، وكتبت تعاويذ وابتهالات في الخمس الأوليات منها، وفي الباقي منها الكلماتِ التالية الموجودة في القرآن المجيد: «إنا كشفنا عنك، فرؤيَةُ عينيْك ثاقِبة»[1]. ثم رسمت إطارا سحريّا في يد يعقوب اليمنى، وطلبت منه تجويفَها، وأفرغْتُ دائرة حبر في وسطِها. سألته إنْ كان يدرك بصفاء انعكاس صورته في الدائرة فأجابَ بنعم. ثم قلتُ له ألا يرفع عينيه. أشعلت الجاوي والكزبرة وأحرقت الابتهالات في الموقد. طلبت منه أن يسمي الشكل الذي يريد أن ينظر إليه. فكر وقال لي إنه فكر في حصان بري، أجمل ما يرعى في المروج التي تتاخم الصحراء. نظر فرأى الحقل الأخضر والساكن ثم رأى حصانا يدنو، رشيقا مثل نمر أرقط، له نجمة بيضاء في الجبين. ثم طلب مني قطيعا صغيرا من الأحصنة غاية في الكمال مثل الأوّل، فرأى في الأفق سحابة طويلة من الغبار في الأفق، وبعْدَها ظهر القطيع. عندَها فهمتُ أن حياتي كانت في مأمن.

وبمجرّد أن بزغ ضوءُ النهار، دخل جنديان إلى سجني، واقتاداني إلى غرفة *العليل*، حيث كان البخور والمِجْمر والحبر في انتظاري فعلا. لذلك كان يُلح في طلبي، وكنت أطلعه على كل مَظاهر العالَم. ذلك الرَّجل الميت الذي أمقته كان في يديْه كل ما رآه الرجال الأموات وكل ما يراه الأحياء منهم: المدن، والمناخات، والممالك التي تتقسَّم الأرضَ، والكنوز المُخَبَّأة في المركز، والسفن

(١) ليست من القرآن ولم أهتد إليها. [المترجم].

التي تخترق البحر، وآلات الحرب والموسيقى والجِراحة، والنساء المليحات، والنجوم الثابتة والكواكب، والألوان التي يستعملُها الكُفّار لتلوين صورهم البغيضة، والمعادن والنباتات بما تحويه من الأسرار والفضائل، والملائكة الفضية التي طعامها الثناء على الرب وتسويغُه، وتوزيع الجوائز في المدارس، وتماثيل الطيور والملوك الموجودة في قلب الأهرامات، والظل الذي يلقيه الثور الذي يَدعم بقَرْنه الأرض، والحوتُ الذي يوجد تحت الثور، وفلوات الإله الرحيم. شاهد أشياءَ يستحيل وصفها؛ كالشوارع المضاءة بالغاز، وكالحوت الذي يموت عند سماعِه صرخةَ الإنسان. ذات مرّة، أمرني بأن أُبدِي له المدينة التي تُسمّى أوروبا. أظهرْتُ له شوارعَها الرئيسة، وأعتقد أنه في ذلك النهر السَّيّال رجالا، والذين يتزيَّنون بملابس سوداء ويضع كثير منهم نظارات، رأى لأول مرة الرَّجُلَ المُقَنَّع.

ذلك الوجه، يرتدي البذلة السودانية أحيانا، وأحيانا يكون بالزِّي الرّسمي، ولكنه يضع قطعة قماش كتّاني على وجهه دائمًا، لقد توغّل مُنذ ذاك في الرؤى. كان معصوما من الخطأ، ولم نَحدس من يكون. وعلى الرغم من ذلك، فإن مظاهر مرآة الحبر، المؤقتة أو الثابتة في البداية، كانت أَعْقدَ الآن؛ كانت أوامري تُنفَّذُ دون تأخُّر، وكان الطاغية يتتبَّعُ أمْرَها بوضوح. أكيدٌ أن كليْنا تعوَّدنا على أن نُنْهك، لأن الطبيعة الشنيعة للمَشاهد كانت مصدرا آخر للتَّعب، وأنها لم تكن سوى عقاب، وحبال، وبتر أعضاء، والتذاذٍ للجَلّاد وللقاسي.

هكذا رَسَوْنا فجْرَ يوم الرابع عشر من قمر *برمجات*. كانت دائرة الحبر مُؤَطَّرة في اليد، والجاوي مُلقًى في المِجمَر، والابتهالات مُحتَرِقة. كنا وحدَنا نحن الاثنين. قال لي *العليلُ* أن أُظهِرَ له عقابا غير قابل للاستئناف وعادلا، لأن قلبه، ذلكَ اليومَ، رغِبَ في أن يرى

الموت. أظْهرْتُ له الجنود بالطبول، وجِلدَ العِجل المَشدود، والأشخاصَ السعداء بالنَّظر، والجلّاد مع سيف العدالة. ذُهِل لَمّا رأى ذلك، وقال لي: *أبو قير هو الذي أعدمَ أخاك إبراهيم، وهو من سيختم مصيرك عندما سأُزوَّد بِعلم استحضار هذه الأشكال دون عونٍ منك*. أمَرَني أن أطلب إحضار الرّجل المدان. لَمّا أُحضْرَ امتقع وجهُه، لأنه كان الرجل الذي لا تفسيرَ له المرسوم على القُماش الأبيض. أمرني بأن أنزع عنه الْقناع قبل قتْلِه. أنا ارتميتُ عند قدميْه وقلت: *يا ملك الزمان وجوهر القرن وحصيلتَه، هذا الشكل ليس كباقي الأشكال، لأننا لا نعرف اسمَه أو اسْم والدَيْه ولا اسم المدينة التي هي موطنه، لحسن الحظ أني لم أجرؤ على لمسه، لكي لا أقترف ذنبًا يستوجب أن أحاسبَ عليه*. ضحك *العليل*، وانتهى به الأمر أن أقسم أنه سيتحمل الذَّنْب، إنْ كان هناك من ذنب. أقسم بذلك على السيف والقرآن. عند ذاك أمرْتُ بأنْ يُجرَّد الرجل المُدان من ملابسه، وأن يُوضَع على جلد العجل المَشدود، وأنْ يُنزَع عنه القناع. تلك الأشياءُ أُنجِزتْ. وأخيرًا أمكن لعينَيْ يعقوب المفزوعتيْن من رؤية ذلك الوجه -الذي كان وجهه هو نفسه. تملَّكه الخوف والجنون. رفعتُ يدَه اليمنى المرتجفة بيدي التي كانت حازمة، وأمرْتُه بِأن يُواصل مشاهدة مراسيم موتِه. كانَ مسكونا بالمرآة: لم يَسع حتى إلى رفع عينيه أو دلق الحبر. عندما هوى السيف في الرؤيا على رأس المذنب، تأوَّه بصوت لم يَرِقَّ له قلبي، وتدحْرج ميتًا على الأرض.

«ليكن المجد حليف من لا يموت، والذي في يده مفتاحا الصّفح الذي لاحَدّ له والعقابِ الأبدي.»

(من كتاب ر.ف. بورتون *مناطق البحيرات في أفريقيا الاستوائية*.)

مُضاعَفٌ لمُحمَّد

نظرا للارتباط المُحْكم لأفكار محمد والدِّين في أذهان المسلمين، فقد قرَّر الرَّبّ أن تترأَّس الجنةَ الرُّوحُ التي تقوم بدور محمد دائما. ليس هذا المُنتَدب هو نفسه دائما. لقد شَغَل مُواطنٌ من ساكسونيا، كان قد أُسِرَ حيًّا من قِبَل الجزائريِّين ودخل في الإسلام، هذا المنصب ذات مرة. وبما أنه كان مسيحيًّا، فقد حدَّثهم عن يسوع، وقال لهم إنه لم يكن ولدًا ليوسف، بل كان ابْنًا للرَّب؛ وكان مناسِبًا تبديله. إن وضْع محمد هذا المُمثِّل يُشارُ إليه بِمِشْعل لا يراه سوى المسلمين.

بالفعل، ليس محمدا الحقيقي، الذي حرَّر القرآن، مرئيًا لأتباعه. قيل لي إنه في البداية ترأَّسَهم، لكنه سعى إلى الهيمنة عليهم، فَنُفي إلى الجنوب. وحرَّضت الشياطين جماعة من المسلمين للاعتراف بمحمد بصفته إلها. ولقمع الاضطراب، استُقدِم محمَّدٌ من الجحيم وعُرضَ عليهم. في هذه المرة شاهدْتُه. كان شبيها بالأرواح الجسدية التي ليس لها إدراك داخليّ، وكان وجهه شديد القتامة. لقد أفلح في أنْ يتهجى الكلمات: «أنا مُحمَّدُكم»، واختفى حالا.

(من *الدّين المسيحي الحقيقي* [١٧٧١]،
بقلم إمَانويل سْودِنْبُورْج)

فهرس المصادر

المُخلِّص الفظيع للازاروس مُورِل.

- *الحياة في نهر المسيسيبي*، بقلم مارك توين. نيويورك، ١٨٨٣.
- *أمريكا مارك توين*، بقلم برنارد ديفوتو. بوسطن، ١٩٣٢.

المحتال غير القابل للتصديق توم كاسترو.

- موسوعة *البريطانية*. الطبعة الحادية عشرة. كامبريدج، ١٩١١.

الأرملة تشينغ القرصانة.

- *تاريخ القرصنة*، بقلم فيليب غُوس، لندن، ١٩٣٢.

مقدم الآثام الراهب ايستمان.

- *عصابات نيويورك*، بقلم هربرت أسبري. نيويورك، ١٩٢٧.

القاتل غير المكترث بيل هاريغان.

- *قرن من المسلحين*، بقلم فريدريك واتسون. لندن، ١٩٣١.
- *ملحمة بِيلِي ذا كيد*، بقلم والتر نوبل بيرنز. نيويورك، ١٩٢٥.

سيد الاحتفالات غير المتحضِّر كُوتْسُوكِ نُو سُوكِ

- *حكايات اليابان القديمة*، بقلم أ.ب.ميتفورد. لندن، ١٩١٢.

الصبّاغ المقنَّع حكيم المَرْوَزيّ.

- *تاريخ* بلاد *فارس*، بقلم السير بيرسي سايكس. لندن، ١٩١٥.
- تدمير *الوردة*. منسوخ من النص العربي الأصلي للكاتب ألكسندر شولتز، لايبزيغ، ١٩٢٧.

قصص

(١٩٤٤)

إلى إِسْتِرْ سِمْبُرَيْن دِ طُرِّسْ

حديقة الشِّعاب التي تتفرَّع

(١٩٤١)

تمهيد

لا تستدعي القصص السبع لهذا الكتاب إيضاحا أكبر؛ فالقصة السابعة منها (حديقة الشِّعاب التي تتفرَّع) بوليسيَّةٌ؛ وسيَشْهدُ قراؤُها تنفيذَ جريمةٍ وكلَّ التمهيداتِ التي تسبقُها، دونما جهل منهم لِقصْدِها، ولكن، يبدو لي، أنهم لن يفهموا الفقرة الأخيرة. أما القصص الأخرى فهي عجائبية؛ فإحداها -«اليانصيب في بابل»- ليست بمَعزِل تامّ عن الرمزية. أنا لستُ أوَّل مُؤلِّف لقَصَص «مكتبة بابل»؛ وبِوُسع الشَّغوفين بمعرفة تاريخها وما قبل تاريخها أن يعودوا إلى إحدى صفحات العدد ٥٩، مِن مجلة SUR [الجنوب]، التي تُسجِّل الأسماء المتغايرة لِلِيُوسِبُوس ولِلَاسْفيتْزْ، لِلِوِيسْ كارُولْ وأَرِسْطُوطاليس. وفي «الأنقاض الدائرية» كُلُّ شيء غيْرُ حقيقي؛ أما في پْيِيرْ مِنَار، مؤلِّفُ ضُونْ كِيخُوطِي، فالحقيقي هو المصير الذي يفرضه بطل القصة على نفسه، وأما لائحة الكتابات التي أنسبها إليه فهي ليست بالمُسلّية زيادة عن اللزوم، لكنها ليست اعتباطية؛ إنها خُطاطةٌ لتاريخه الذِّهني...

ويكون من الهُراء المُجْهِد والمُفْقِر تأليفُ كتبٍ مُسرفة الطُّول؛ بالإسهاب في خمسائة صفحة في بسط فكرة يمكن لعرضها الشَّفهيّ الجيد أنْ يستغرق دقائق قليلة. إنّ أفضل إجراء هو ادِّعاءُ أن تلك

الكتب موجودة، وتيْسِيرُ مُلخَّص عنها وتعليق. هكذا تصرَّف كَرْلايْل في «الخَيّاط الذي أُعيدتْ خِياطَتُه»، وكذا بَطْلِر في «المنتجع الجميل»، ولو أنّ هذين العمَليْن بِهِما نقيصة كونهما كتابيْن أيضا، ولا يَقِلّان في تحصيل الحاصِل عن غيرهما. ولكوني أكثر حصافة، وأكثر عجْزا، وأكثر تكاسُلًا، فقد اخترت أن أكتب ملاحظات عن كتب متخيَّلة؛ وتَمَثَّلت هذه الملاحظات في طْلُون، أُكبار، أُرْبِسْ تِرْتِيُّوس، امتحان آثار هربرت كوين.

خ. ل. ب.

طْلُونْ، أُكْبار، أُرْبِسْ تِرْتِيُّوس

I

أنا مَدين باكتشاف أُكْبَار إلى اجتماع مرآة وموسوعةٍ. كانت المِرآة تُشوِّش على عُمق مَمَرّ[1] [quinta] في عزبةٍ بشارع غَاوُنا، في حَيٍّ رامُوسْ مِخِيًّا؛ وكانت الموسوعة تُدْعى مُخادَعةً *The Anglo-American Cyclopaedia* *الموسوعة الأنكلو-أمريكية* (نيويورك، ١٩١٧)، وهي طبعة مُعادَة وحَرفية، لكنها متأخّرة أيضا، *لِلموسوعة البريطانية* الصادرة سنة ١٩٠٢. حدثت الواقعة منذ حوالي خمس سنوات. كان بْيُويْ كاسَارِسْ قد تعشى معي تلك الليلة، وقد أخَّرنا وقْتَها نقاشٌ مستفيض حول تحرير رواية بضمير المتكلم، وأنْ ينسى ساردُها الوقائع أو يُشوِّهها، فيقع في تناقضات مختلفة، بحيث ستسمح لقُرّاء قلائل -لقلة قليلة من القراء- بالتنبُّؤ بواقع فظيع أو تافه. انطلاقا من العمق القصي للمَمرِّ، كانت المرآةُ تترصَّدُنا. اكتشفنا (يكون هذا الاكتشافُ، في الهزيع، لا مناص منه) أن بالمرايا شيئا فظيعا، فتذَكّر بْيُويْ، عندئذ، أن أحد هراطقة أُكْبار كان قد صرَّح

---

(١) هي عِزبة تقع خارج المركز الحَضري لمدينة، لكنها في الوقت ذاته قريبة منه. وعادة ما تكون لهذه البيوت مساحة شاسعة، وتُستعمَل عادةً بغاية الاستراحة أو الترويح عن النفس خلال نهاية الأسبوع أو العُطل. [المترجِم]

بأنَّ المرايا والجِماع مقيتان، لأنهما يضاعفان عدد البشر. سألته عن أصل تلك الحِكمة المأثورة، فأجابني بأن *الموسوعة الأنكلو-أمريكية* أوردَتْها في مادتها عن أُكْبار. وكانت العِزبة (التي كنا قد استأجرناها مُؤثَّثة) تتوافر على نسخة من ذلك العمل. وصادَفْنا في الصفحات الأخيرة من المجلد السادس والأربعين مقالا عن أُپْسَالا Upsala، وفي الصفحات الأولى من المجلد السابع والأربعين، عثرنا على مقال عن لُغَاتِ الأُورَال-أَلْطايْك Ural-Altaic Languages، لكنَّ أُكْبار لم تَرِدْ عنه ولو كلمة واحدة. بْيويْ مفزوعا قليلا تصفّح مجلدات الفهارس. استنفد عَبَثًا كلَّ الصِّيغ الممكنة للكلمة: أُكْبار، أُقبار، أقْبار، أوكْبَر، أُوكْبَاهْر... وقبل انصرافه، قال لي إنها منطقة من العراق أو من آسيا الصغرى. أعترف أنني أمّنت على كلامه بنوع من الانزعاج. خمَّنتُ أن هذا البلد غيرَ الموَثَّق وذاك الهرْطقيّ المجهول كانا قصة مُرتَجَلة تواضعا من قِبَل بيوي، ليُبرِّر عبارة، وقد قوّى شَكِّي اختبار عقيم لأحد مجلّدات أطْلَس خُوسْتُوس پِرْتِسْ.

في اليوم التالي، هاتفني بْيُويْ من بوينوس آيرس، وأبلغني أن تحت ناظريْه المقالَ عن أُقبار، في المجلد السادس والأربعين من الموسوعة، وأنْ لا ذِكْرَ فيه لاسم الهرطقي، لكنَّ خَبَر مذهبه موجود، وهو مصوغٌ بكلمات تكاد تطابق التي ردَّدها هو نفسُه، ولو أنها - ربما- أقَلُّ أدبيَّةً. كان بْيوي قد تذكَّر هكذا: *Copulation and mirors are abominable* [*الجِماع والمرايا مقيتان*]. وكان النص في الموسوعة يقول: «بالنسبة إلى أحد أولئك الغنوصيين، كان الكون المَرئيُّ وهمًا، أو (بتحديد أكثر)، سفسطة. المرايا والأبُوّة بَغِيضتان (*mirrors and fatherhood are hateful*) لأنهما تضاعفانه،

وتُذيعانه». أجبتُه، دون إساءة إلى الحقيقة، إنَّني أودّ رؤية ذلك المقال. أيّاما قليلةً بعدُ، أحْضَره، الشيء الذي فاجأني، لأن الفهارس البيانية الدَّقيقة لإِرْدْكُونْدِ (Erdkunde) التي أعدَّها Ritter رِيتِرْ تتجاهل تماما اسم «أُكْبار».

فعلا، كان المجلد الذي أحضره بْيُويْ السّادِسَ والأربعين من *الموسوعة الأنكلو-أمريكية*. وعلى الغلاف المُزوَّر وجْهًا وقَفًا الإشارةُ الألفبائية (Tor- Upps) المطابِقة لنسختنا، لكن عِوض توافُرها على ٩١٧ صحفة، كانت في ٩٢١ صفحة. وكانت تلك الصفحات الأربع المضافَة تضم المقال عن أُكْبار؛ غيرَ المُدرَج (مثلما يكون قد انتبه القارئ إليه) في الإشارة الألفبائية. وتحقَّقنا لاحقا من أنْ لا وجود لاختلاف آخر بين المجلدين؛ فالاثنان (حسبما أعتقد أني ذكَرت) هما نَسِيخَتان من الطبعة العاشرة *للموسوعة البريطانية*. وقد اقتنى بْيُويْ نسختَه في مَزاد من بين مزادات كثيرة يحضُرُها.

قرأنا المقالَ بنوع من الحذر. وربما كان المقطع المُتذكَّرُ من قِبَل بْيُويْ الشيءَ الوحيدَ والمُفاجئ؛ بينما بدت المقالات الأخرى شديدةَ الشَّبه، ومضبوطةً جدا مع النّبرة العامة للعمل، و(بطبيعة الحال) مملة قليلاً. بإعادة قراءة المقال، اكتشفنا تحت كتابتِه الصارمة التباسًا أساسيًّا يطغى على طريقة كتابتها الصارمة، حيث إنه بين الأسماء الأربعة عشر الماثلة في الجُزء الجغرافي، تعرَّفنا على ثلاثة فقط - خراسان، وأرمينيا، وأرضروم - أُدرِجتْ في النص بصيغة مُلتبِسة، واسما واحدا فقط، من بين الأسماء التاريخية؛ هو الدّجال إِسْمِرِيدِيس[1] الساحر، المذكور بالأحرى بصفته استعارة. وبدا لنا

(١) اسمُه عند العرب «بارديا»، أخ قمبيز الثاني [المترجم].

أنَّ المَقال يُدقِّق في شأن حدود أُكْبار، لكنَّ ما أَوْرَدَ من نقط إحالتِه الغامضة كانت أنهارا وفوهات براكين وسلاسل جبلية لتلك المنطقة نفسها. قرأنا، مثلا، أن الأراضي المنخفضة من تْسَايْ خَلْدُون Tsai Jaldún، ومن دِلْتا أَكْسَا Axa، تعيِّن الحدود الجنوبية، وأن في جُزر تلك الدلتا خيولا برية تتوالد. ذاك ما ورد في مُستهَلّ الصفحة ٩١٨. وفي القسم التاريخي (الصفحة ٩٢٠)، عرفنا أن الأرثوذوكسيِّين بحثوا -عَقِب الملاحَقات الدينية للقرن الثالث عشر- عن ملاذ في تلك الجزر، حيث لا تزال مِسَلّاتُهم قائمة، ولا يزال النّبش يُخرِج مراياهم الحجرية. وكان قِسم *اللغة والأدب* مُقتَضَبا. هناك لمحة واحدة فقط جديرة بالذِّكر؛ تُعلِّق بأن لأدب أُكْبار خاصيةً عجائبية، وأن ملاحمها وأساطيرَها لا تحيل إلى الواقع أبدا، وإنما إلى الجِهتين المُتَخيّلتيْن: مْلِخْنَاسْ وطْلُونْ... وتَعُدّ لائحةُ المصادر تَتَابُعًا أربعة مجلدات لم نعثر عليها بَعْدُ، ولو أن الثّالِثَ -مجلّد سِيلاسْ هاسْلَام: *History of the Land Called Uqbar, 1874* تاريخ الأرض المسماة أُكْبار، ١٨٧٤- مذكور في دليل مكتبة بِرنارد كُوارِتْش.[1] الأوّل هو Lesbare und lesenswerthe Bemerkungen über das land Ukkbar in Klein- Asien [يُقرأ وجدير بالقراءة: تعليقات على بلد أُكْبار في آسيا الصغرى] يحمل تاريخ ١٦٤١، وهو عَمَلٌ لِيُوهَانِسْ ڤا-لِنْتِينُوسْ أَنْدْرِيَا. الواقعة دالّة؛ إذْ بعد سنتين أو أكثر صادفتُ ذلك الاسم في صفحات غير مُتوقَّعة من تأليفِ دِ كْوِينْسِي (*كتابات*، المجلد الثالث عشر)، وعلِمت أنه كان اسمًا لِلاهوتي ألماني وصف، في مُستهلّ القرن السابع عشر، الجماعةَ المتخيَّلَةَ «الصَّليب-الْورديّ»، التي شيَّدها لاحقا آخرون، تقليدا منهم لِواضِع خِطَّتها.

---

(١) كذلك نشر هاسْلام كتابًا آخر بعنوان «تاريخ عام للمتاهات».

في تلك الليلة، زرنا «المكتبة الوطنية». وتَعِبنا سُدى في تصفح الأطلس، والكتالوجات، وحوليات الجمعيات الجغرافية، ومذكرات الرحالة والمؤرخين: لا أحَد وطئ أُكْبار أبدًا. كذلك لم يتضمّنِ الفهرسُ العام لموسوعة بْيُويْ ذلك الاسم. وفي اليوم التالي، لَمَحَ كارْلوسْ مَاسْتْرُنَارْدِي (الذي حكيْتُ له القضيّةَ) في مكتبة تقع عند ملتقى شارعي كُرِّيِنْتِسْ وتَالْكَهْوانُو الكُعوبَ السوداء والذّهبية «للموسوعة الأنكلو-أمريكية»... فدخل وتصفح المجلد السادس والأربعين. وبالطبع، لم يقف على أي إشارة إلى أُكْبَار.

II

لا تزال ذكرى محدودة وناقصة عن هِرْبِرْتْ آشِي، مُهندِسِ بالسِّكك الحديدية الجنوبية، مُستمرَّةَ الحضورِ في فندق أَدْرُوغِي، بين زَهرات العسل الفيّاضة وعمق المرايا الخادع. عانى آشِي في حياتِه، شأنَ كثيرٍ من الإنجليز، بُعدَه عن الواقع؛ ولم يبق منه بعد موته حتى الشبح الذي كانه في زَمانه. كان طويلا، ومُقزِّزا؛ وكانت لحيتُه المضجِرةُ حمراء. أتفهَّم أنه كان أرمل، دون أطفال. كان يذهب إلى إنجلترا كل بضع سنين: كي يزور (أَحكُم استنادا صُور أطلعنَا عليها) مِزْوَلةً وبعضَ أشجار البلوط. ووثَّق أبي (الفعل فيه مغالاة) معه إحدى تلك الصداقات الإنجليزية التي تبدأ بإقصاء المسارَّة وسريعا ما تَنسى الحوار. اعتاد الرَّجُلان على تبادل الكتب والصحف؛ وتعوّدا على أن يتبارزا في الشطرنج، في صمت... أذْكُره في ممر الفندق، بكتاب رياضيات في يده، ناظرا أحيانا إلى الألوان الفانية للسماء. ذات مساء، تحدثنا عن النظام العددي الاثني عشري (الذي يُكتب فيه

العدد اثنا عشر ١٠). آشِي قال تحديدا إنه كان بصدد نقل نوعا لا أعرفه من الجداول الاثنتي عشرية إلى جداول ستينيّة (تُكتب فيه ستون ١٠). وأضاف أنَّ ذلك العمل كان قد كُلِّف به من قِبل نَرْوِيجِيٍّ: في رِيُو غْرَانْدِي دُو سُولْ. لقد عرفناه منذ ثمانية أعوام، ولم يذكر البتة إقامتَه في ذلك الإقليم... تحدثنا عن الحياة الرعويّة، وعنِ الكَاپانْغَسْ[1] [الخَوَلِيِّين]، وعن الاشتقاق البرازيلي لكلمة غاوْشُّو *gaucho*، (التي لا يزال بعض المُسِنّين الشرقيين ينطقونها غاوُشُّو gaúcho)، ولم يُقَلْ شيءٌ أكثر -ولْيغفر الله لي- عن الدَّالّات الاثنتي عشريَّة. وفي سبتمبر ١٩٣٧ (لم نكنْ نحن وقْتَها في الفندق) تُوفي هِرْبِرْتَ آشِي بسبب تمّدد في الأوعية الدموية. أياما قبل ذلك، كان آشي قد توصَّل من البرازيل بطردٍ مختومٍ، وكان كتابا من القطع الثُّماني الكبير، فتركه في الحانة، حيث عثرتُ عليه شهورا بعد ذلك. شرعْتُ في تصفُّحه، وأحسست بدوار مذْهِل وطفيف، لن أَصِفه، لأن هذه القصة ليستْ قصةَ انفعالاتي، وإنما هي قصة أُكْبَار وطْلُون وأُرْبِس تِرْتِيُّوس. توجَد في الدين الإسلامي ليلةٌ تُدعى «ليلة الليالي»، تُفتَح فيها الأبوابُ السرية للسماء على مِصراعيْها، ويَعذُب الماء في الجِرار؛ وإنْ تنفتحْ لي تلك الأبواب، فلن أُحِسَّ بما أحسستُه في ذلك المساء. كان الكتاب مُحرَّرا باللغة الإنجليزية، ويضمّ ١٠٠١ صفحة. وقرأت على الكعب الجلدي الأصفر هذه الكلمات الغريبة التي يُكرِّرُها الغلاف المُزَيَّف: *A First Encyclopaedia of Tlön. Vol. XI. Hlaer to Jangr* [موسوعة طْلُون الأولى. *المجلد الحادي*

(١) capangas تعني تقريبا الخَوَلَ في العربية، والخوَليُّ الراعي الحسن القيام على المال والغنم، والجمع خَوَلٌ كعربيٍّ وعرَب [المترجم].

عشر. من هْلَايِرْ إلى جَانْغْر]. دونما إشارة إلى التاريخ أو المكان. وكان في الصفحة الأولى، وفي ورقة من الحرير يُغطي لوحةً من اللوحات المُلَوَّنة مُنحنى بيضويٌّ أزرق فيه هذا التقييد: أُرْبِس تِرْتِيُّوس. وكنتُ قد اكتشفتُ، منذ حوالي سنتيْن، في مجلد موسوعة مُقرصَنَة وصفًا مُقتضَبًا لبلد مُختَلَق؛ والآن يُزوِّدني الحظُّ بشيء أثْمنَ وأصعَبَ. الآنَ، في يديَّ، مقطع مسْهَبٌ ومنهجي من التاريخ الكُلّي لكوكب مجهول، ببناياته الهندسية ومُشاحَناته، وبرعب أساطيره، وبشائعات ألسنته، وبأباطرته وبحاره، وبمعادنه وطيوره وحيتانه، بجَبْرِه وناره، وبمُناظَراته اللاهوتية والميتافزيقية. وجاء كل ذلك مُفصَّلا ومُنسجِما، ودون قصد مذهبي مَرْئيٍّ، أو نبرة ساخرة.

وهنالك إشاراتٌ في المجلد الحادي عشر، الذي أتحدث عنه، إلى مجلدات سابقة عليه ولاحقة. وقد نفى نِسْطُورْ إبَارًّا، في مقالة هي كلاسيكية الآن في ن.ر.ف N.R.F، وجود تلك الأشياء المجاورة؛ وربما نجح إسِكْيِيل مارْتِنِسْ إسْتْرَادَا ودْرِيوْ لَا رُوشِلٍّ، في دحض ذلك الشَّك. والواقع، لحد الآن، أن البحوث الأكثر جدِّية ظلّت عقيمة. وعبثًا كانت الفوضى التي أحدثْناها في مكتبات الأمريكيتين وأوربا. وضجِرا من تلك الأعمال الثانوية المتعِبة ذات الطابع البوليسي، اقترح ألْفُونْصُو رِيِّسْ أن نعمل فيما بيننا جميعا على إعادة بناء ما نقص من المجلدات الكثيرة والضخمة: *ex ungue leonem*[1] [بالمخالب يُتعرَّف على الأسد]. وقدّر، بين الحقيقة والهُزء، أن جِيلًا من الطلُونِيِّينَ[2] يُمكن أن يكفي. ويعود بنا ذاك

---

(١) ex ungue leonem عبارة باللاتينية تعني أنّ الجزء يدُلُّ على الكلّ [المترجم].

(٢) نسبة إلى طْلونْ.

التَّقدير المتهوِّر إلى المشكلة الرئيسة: مَن اخترع طْلُون؟ لا مناص من صيغة الجمع، لأنّ فرضية خالق واحد - لِلَايْبِنِزْ Leibniz لا نهائيّ يعمل في الغياهب وفي تواضع- قد استُبعِدتْ بالإجماع. ويُخمَّن أن هذا العالم الجديد الشجاع هو عملٌ لجمعية سرية من علماء الفلك، وعلماء الأحياء، والمهندسين، والميتافيزيقيين، والشعراء، وعلماء الكيمياء، وعلماء الرياضيات، والأخلاقيين، والرسامين، وعلماء الهندسة. . . يُسيِّرهم رجل عبقري غامض. ويَكثُر أفراد يُحكِمون صناعة هذه الدراسات المختلفة، لكن ليس الأفراد القادرين على الابتكار، وأَقَلّ منهم القادرون على إخضاع الابتكار إلى خطة منهجية صارمة. وتلك الخطة هي على قدر من الشسوع حتى إن إسهامَ كل كاتب متناهيةٌ في الصغر. في البداية، اعتُقِد أن طْلُونَ مجرَّدُ فوضى، ورخصة عمل للخيال غير مسؤولة؛ والآنَ يُعرَف أنه كون، ويُعرَف أن القوانين الحميمة التي تَحكُمه قد صيغت، ولو بصيغة مؤقتة. ويكفي التذكير بأن التناقضات الظاهرة في المجلد الحادي عشر هي الحَجرُ الأساس في إثبات وجود الأخرى: إنّ النظام الذي عُوِينَ فيه شديد الصفاء وشديد العدل. وقد نشرت المجلات الشعبية، بإسراف يُغتَفَر، الأصناف الحيوانية والأشكال الطوبوغرافية في طْلُون؛ وأظنُّ أنّ نمورها الشفيفة وأبراجَها التي بلون الدم لا تستحق، ربما، الاهتمام المتواصل مِن قِبل كل الناس. وأجرؤ على أَلتَمس بعضَ الدّقائق لاستعراض فكرتِه عن الكون.

لقد لاحظ هِيُوم دوْمًا أن حجج بِرْكْلِي لا تَقبَل أدنى رَدّ ولا تُحْدث أدنى إقناع. وهذا التقرير يصْدُق كُلّيًا عند تطبيقه على كوكب الأرض؛ وباطلٌ تماما في طْلُون. إن أُمم ذلك الكوكب هي -فِطريا- مثالية، وإن لغتَها وما يُشتَقّ من لغتها - من دين، وأدب، وميتافيزيقا-

تفترض المثاليةَ، لذلك يَكونُ العالم، بالنسبة إليهم، ليس تَصادُف الأشياء في المكان وازدحامَها؛ بل سلسلة غير متجانسة من أفعال مستقلة، وهو تتابُعي وزماني، وليس فضائيا. ولا وجود فيه لأسماء في Ursprache [اللغة الأصلية] الافتراضية لِطْلون، التي تأتي منها اللغات «الحالية» واللهجات: هناك أفعال جامدة، تُوصف بلواحق (أو بسوابق) أحادية المقطع ذات قيمة ظرفيّة. مثلا، لا توجد كلمة تتطابق مع كلمة luna «قمر»، لكنَّ هنالك فعلا، قد يكون في الإسبانية lunecer[1] «أَقْمَر» أو lunar[2] «قمَّر». تُقال عبارةُ: «*بدا القمر فوق النهر بصيغة*» هكذا «هْلُورْ وُ فَنْغْ أَكْسَكْسَكْس مْلُو hlör u fang axaxaxas mlö»، أي وفْقَ ترتيبها: نحو الأعلى (upward) خَلْف الانسياب-المتواصل أقْمَرت [السماء]، (يُترجِم شُّولْ صُولارْ في إيجاز: upas tras perfluyue lunó [هَيَّا، فخلف الجريان المتوصل أقمرَتْ]. Upward, behind the ostreaming it mooned).

يُحيل ما ذُكِر آنفا إلى لغات النصف الجنوبي من الأرض، وأما لغاتُ النصف الشمالي منها (الذي لا نتوافر إلا على النزر القليل من المُعطيات عن لغاته في المجلد الحادي عشر)، فإن الخليَّة الأصلية

(١) لا وجود لهذا الفعل في Diccionario de la lengua española [قاموس اللغة الإسبانية] الذي تُصدره «الأكاديمية الملكية الإسبانية». وفي [اللسان] أقمر الرَّجل: ارتقب طلوع القمر ، من بين معان كثيرة [المترجِم].

(٢) توجد الكلمة في Diccionario de la lengua española [قاموس اللغة الإسبانية] لكن ليس بصفتها فعلا، بل هي اسم ونعتٌ يُفيد من بين أشياء: القَمريّ أو الخالة أو الشامة أو اللطخة، إلخ. وفي [اللسان] تقمَّرتُه: أتيْتُه ليْلًا، من بين معان كثيرة[المترجِم].

ليست الفعل، بل النعت أحاديّ المقطع، لأن الأسماء لديها تتكون من تراكُم النعوت؛ فلا يُقال «قمر»، بل يُقال «الجَليّ-الهوائي على القاتم-المستدير أو البرتقالي-الباهت السمائي» أو أي إضافة أخرى. وبصدد الحالة التي اخترناها، فإن كتلة النعوت تناسب شيئا حقيقيا؛ ولا تعدو الواقعة كونها عَرَضيّة. ويزخر أدب هذا النصف الشمالي من الأرض (مثلما حال العالَم القائم في مِينُونْغْ) بأشياءَ مثالية، تُستدعى وتتحلَّل في لحظة، وَفْق الاحتياجات الشعرية. ويُحدِّدُها، أحيانا، مجرَّدُ التزامن. وهنالك أشياءُ مُركَّبة من لفظيْن، أحدُهما ذو طابَع بصري، والآخر سمعي: لون المَشرِق والصياح القصِيُّ لطائر. ومن هذه الأشياء كثيرٌ: الشمس والماء يُواجِهانِ صدر السّبّاح، واللون الورديّ الغامض والمرتجِف الذي يُرى بعينيْن مغمَضتيْن، وإحساس من يُسلِس قيادةَ ذاتِه للنهر أو للنوم أيضا. ويُمكن لهذه الأشياء التي من الدرجة الثانية أنْ تتراكب مع أخرى؛ وتكون العمليةُ، من خلال بعض الاختصارات، عَمليًّا لا نهائيّة. وتوجد قصائدُ شهيرة مشكَّلَة من كلمة واحدة هائلة فقط. وتُدمجُ هذه الكلمةُ شيئا شعريا من ابتكار الشاعر. والمفارقة تكمن في أنْ لا أحد يؤمن بحقيقة الأسماء، مما يجعل عددَها لا نهائيا. وتمتلك لغات طْلُون للنصف الشمالي من الأرض كلَّ الأسماء التي في اللغات الهندو-أوربية، ناهيك عن أخرى كثيرة وزيادة.

وليس مبالغة التأكيد على أنَّ الثقافة الكلاسية لِطْلُون تضُمّ عِلْما واحدا: علم النفس. وتَخضع له باقي العلوم الأخرى. وقد قلتُ إنَّ بَشَر ذلك الكوكب يتمثَّلون الكون سلسلة من العمليات الذهنية، التي لا تُبسَط في المكان، بل تُبْسَط بصيغةٍ تتابعيَّة في الزمان. وينسب إِسْبِينُوزَا إلى إلهه الذي لا يُستنْفَد مزايا الرَّحابة فضاءً وفِكرا؛ وقد لا

يَفْهم أيّ أحد في طْلُون تجاوُزَ الأولى (التي هي مميزة لبعض حالات الوجود فقط)، مع الثانية، - وهي مرادف كامل للكون-. ولْنَقُل ذلك، بكلمات أخرى: إنهم لا يتمثّلون ما هو فضائيٌّ متواصِلَ الوجود في الزمان. إن إدراك سحابة دخان في الأفق، وما بعد الحقل المُحترق، وبعد السيجارة المطفَأِ نصفها والتي تسببت في الحريق، يُعَدُّ مثالا على اجتماع الأفكار.

وتُبطل هذه الأَحَديّةُ أو المثالية الكُلّيّة العِلمَ، طالما أنّ تفسير واقعة (أو محاكَمتَه) يكون توحيدا له مع آخَرَ؛ وتكون تلك الصِّلةُ، في طْلُون، حالة لاحِقةً للذَّات، لا يُمكنُها أن تؤثر في الحالة السابقة أو أنْ تُضيئها. ولا تَقبل أيُّ حالة ذهنيّة الاختزالَ: ومجرد إطلاق اسم عليها - *id est*، بمعنى تصنيفها- يتضمّن تزييفا. و يمكن أن نستخلص من ذاك كله أن لا عُلومَ موجودة في طْلُون، بله التفكير المنطقي. لكنَّ الحقيقة المفارِقة هي وجودُها، بأعداد تَكاد لا تُعَدُّ. ويحْدُث مع الفلسفة ما يحدث مع الأسماء في النصف الشمالي من الأرض، فأن تكونَ كلُّ فلسفة مُسْبقا لعبةً جدلية، أي *Philosophie des Als Ob*(١) [فلسفة «كما لو»]، معناه أن تكون قد أسهمتْ في تضاعف الفلسفات. وتَكْثر الأنساق الفلسفية بشكل لا يصدق، ولكن بمعمار رائع أو من نمط حسي. ولا يبحث ميتافيزيقيو طْلُون عن الحقيقة، ولا حتى عن احتماليتها؛ وإنما يبحثون عن الدهشة، ويقْضُون بأنّ الميتافيزيقا فرعٌ من الأدب العجائبي، ويَعرفون بأن نسقا ليس شيئا آخَر سوى اتّباعِ كُلِّ مظاهر الكون لأَيٍّ واحدٍ منها، حتى إنّ جملة «كلّ

---

(١) فلسفة هانز ڤايْهِنْغِر Hans Vaihinger (نِهْرين ١٨٥٢-هالي ١٩٣٣) الألماني، أحد تلامذة كانتْ.

المظاهر» مرفوضة، لأنها تفترض استحالة إضافة اللحظة الحاضرة واللحظات الماضية. كذلك لا يُجاز جمْعُ أفعال «الماضي»، لافتراضِها عملية أخرى مستحيلةً. . . لقد بلغ الحدُّ بإحدى مدارس طْلُون أنْ أنكرتْ وجودَ الزمان: إنها تَحكُم بأن الحاضرَ لا حَدّ له، وأَنْ لا واقع للمستقبل إلا بصفته أمَلا حاضرا، وأنَّ الماضي لا واقعيةَ له غيرُ ذِكرى حاضرة[1]. وتُصرِّح مدرسة أخرى بأنَّ *كُلَّ الزَّمان* قد مرَّ، وأنّ حياتنا بالكاد تكون الذِّكرى أو انعكاسا شفَقِيًّا، ولا شك أنها زائفة ومبتورة، ضمن سيرورة لا يمكن استعادتها. وتُصرِّح مدرسة أخرى أن تاريخ الكون -وضِمنَه حيواتنا، والتفاصيل الأدَقّ في حيواتنا- هو الكتابة التي يُنتِجُها إله تابع لكيْ يتفاهَمَ مع شيطان. وتُصرِّح مدرسة أخرى بأن الكون يُقارَن بتلك الكتابات بالشيفرة، التي لا اعتبار فيها لِكُلّ الرموز، وأن الحقيقيَّ وحْدَه ما يحدث كل ثلاثمائة ليلة. وتُصرِّح مدرسة أخرى بأننا أثناء نومنا هنا، نكون مُستيْقظين في ناحية أخرى، وهكذا يكون كل إنسانٍ إنسانيْن.

ولا مَذْهبَ، مِن بين مذاهب طْلُون، استحقَّ ضجيجا صاخبا مثلما المادية، وقد صاغه بعضُ المفكرين، بوضوح يَقِلُّ عن الحماس، كما الإنسان الذي يُقدِّم المُفارَقة استباقا. ولتسهيل فهم تلك الأطروحة التي لا يُمكن تصوُّرُها، تخيَّل أحد زعماء هراطقة القرن الحادي عشر[2] مُغالَطة عُملات النحاس التسع، التي يُعادل

---

(١) يفترض راسل في كتابه (*The Analysis of Mind* [تحليل العقل] ١٩٢١، ص ١٥٩) أن العالم خُلِق، قبل دقائق قليلة، مُمتلئا ببشر «يتذكرون» ماضيا خادعا.

(٢) إنه قرنٌ، وَفْقَ النظام الاثني عشري، يدل على فترة تضم أربعا وأربعين ومائة سنة.

صيتُها الفضيحي في طْلون المُعضلات الإيليَّة.[1] وتوجَد نُسَخ كثيرة من ذاك «المنطق الغرَّار»، التي تُنوِّع عدَدَ العُملات وعدَد اللُّقى؛ هنا أكثرها شُيوعا:

«الثلاثاءَ، يعبر X طريقا مُقفرا، ويُضيّع تسع قطع نحاسية. الخميسَ، يعثر Y في الطريق على أربع قطع عُملات، وقد صدئتْ قليلا بسبب مطر الأربعاء. الجمعة، يكتشف Z ثلاث قطع عملات في الطريق. الجمعة صباحا، يعثر X على قطعتين في ممر بيته. [رغِب زعيم الهراطقة في أن يستنتج الحقيقةَ من تلك الحكايةِ - بمعنى استمرارية- القطع التِّسع المستعادة.] من العبث (أكَّد) تَخيُّلُ أن أربعًا من القطع لم توجد بين الثلاثاء والخميس، وثلاثًا بين الثلاثاء ومساء الجمعة، واثنَتَيْن بين الثلاثاء وصباح الجمعة. ومَنطِقيّ أن نفكر بأنها قد وُجِدتْ - ولو بصيغة سرية، وبفهم مضنون به على الناس- في كل لحظات تلك المُهْلات الثلاث.»

تقاوم لغة طْلُون صياغةَ تلك المفارقة؛ والآخرون لا يفهمونَها. لقد اقتصر المدافعون عن الحس العام، في البداية، على إنكار صحة النادرة. وقد كرَّروا بأنها خداع لفظي، يرتكز على الاستعمال المتهوِّر للفظتيْن جديدتيْن، لم يُرخِّص لهما الاستعمال، وغريبتيْن عن كلِّ فكر صارم: هما الفِعلان «عَثَرَ» و«ضيَّع»، اللذان يتضمنان طلَبَ مبدإ، لأنهما يفترضان هوية القطع النقدية التسع الأولى والأخيرة. وذكّر أولئك المفكّرون بأن لكلّ اسم (إنسان، عُملة، الخميس، الأربعاء، المطر) قيمةً استعارية فقط. وقد ندَّدوا بالظَّرف الغادر: *الصدئة قليلا*

---

(١) نسبة إلى إيليّة Elea المدينة الإيطالية ضمن بلاد الإغريق الكبرى، أو سُكَّانها [المترجم].

بسبب *أمطار الأربعاء* التي تفترض ما تسعى إلى البرهنة عليه: استمرارية القطع النقدية الأربع بين الخميس والثلاثاء. وقد فسَّروا أنَّ شيئا هو *المساواة*، وآخرَ *الهوية*، وصاغوا نوعا من *reductio ad absurdum* [برهان الخلف]، أي الآلة الافتراضية لتسعة رجال يعانون أَلَمًا حيًّا. وسألوا: ألن يكون سخيفا ادِّعاءُ أن ذلك الألَم هو نفسه[١]؟ وقيل إن زعيم الهراطقة لم يكن من شيء يُحرِّكه سوى التجديف القصدي بعزو المقولة الإلهية *للوجود* إلى بعض قطع نقدية بسيطة؛ والتي تنكر التعددية أحيانا، وأحيانا أخرى لا تُنكرها. ويَستدلُّون: إذا كانت المساواة تقتضي الهوية، فينبغي كذلك القَبول بأن القطع النقدية التسع هي قطعة واحدة.

ما لا يمكن تصديقه هو أن تلك التفنيدات لم تكن نهائية. فبعد مرور مائة سنة على طرح المشكلة، صاغَ مُفكّرٌ أرثوذوكسي، ليس أَقلَّ شهرة من زعيم الهراطقة، فرضيةً شديدة الجَراءة. تؤكّد تلك الفرضية السعيدة وجودَ ذات واحدة فحسب، وأن تلك الذات غير قابلة للقسمة هي كل واحد من كائنات الكون، وأنَّ هذه الأخيرة هي أعضاء الألوهية وأقنعتُها. إن X هي Y، وهي Z. وتكتشف Z ثلاث قطع نقدية لأنها تتذكر أنها ضاعتْ من X؛ وتعثر X على قطعتين في الممر، لأنها تتذكر أنَّ الأُخرى استُعيدتْ... ويُستخلَص من المجلد الحادي عشر أن ثلاثة أسباب أساسية حدَّدت الانتصار الكلي لوحدة

---

(١) حاليا، تُدافِع إحدى كنائس طْلُون دفاعا أفلاطونيا عن أن نظير هذا الألم، ونظير تلك الصبغة المُخْضرَّة لِلأصْفر، التي مثل تلك الحرارة، ومثل ذلك الصوت، هي الحقيقة الوحيدة. وأنَّ كلَّ الرجال، في لحظة الجِماع الدُّواريَّة يكونون الرجل نفسَه، وأنَّ كلّ الرّجال الذين يُردِّدون سَطْرًا لشكسبير هم وليم شكسبير.

الوجود المثالية تلك. الأوّل هو رفضُه لمذهب الأنانة Solipsismo، والثاني هو إمكان الحفاظ على الأساس السيكولوجي للعلوم؛ والثالث هو إمكان الحِفاظ على عبادة الآلهة. وقد صاغ شوپِنهاور (شوپنهاور الانفعالي والثاقب الفكر) مذهبا مماثلا جدا في الجزء الأول من كتابه Parerga und Paralipomena [النتاج والفضلات].

وتتضمَّن هندسة طْلُون مَبحثَيْن مختلفيْن نوعا ما: البصَري واللَّمسِيّ. يتطابق الأخيرُ أي اللمسي مع هندستنا، وتُجْعل تابعةً للأول. إن أساس الهندسة البصرية هو المساحة، وليس النقطة. وتتجاهل هذه الهندسةُ المتوازيات، وتُعلن أن الإنسان الذي يتنقل يُغيِّر الأشكالَ التي تحيط به. وأساسُ نظامِه الحسابي هو مفهوم الأعداد اللامتناهية. وهما يُبرزان أهمية مفهومَي الأكبر والأصغر، اللذين يرمز إليهما رياضيونا بـ > وبـ < . ويؤكِّدان على أن عملية الْعَدّ تُغيِّر الكميات، وتُحوِّلها من لانهائية إلى نهائية. وكون عدد من الأفراد الذين يعُدّون كمية بذاتها يتوصلون إلى النتيجة ذاتها هي، بالنسبة إلى علماء النفس، مثال على على اجتماع أفكار أو على التمرين الجيد للذاكرة. ونحن نَعلَم أنَّ موضوع المعرفة، في طْلون، يكون واحدا وأبديًا.

وضمن العادات الأدبية أيضا تكون فكرةُ الذات الواحدة كُلِّية القُدْرة. ونادرًا ما تُوَقَّعُ الكتبُ، ولا وجود لديهم لمفهوم الانتحال: فقد رسخ لديهم أن كلَّ الآثار هي عمل لمؤلف واحد، وأنه لازَمنِيٌّ وغُفْل. وعادةً ما يبتكر النَّقد مؤلفين: يختار عمليْن مختلفين -مثل *تَاوْ تِي كِينْغْ* و*ألف ليلة وليلة*-، ويسندهما إلى كاتب بذاته، ثم يُحدِّد بنزاهة نفسية *رَجُل الآداب* المهم ذاك...

كذلك تكون الكُتب مختلفة؛ فكتب الخيال تضم دليلا واحدا

فقط، مع كل التبديلات المُتَخَيَّلة. وتحوي الكتُب ذات الطبيعة الفلسفية بلا تَغَيُّر القضيّةَ ونقيضَ القضيّة، أي الصارمَ المناصِر للنظرية والمناهِضَ لها، ذلك أنَّ الكتاب الذي لا يحوي في ثناياه كتابَه المُضاد يُعَدُّ كتابا غيرَ تامّ.

لم تَكُفَّ قرون وقرون من المثالية عن التأثير في الواقع. وليس غيرَ مألوف، في المناطق الأقدم من طْلُون، أن تتضاعف الأشياء الضائعة. يبحث شخصان عن قلم رصاص؛ فيعثر عليه الشخصُ الأوَّل، ولا يقول شيئًا؛ ويعثر الشخص الثاني منهما على قلمِ رصاص ثان، ليس بأقَلَّ حقيقة، لكنه أكثر اتفاقا مع انتظاراته. تُسمى تلك الأشياء الثانوية hrönir «هرونير»، وهي ولو أنها بشكل ازدرائيٍّ أكثر طولا بقليل. وحتى وقت قريب، كان «الهرونير» أبناءً عَرَضِيِّين للغفلة والنسيان. ويبدو من قبيل الكذب أنّ إنتاجه النسقي تستغرق مائة سنة بالكاد، لكن هكذا يقول المجلد الحادي عشر. كانت المحاولاتُ الأولى عقيمة. ومع ذلك، فإن *el modus operandi* *صيغة العمل* تستحق أنْ يُذكَّرَ بها. لقد أبلغ مُدير أحدِ سجون الدولة مسجونيه بوجود قبور في قعر نهر، ووعد من يُحضرون له لُقية مهمة بالحرية. وخلال الشهور التي سبقت الحَفْر، عُرِضتْ عليهم ألواح فوتوغرافية لما سيعثرون عليه. وبرهنت تلك المحاولة الأولى أن الأمل والجشع يُمكنهما أنْ يَردَعا أسبوعا من العمل بالمجرفة والفأس، وهو ما فشل في نبشه «هْرُون» آخَرُ باستثناء عجلة صدئة، يعود تاريخها إلى وقت متأخّر عن التجربة. احتُفظ بهذه التجربة بصفتها سرًّا، وكُرِّرتِ التجربة لاحقا في أربع معاهد عليا. كاد الفشل يكون تاما في ثلاثة منها؛ وفي الرابع (حدث أن تُوفي مُديرُه أثناء الحفريات الأولى) أخرج الطُّلابُ -أو أنتجوا- قناعا من ذهب،

وسيفا قديما، وجَرَّتيْن من الخزف أو ثلاثا، وجذعَ تمثال مُخضرّ و مبتور لملك بتقييد في الصدر لم يُفْلح في فكّ شيفرته بعد. وهكذا اكتُشف عدمُ ملاءمةِ الشهود الذين عرفوا الطبيعة التجريبية للبحث. . . وأفرزت البحوث الكُتلية أشياءَ متناقضة؛ ولذلك تُفضَّل الآن الأعمالُ الفردية التي تكاد تكون مرتَجلَة. لقد قدَّمت الصياغة المنهجية hrönir «لهرونير»، (وَفق المجلد الحادي عشر) خدماتٍ مُدهِشة لعلماء الآثار، فقد أتاحتْ مُساءلة الماضي، وحتى تعديله، وهو الآن ليس بأقلَّ لدونة وانقيادا من المستقبل. واقعة غريبة: إن «الهرونير»، من الدرجة الثانية والثالثة -أولئك «الهرونير» المنحدرون من «هرونير» آخَر، و«الهرونير» المنحدرين من «هرون» أصلُه «هرون»- يُبالغون في الانحراف عن الأوَّلي؛ ويكاد يكون «هرونير» الدرجة الخامسة متماثلين؛ ويمتزج «هرونير» الدرجة التاسعة مع «هرونير» الدرجة الثانية؛ ويوجد في «هرونير» الدرجة الحادية عشرة نقاءٌ في الخطوط لا تمتلكه «الهرونير» الأصلية. إنَّ العمليَّة دوريَّةٌ؛ إذْ يشرع «هرون» الدرجة الثانية عشرة في التلاشي. والأغرب والأصفى من كلٍّ «هرون» هو أحيانا ur «أُورْ»: الشيء الناجم عن اقتراح، والموضوع المُستَنبَط من الأمل. والقناع الذهبي الكبير، الذي أشرتُ إليه مثالٌ باهر.

تتضاعف الأشياء في طْلُون؛ وهي تميل ذاتيا إلى الامّحاء وفقْد تفاصيلِها لمّا ينساها الناس. وهناك مثال شهير لتلك العتبة التي دامتْ طالما ظَلَّ مسكينٌ يزورها، والتي اختفتْ عن الأنظار بموته. أحيانا بعض الطيور أو حصانٌ تكون قد أنقذتْ أنقاضَ مسرح مُدرَّج.

سالتو الشرقية، ١٩٤٠

حاشية ١٩٤٧. أعيد نشر المقال السابق مثلما ظهر في *أنطولوجيا الأدب العجائبي*، ١٩٤٠، دون حذف غيرِ بعض الاستعارات ونوعٍ من التلخيص الساخر، الذي يبدو الآن مُبتَذَلا. لقد حدثت أشياء كثيرة منذ ذلك التاريخ... وسأكتفي بالتذكير بها.

في مارس ١٩٤١، اكتُشِفتْ رسالة مخطوطة لـ Gunnar Erfjord غُونَارْ إِرْفْخُورْدْ طَيّ كتابٍ لـ Hinton هِنْتُون، كان في ملك هِرْبرتْ آشِي. كان الظّرف البريدي بختم أُورُو بْرِيتُو وأوْضحت الرسالةُ لغز طْلُون بالكامل. وأيّد نصُّها فرضياتِ مارْتِنِسْ إِسْتْرَادَا. في بداية القرن السابع عشر، في ليلة في لوسِرْنا أو لندن، بدأت القصة البديعة. ظهرت جمعية سرية وخيرية (كان من بين المنخرطين فيها دَلْغَارْنُو، ولاحقا، جُورج بِرْكْلِي)؛ هدَفُها ابتكار بلد. ومَثُلت في برنامجها الغامض الأولي «الدراسات الهرمسية»، وحبُّ البشريَّة، والقَبَّالَة. وإلى هذه الحقبة الأولى يعود الكتاب الغريب لـ Andreä أَنْدْرِيَا. وبعد مُضِيّ سنوات من الاجتماعات السرية والتوليفات السابقة لأوانها، فَهموا أن جيلا لا يكفي لابتكار بلد، فحسموا الأمر بأن يختارُ كلُّ معلِّم منتم إلى الجمعية مُريدا ليُواصِل العمل. وتغلَّب ذاك التنظيم الوراثي؛ فبعد فجوة دامت قرنيْن، ظهرت مجدَّدا في أمريكا الأخَوِيَّةُ الملاحَقة. وحوالى ١٨٢٤، في مِمْفِيسْ (تِنِّسِي)، تناقش عضو من الأخوية مع المليونير الزاهد عِزرا باكلي، وقد تركه الأخيرُ يتكلم مع نوع من الازدراء -وضحِكَ من بساطة المشروع، وقال له إنه من العبث في أمريكا اختراع بلد، واقترح عليه الأولى اختراع كوكب. وأضاف إلى هذه الفكرة العملاقة أُخْرى، من بناتِ أفكار فلسفته العدمية[1]: الحفاظ على

(١) كان باكلي مفكرا حرا، وقدريا، ومدافعا عن العبودية.

المشروع جليل طيّ الكتمان. وقتئذ، كانت المجلدات العشرون من *الموسوعة البريطانية* متداوَلة؛ واقترح باكلي موسوعة منهجية للكوكب الخادع. والتزم بأنْ يُفوِّت للأخويّة من الكوكب السلاسلَ الجبلية بما تحويه من ذهب، وأنهار صالحة للملاحة، ومروج تطأها الثيران والبِيسُون، بزنوجه، ومواخيره، ودولاراته، لقاءَ شرط واحد: «ألا يُعْقد أيُّ اتفاق مع الدجال المسيح». كان باكلي يكفر بالله، لكنه كان يريد أن يبرهن للإله غير الموجود أنه بوسع البشر الفانين أن يتخيَّلُوا عالَمًا. سُمِّمَ باكلي في بَاتُون رُوجْ في ١٨٢٨؛ وفي ١٩١٤، بعثت الجمعية إلى متعاونيها، الثلاثمائة، الجزء الأخير من موسوعة *طْلُون الأولى*. كانت الطبعة سرية: المجلدات الأربعون التي تضمَّن (العمل الأوسَع التي أنجزه البشر) قد تكون الأساس لأخرى أَدَقَّ، هي الآن ليست مُحرَّرة بالإنجليزية، وإنما بإحدى لغات طْلُون. وتُسمّى مؤقَّتا تلك المراجَعة لعالَم خادع *أُورْبِيسْ تِرْتِيُوسْ*، وكان أحَدُ خالِقِيه المُتَواضِعين هِرْبِرْتْ آشِي، ولست أدري إنْ كان بصفته عميلا لغُونَارْ إِرْفْخُورْدْ، أم بصفته عضوا منخرطا. ويبدو أن توصُّلَه بنسخة من المجلد الحادي عشر شجَّعه على الثاني. لكن، ماذا عن المجلّدات الآخرى؟ زهاء عام ١٩٤٢، تلاحقت الوقائع بشدة، وأتذكر بصفاء متفرِّد إحداها، ويبدو لي أني أحسست بشيء من طبيعتها المنذرة. حدث ذلك في شقة بشارع لَاپْريدا، قُبالة شرفة بارزة وعالية تنظر إلى الغروب. من «پْواتْيِي»، توصَّلت الأميرةُ فَاوْسِيغْني لُوسِينْجْ بعلبتها الفضية من پْوَاتْيِي. ومن العمق الشاسع لصندوق موقَّع بأختام دولية، شُرِع في اسْتخراج أشياء دقيقة وجامدة: مُفضَّضات من أُوتْرِخْتْ ومن باريس، عليها

شعارات حيوانية صلبة، وسَمَاور.[1] وكان بينها -اهتزاز خفيف يُدرَك كأنه لطائر نائم- نبض غريب لبوصلة. الأميرةُ لم تتعرَّفها. وكانت الإبرة الزرقاء تتشوق إلى الشمال المغناطيسي؛ وكانت العلبة المعدنية مجوَّفة؛ وكانت حروف المجالِ تتطابق مع إحدى أبجديات طْلُون. كذلك كان التدخل الأول للعالم العجائبي في العالم الواقعي. وجعلتني مصادفة تُقلقني شاهدا أنا أيضا على التدخل الثاني. شهورا بَعْدُ، حدث في دُكّان لبرازيلي، في كُوشِّيَا نِغْرَا، وكُنا أنا وأَمُورِيمْ عائديْن من سَانْتْ أَنَا، فأَجْبَرَنا ارتفاع مياه نهر تَاكْوَارِمْبُو على تذوُّق (وتحمُّل) تلك الضيافة البدائية. هيأ لنا البقَّالُ سريريْن يُحدِثان صريرا في غرفة كبيرة، تحوي براميل وجُلودا. استلقيْنا، ولكن حال بيننا والنومَ السُّكْرُ المُعربد حتى الفجر لجارٍ غير مَرئي، كان يناوب بين شتائم غير مفهومة وزخَّات من أغاني المِيلُونْغَات- أو بالأحرى، مع زخّات من ميلونغا واحدة. ومثلما يُفتَرض، فقد عزونا ذلك الصراخ المُلحّ إلى الشراب الحامي لصاحب الدّكان... في الصباح، كان الرجل ميِّتًا في الممر. خشونة الصوت كانت قد خدعتنا: كان فتى شابا. أثناء الهذيان، سقطت من حِمالتِه قِطع نقدية، وقِمْع معدني لمّاع، قطرُه يُوازي نَرْدا. عبثا كان سعيُه لالتقاط ذلك القمع. وبالكاد أفلحَ رجلٌ في حمله. مَكَثَ القِمع في راحة يدي دقائقَ: أتذكر أن وزنه كان لا يُحتمَل، وأنه حتى بعد أن سُحِب القِمع من يدي، فإن الإحساس بالضغط استمرّ. كذلك أتذكر الدائرة الدقيقة التي طبعها على لحمي. وقد خلَّف لديَّ ذاك البيانُ من شيء صغير جدا، والثقيلِ جدا في الوقت ذاته انطباعا مزعجا من قرف وخوف.

---

(١) وعاء إعداد الشاي، أصله روسي [المترجم].

اقترح فلاحٌ أن يُلقى به في النهر الجارف. وقد اشتراهُ أَمُورِيمْ مُقابِل قطع بِصُوّات معدودة. ولا أحد كان يعلم شيئا عن الميت عدا أنه« جاء من الحدود». تلك الأقماع الصغيرة والثقيلة جدا (المصنوعة من معدن ليس موجودا في هذا العالم) هي صورة للألوهية، في بعض ديانات طْلُون.

هنا أُنْهِي الجزء الشخصي من حَكْيِي، والباقي يظلّ في ذاكرة جميع قُرَّائي (إن لم يكن في الأمل أو في الخوف). ويكفيني أن أتذكر، أو أنْ أشير إلى الوقائع المتلاحِقة، بإيجازِ كلمات لا غير، وستُغْنيها أو توسِّعها الذِّكرى المجوَّفة والعامَّة. حوالي ١٩٤٤، نبش باحث من الجريدة اليومية *The American* الأمريكي (من ناشْفِيلْ، تِنِّيسي) في مكتبة في مِمْفيسْ، في المجلدات الأربعين من «الموسوعة الأولى لِطْلُون». وإلى اليوم يُناقَش إذا ما كان ذاك الاكتشاف مُصادَفة أم برضى من مُديري ما كان لا يزال سديميًّا: *أُورْبِيسْ تِيرْتِيُّوسْ*. والثاني هو المُحتَمَل. لقد أُلغِيتْ بعض اللمحات غير القابلة للتصديق في المجلد الحادي عشر (مثل تكاثر أفراد «الْهْرُونِير») أو تخفيف حضورها في نسخة مِمْفِيس؛ ومنطقي تخيُّل أن تلك التشطيبات تَخضع لخطة إظهار عالَم لا يكون في غير توافق كثير مع العالم الواقعي. وستكتمِل تلك الخطة بانتشار أشياء طْلُون في بلدان مختلفة...[١] الحقيقة هي أن الصحافة الدولية جهرت إلى أبعد حدّ بواقعة «اللقية». هكذا اكتظَّت الأرض بكتب مدرسية، وأنطولوجيات، وتلخيصات، وطبعات حرفية، وإعادات نشر مرخَّصَة، وإعادات طبع مُقرصَنة، «لأثر البَشر الأعظم»، الذي لا تزال الأرض تكتظ به. وفي الحال

---

(١) تبقى، بالطبع، مشكلة المادة المعدنية لبعض تلك الأشياء.

تقريبا، تنازل الواقِعُ في أكثر من نقطة. والحقيقة أنه كان يتوق إلى التنازل، فَقَبل عشر سنين، كان يكفي أي تماثل بمظهر ترتيبي -المادية الجدلية، أو معاداة السامية، أو النازية- ليَسْحر البشر. فكيف لا يُخْضَع لسحر طْلُون وإلى البيان الدقيق والشاسع لكوكب منظَّم؟ ومن غير الفائدة الإجابة بأن الواقع منظَّم هو أيضًا. ربما هو منظم، لكنه وَفْق قوانين إلهية -أُترجِم: إلى قوانين غير إنسانية- لن ننتهي إلى إدراكها أبدا. وسيكون طْلُون متاهةً، لكنها متاهة أقامَ سَداها الْبَشَر، متاهة قَدَرها أن يفكّ شيفرتَها البشرُ.

لقد فتَّت اتِّصالُ طْلون وعاداتُه هذا العالم. ومفتونةً بصرامته تنسى البشريةُ، وتعود إلى نسيان أنها صرامةُ الشّطرنجيين، وليست صرامة الملائكة. كما تسرَّبت إلى المدارسِ (التخمينية) «اللغةُ البدائية» لِطْلُون؛ ودراسةُ تاريخها المتناغم (والمليء بحلقات مؤثِّرة) قد سدَّت الطريق في وجه ما عاينْتُه في طفولتي؛ وأصبح ضمن الذكريات ماضٍ مُتخيَّلٌ يشغل مكانَ آخر، ولا شيءَ نعرف عنه يقينا - حتى كونه باطلا. لقد رُوجعتْ علوم العُملات والصيدلة والآثار. وأتَفَهّم أن تنتظر البيولوجيا والرياضيات هما أيضا آلهتهما. . . إن سلالة مُشتَّتة من المتفرِّدين غيّرت وجهَ العالم، وتتواصل مهمتها. وإذا لم تخطئ توقُّعاتنا، فبعد مائة سنة من الآن، سيكتشف أحَدهم المجلّدات المائة من «الموسوعة الثَّانية لطْلُونْ».

حينئذٍ، ستختفي من الكوكب الإنجليزية والفرنسية والإسبانية التافهة. سيكون العالَم هو طْلون. أنا لا أكترث، فأنا لا أزال أراجع في الأيام الهادئة بفندق أَدْرُوغِي ترجمةً مرتبكةً على غرار أسلوب كِفِيدُو (ولا أفكّر في أنْ أدفع بها إلى المطبعة) لكتاب بْرَاوْن «Urn Burial دَفْن جَرَّة».

بْيِيرْ مِنَارْ،
مُؤلِّف «دُونْ كِيخُوطي»

إلى سِيلْڤينَا أُكَامْپُو

يَسْهل في إيجاز تَعداد الآثار الأدبية المَرئيَّة التي تركها هذا الروائي. وعليه، لا تسامح مع الإغفال والزيادات التي اقترفتْها السيدة هُنْرِي بَاشْلِي في كتالوغ خدّاع، ولم تترَوَّ صحيفةٌ، ليس سرًّا نزوعُها البروتستانتي، في إيذاء قرائها الذين يُرثى لَهُم - ولو أنّ هؤلاء قليلو العدد وكالڤينيُّون، وإن لم يكونوا ماسونيين وغيْرَ مختونين. لقد نظر أصدقاء مِنَار الحقيقيُّون بقلق إلى ذلك الكتالوغ، وحتى بنوع من الحزن. قد يُقال إننا اجتمعنا أمس قبالةَ شاهِدَة قبره المرمَريّة، وبين أشجار السرو التعيس، وها هو *الخطأ* بالفعل يسعى إلى طمس *أثره*... حقًّا، إن تصويبا مُقتضَبا لا محيد عنه.

أنا أعْلم أنه يَسهل جدا الاعتراض على سُلطتي المتواضعة. وأرجو، مع ذلك، ألا أُمنعَ من الإشارة إلى شهادَتيْن سامِيتَيْن: شهادة البارونة دُ بَكُورْ (التي شرُفْتُ، أثناءَ صالون *جُمعاتها* التي لا تُنسى، بمعرفة الشاعر المأسوف عليه) التي سعِدتْ بالموافقة على مضمون السطور أسْفَله. وشهادة الكونتيسة بَغْنُورِخْيُو، وهي من ألطف

الأرواح في إمارة مُوناكو (وهي الآن في بِيطْسبورْغ في بِنْسِلفانيا، بعد زواجها الأخير بالخَيِّر الدَّولي سِيمُونْ كَاوْتْشِزْ، المُفتَرى عليه كثيرا، واهًا! مِن قِبل ضحايا تحرُّكاتِه المنزَّهة عن أي غرض)، والتي ضَحَّتْ في سبيل «الصّدق والموت» (كذا هي كلماتها) بما يُميّزها من وقار التحفُّظ، بمنحِها إياي الموافقة، في رسالة مفتوحة نُشِرت في مجلة لوكس. وأعتقد أن تيْنكِ الوثيقتيْن ليستا بالمُقصِّرتيْن.

ذكرتُ أن الآثار الأدبية المَرئِيَّة لِمنَارْ يَسْهُل تَعْدادُها، ذلك أنّه أثناءَ فحصي لأرشيفه الخاص بعناية، تثبّتُّ من اشتماله على القطع الآتية:

أ)- سونيتة رمزية ظهرت مرتين (مع تنويعات) في مجلة *La conque* لاَكُونْكْ (عدَدَا مارس وأكتوبر ١٨٩٩).

ب)- مونوغرافيا عن إمكان بناء قاموس شعري لمفاهيم لم تكن مترادفة ولا كنائية من تلك التي تُكمِّل اللغة المشترَكة، «وإنما تكون موضوعات مثالية خُلِقت باتفاق، وتتجه أساسا إلى سدّ الحاجات الشعرية» (نيم، ١٩٠١).

ت)- مونوغرافيا عن «بعض الارتباطات أو التشابُهات» بين أفكار ديكارت ولايْبْنِيز وجون وِيلْكِنْزْ (نيم، ١٩٠٣).

ث)- مونوغرافيا عن «الخاصِّيات الكونية» للايْبْنِيز (نيم، ١٩٠٤).

ج)-مقالة تقنية عن إمكان إغناء الشطرنج بإلغاء أحد بَيْدَقي البرج. يقترح مِنارْ، ويوصي، ويُناقش، وينتهي إلى رفض ذلك الابتكار.

ح)- مونوغرافيا عن «الفنون الكبرى العامة» لِـ Ramón Lull رَامُونْ لُولْ (نيم، ١٩٠٦).

خ)- ترجمة مع تمهيد وملاحظات على كتاب الابتكار الليبرالي وفن لعب الشطرنج لِـ Ruy López de Segura رُويْ لُوپِّيزْ دِ سِغُورَا (باريس، ١٩٠٧)

د)- مُسوَّدات مونوغرافيا عن المنطق الرَّمزي لِـ George Boole جُورْجْ بُولْ.

ذ)- فحص للقوانين الوزنية الأساسية للنثر الفرنسي، مُوضَّحٌ بأمثلةٍ لِسَانْ سِيمُونْ (*مجلة اللغات الرُّومانثِيَّة*، مُونْپُلْيِي، أكتوبر ١٩٠٩).

ر)- رَدٌّ على لُوكْ دُرْتَانْ (الذي أنكر وجود نظير تلك القوانين) موضَّح بأمثلة من لوك دُرْتان (*مجلة اللغات الرومانثِيّة*، مونْپُلْيي، ديسمبر ١٩٠٩).

ز)- ترجمةٌ مخطوطة *Aguja de navegar cultos* [*إبرة الإبحار في العبادات*] لِكِڤِدُو، عنوانُها *La boussole des précieux* [*بوصلةُ الأشياءِ الثمينة*].

س)- تصديرٌ لكَتالوغ لمعرض مطبوعات حجرية لِكارلُوسْ هُورْكَادِ (نيم، ١٩١٤).

ش)- كتابُ *Les problèmes d'un problème* [مشكلاتُ مشكِلةٍ] (باريس، ١٩١٧)، الذي يناقش وَفْق نظام زمني الْحُلول للمشكلة الشهيرة لِأَخِيلْ والسُّلحفاة. وقد ظهرت طبعتان من هذا الكتاب حتى الآن؛ ويتصدَّر الثانية كاستشهادٍ نصيحةٌ لِلَايْبْنِيز *Ne craignez point, Monsieur, la tortue* [*لا تخْشَ، يا سيِّدُ، السلحفاة*]، ويُجدِّد النّظر في الفصليْن الْمُفرَدَيْن لِرَاسِلْ ولِديكارت.

ص)- تحليل معاند «للعادات التركيبية» لـ Toulet تُولِي (ن. ر.

ف. ، مارس، ١٩٢١). مِنارْ -أتذكَّرُ- كان يُصرِّح أن الرقابة والثَّناء هما عمليتان عاطفيتان لا علاقة لهما بالنقد.

ض)- تغيير إيقاع قصيدة *المقبرة البحرية* لبُولْ ڤالِرِي إلى أبياتٍ وزنُها الإسكندريّ (ن. ر. ف. يناير ١٩٢٨).

ط)- سِباب لِبُول ڤالِرِي، في «*أوراقٌ لتجاوز الواقع*» لِجَاكْ رِبُولْ. (ذلك السّباب، المذكور بين قوسين، هو النقيض الدقيق لرأيه الحقيقي في ڤالِرِي. وهذا الأخير هكذا فَهِمه، ولم تتعرض صداقتهما القديمة للخطر).

ظ)- «تعريف» بكونتيسة بَغْنُورِخْيُو، في «المجلَّد المنصور» - العبارة لمتعاون آخر، هو غابْرِييلِ دَانُونْزِيُو- الذي تنشُره سَنَويًّا تلك السيدة لتصويب الانحرافات التي لا مناص منها في الصِّحافة، ولتقديم صورة أصلية منحوتة بالحروف عن شخصها «للعالم ولإيطاليا»، هي التي تتعرض كثيرا (بسبب جمالها ذاتِه وتصرُّفاتها) لتأويلات خاطئة أو مُستعجلة.

ع)- دورة من السونيتات الرائعة لأجل البارونة بَاكُورْ (١٩٣٤).

غ)- قائمة مخطوطة لأبيات مَدينة بتأثيرها إلى التنقيط[1].

حتى هنا (دون أيِّ إغفال اللهم بعض السونيتات الغامضة والظَّرفية مُقابل ضيافة أو جشع ألبوم السَّيدة هُنْرِي بَاشُلْيِي) الأعمال الأدبية المَرئيَّة لمِنارْ، وفق ترتيبها الزمني. وأمرُّ الآن إلى الأعمال الأخرى: الديماسية، البطولية إلى ما لا نهاية، الفريدة، كذلك،

---

(١) كذلك تَذْكر السيدة هُنْرِي بَاشُلْيِي في ترتيبٍ ترجمةً حرفية للترجمة الحرفية التي أنجزها كِڤدو لكتاب *مدخل إلى الحياة الورعة للقديس فرانسيسكو دِ سالِسْ*. ويُلاحظ أنْ لا آثار في مكتبة پْيِير مِنار لنظير ذاك العمل، ويَلْزَم أن تكون مزحة من صديقنا، أُسيء فهمها.

واهًا على إمكانات الإنسان! على الأعمال الناقصة، تلك الأعمال ربما كانت الأهمَّ في زمننا، وتتألَّف من الفصليْن التاسع والثامن والثلاثين من الجزء الأول من ضونْ كِيخُوطي، ومقطع من الفصل الثاني والعشرين. أَعلم أن نظير هذا التأكيد يبدو سخافة؛ وأنَّ تبريرَ تلك «السخافة» هو الموضوع الأساس لهذه الملاحظة[١].

هناك نصان ذوا قيمة غير متساوية ألْهَماه ذلك المشروع. الأول هو ذلك المقطع الفيلولوجي لنُوڤالِيس -الذي يحمل رقم ٢,٠٠٥ في طبعة دْرِسْدِنْ- التي ترسم صورة لموضوع *التماهي الكُلّي* مع مؤلف بعينه. والثاني هو أحد تلك الكتب المُشوِّشَة التي تضع المسيح في شارع، أو هاملت في كَانِبْيِيرْ، أو ضُونْ كيخوطي في وُولْ سْتْرِيتْ. ومثل كل إنسان رفيع الذوق، كان مِنَار يكره ذلك التهريج عديم الفائدة، ولا يصلح -كما كان يقول- سوى لإثارة اللذة المبتَذَلة في المفارقة التاريخية أو (وهو أدهى) لكي يفتِننا بالفكرة الأولية التي مفادُها أن كل الحقب سَواءٌ، أو أنها مختلفة. ولكنَّ الأمْرَ الأكثر أهمية، ولو أنّ تنفيذه متناقض وسطحي، بدا له القصْدُ الشَّهير لِدُودِي: الجمْع في صورة واحدة هي *طَرْطَرِين*، بين النبيل العبقري، وحامل تُرسِه. . . واللذيْن لمّحا إلى أنَّ مِنَار كرّس حياته لكتابة كيخوطي معاصر، في افتراء منهما على ذكراه الجليّة.

لم يرغب مِنارْ في أن يؤلف كيخوطي آخر -وهي مسألة يسيرة- وإنما *الكيخوطي* ذاته. ولا فائدة في أنَّه لم يُفكِّر أبدا في أنْ يستنسخ

---

(١) كان قَصْدي الثانوي أيضا أن أضع رسما أوَّليا لصورة پْيير مِنار. لكن كيف أجرؤ على التنافس مع الصفحات الذهبية التي أُخْبِرتُ أنَّ بارونة بَكُورْ تهيئُها أو مع قلم الرصاص الرقيق والدقيق لكَارْلُوسْ هُورْكَاد؟

الأصل آليا؛ ولم يقصد نَسخه. لقد تمثَّل طموحه الرائع في أن يُنْتِج صفحات تتطابق -كلمةً كلمةً، وسطرًا فسطرًا- مع كتاب *الكيخوطي* لميغِل دِ سرڤانْتِس.

«إنَّ قصدي لا يعدو كونه مُدهشًا»، وَفق ما كتب لي يومَ ٣٠ ستمبر ١٩٣٤ من بَايُّونْ. «ذلك أنَّ الحدَّ النهائيَّ لبرهان لاهوتي أو مِتَافيزيقي -العالم الخارجي، أو الإله، أو المصادفة، أو الأشكال الكُلّيّة- ليس أقلَّ سابقيَّةً وشيوعا من روايتي الذائعة. إن الاختلاف الوحيد يتمثل في أن الفلاسفة ينشرون في مجلدات رائعة المراحلَ الوسيطة لمجموع أعمالهم، بينما أجدني أقرِّرُ تَضْييعَها». حقًّا، لم تَبْقَ لي ولو مُسوَّدة واحدة تشهد على ذلك العمل الذي استغرق مني أعواما.

كان المنهج الأولي الذي تخيَّله بسيطًا نسبيًّا. تَعلُّمُ الإسبانية جيّدا، والعودة إلى اعتناق الإيمان الكاثوليكي، ومُحاربة المُورُوس[1] أو محاربة الأتراك، ونسيان تاريخ أوربا بين سنَتي ١٦٠٢ و١٩١٨، وأنْ يَصِير ميغِلْ دِ سِرْڤانْتِس. لقد درس بْيِيرْ مِنَارْ ذاك الإجراء (أعْلَمُ أنه أحْكَم التصرُّفَ بوفاء في إسبانية القرن السابع عشر) لكنه نحَّاه لسهولَته، أو بالأحرى -قد يقول القارئ- لاستحالته. حَسنًا، لكنَّ المشروعَ -مُسبَّقا- كان مستحيلا ، ومن بين كلّ الوسائل المستحيلة لتحقيقها، كانت هذه الوسيلةُ الأقلَّ أهميّة. فأن يكون المرء في القرن العشرين روائيا شعبيا ينتمي إلى القرن السابع عشر بدا له تنقيصا. وبدا له أن يكون بِطريقة ما ثِرْڤانْتِس، ويبْلُغَ *الكيخوطي* أقلَّ صعوبةً -

(١) Moros أو المُورُوسْ اسم يُطلقُه الإسبان على المغاربة تارة وعلى عموم المسلمين تارة أخرى، ويُستعمل للتحقير أحيانا [المترجم].

وتبعا لذلك، أقل أهمية- من البَقاء على حال پْيِيرْ مِنَار وبلوغ *الكيخوطي*، عبر تجارب پْيِير مِنَار. (ذلك الاقتناع، بالمناسبة، جَعَله يُقصي التقديم الأتوبيوغرافي من الجزء الثاني من ضُونْ كِيخُوطي، ذلك أنَّ إدراج ذلك التقديم كان معناه ابتكار شخصية أخرى - ثِرڤانْتِس-، ولكنْ كذلك كان يُمكن أن يعني تقديم «الكيخوطي» تِبعا لتلك الشخصية، وليس لشخصية پْيِير مِنَار. وقد رفض الأخيرُ، بالطبع، ذلك الاستسهال). «أساسا، إن مهمتي ليست عسيرة» أقرأ في مكان آخر من الرِّسالة. «يَلزَمني أن أحيا مُؤبَّدا فحَسْبُ كي أُتمَّها». هل أبوح بأن عادتي أنْ أتخيَّل أنه أَتَمَّها، وأنني أقرأ *الكيخوطي* - *الكيخوطي* برُمَّته- كما لو مِنَار تصوَّره؟ ليالٍ قَبْلُ، وأنا أتصفَّحُ الفصل السادس والعشرين -الذي لم يُجرَّب من قِبَله أبدا- تعرَّفتُ أسلوبَ صديقنا، وكيفَ تردَّد صوته في هذه الجملة الاستثنائية: *حوريات الأنهار*، *و«إِكُو» المُؤلِمَة والندِيَّة*. لقد ذكّرني ذلك الجمع النّاجع بين نَعت أخلاقي وآخر ماديّ ببيت شعريّ لشكسبير ناقشناه ذات مساء:

حيث تُرْكِيٌّ خبيثٌ ومُعمَّم...

لماذا *الكيخوطي* تحديدا؟ قد يستفهم قارئُنا. قد يكون ذلك التفضيل مُتفهَّما، لو صدر عن إسباني؛ لكنَّ فهْمَه يستعصي، دون شك، لصدوره عن أحد الرَّمزيّين من «نِيم»، مُخلِصٍ أساسا لـ *Poe* پُو، الذي أنجب بُودْلِير، والذي أنجب مَالَارْمِي، والذي أنجب ڤالِري، والذي أنجب إِدْمُونْ تِسْتْ. وتُنير الرسالة المذكورة أعلاه الموضوع. إنَّ «الكيخوطي» يُوضِّح مِنَار «يهمني بشكل عميق، لكنه لا يبدو لي؛ كيف أقول الكلمة؟ مُحتَّما. لا أستطيع تخيُّل الكَوْن بِدون تَأَوُّه پُو:

أو بدون قصيدتَي *القارِب الثَّمل* أو *البَحَّار المُسنّ*، لكنني أعْرِفني قادرا على تخيله بدون *الكيخوطي*. (بالطبع، أنا أتحدث عن قدرتي الشخصية، وليس عن الدَّويّ التاريخيّ للأعمال الأدبية).

«الكيخوطي» كتابٌ عارض، *الكيخوطي* ليس ضروريًّا. بوُسعي أن أفكِّر مَليًّا في كتابته، وأستطيع أن أكتبه، بدون الوقوع في تحصيل حاصل. ربما قرأته برُمَّته في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عُمري. وبَعْدُ، أعدْتُ في اهتمام قراءةَ بعض الفصول، تلك التي لن أحاول قراءَتها، في الوقت الحاضر، على الأقل. درسْتُ المسرحِيّات القصيرة،[1] والهزليات، وGalatea غَلاطِيَا،[2] والروايات النموذجية[3]، والشاقَّ دون شك من *أعمال پِرْسِيلِسْ وسِخِيسْمُونْدَا*،[4] ورحلة *البَرْنَاسُو*[5].... إن ذكرايَ العامة عن *الكيخوطي*، التي بسَّطها النسيانُ وعدم الاهتمام، يُمكن أن تكافئ الصورة غير الدَّقيقة والسابقة لكتاب لم يُكتب. وبالإعلان عن تلك الصورة (التي لا أحد عاقلا يُمكنُه أنْ ينكرها عليَّ) لا مشاحّة في أن مشكلتي أصعب بكثير من مشكلة ثِرْڤانْتِس. إن سابقي اللطيف لم يتحاشَ إعانَة القدر: لقد شرع في تأليف العمل الأدبي الخالد على منوال *à la diable* الشيطان قليلًا، مَقُودا برتابة اللغة والخيال. من

---

(١) فواصل تمثيلية أو غنائية أو غيرها كانت تتخلَّل المسرحيات قديما [المترجم].

(٢) رواية رعوية لميغيل دِ ثِرڤانتس.

(٣) قصص لميغيل دِ ثرڤانْتِس.

(٤) آخر عمل روائي نشره ميغل دِ ثِرڤانتس سنة ١٦١٧.

(٥) رواية شعرية لميغل دِ ثرڤانتس نُشِرت سنة ١٦١٤.

جهتي، فقد اجتهدتُ في الواجب العجيب المتمثل في إعادة بناء عمله العفوي حرفيًّا. ويَحكُم لعبتي المتفرِّدة قانونان قُطبيّان. الأول يسمح لي بأن أجرِّب تنويعات ذات نمط شكلي أو نفسي؛ والثاني يُجبرني على التضحية بها في سبيل «الأصلي» وعلى أنْ أُبرهن بصيغة لا تُفنَّد على تلك الإبادة... وينبغي أن يُضاف إلى ذينك المانعيْن مانعٌ آخَرُ خَلقيّ. ذلك أنَّ تأليف *الكيخوطي* في بدايات القرن السابع عشر كانت مهمة معقولة، وضرورية، وربما حتميَّة؛ وفي بدايات القرن العشرين، فإنها تكاد تكون مهمة مستحيلة. وليس عبثا أن تكون قد مرَّتْ ثلاثمائة سنة، مُثْقَلة بوقائع شديدة التعقيد، ومن بينها، كي نشير إلى واقعة واحدة فقط: «*الكيخوطي* نفسه.»

وعلى الرُّغم من تلك العوائق الثلاثة، فإن مَقطع *الكيخوطي* لِمنَار أنْفع من *الكيخوطي* لثرفانتس، لأن الأخير من عالَم خشن، وهو يُعارض قصصَ الفرسان بالواقع الريفي الفقير في بلده؛ يختار مِنَار مِثل «واقع» له بَلَدَ كارْمِنْ خلال قرن معْركةِ Lepanto لِپَانْتُو[1] وLope لُوپِّي.[2] أيُّ مُبالَغات لن تكون قد نصحتْ بذلك الاختيار مُورِيسَ بَارِّيسْ أو الدكتورَ رُوذْرِيغِزْ لَارِّيطَا! لقد تحاشاها مِنار بمنتهى التصرف الطبيعي. ولا وجود في أثره الأدبي لما له علاقة بالغجر، ولا الغُزاة، ولا المتصوفة، ولا بِفِلِيپِّي الثاني، ولا الإعدامات. كان يتجاهل أو يُحرِّم اللونَ المَحليَّ، ويشير ذاك الازدراء إلى وجهة

(١) هي المعركة البحرية التي دارت قرب المدينة اليونانية نَفْپاكْتُوس، سنة ١٥٧١، وتواجَه فيها العثمانيون مع التحالف المسيحي، وشارك فيها ميغل دِ ثرڤانتيس، ووقع فيها أسيرا لدى الأتراك، فسجنوه في الجزائر [المترجم].

(٢) Lope de Vega لوپي دِ ڤيغَا (١٥٦٢-١٦٣٥) أشهر شاعر مسرحي في العصر الذهبي الإسباني، له أعمال أدبية عديدة [المترجم].

جديدة للرواية التاريخية، ويدين ذلك الازدراءُ «سالامبو»، دونما قابلية للاستئناف.

إن اعتبار تلك الفصول معزولة ليس بأقلَّ إدهاشا. وعلى سبيل المثال، لننظر في الفصل ٣٨ من الجزء الأول، «الذي يعالج الخطاب العجيب الذي ألقاه ضُونْ كيخوطي حول الأسلحة والآداب». المعروف أنّ ضون كيخوطي (مثل كِفِدُو في مقطع مماثل، ولاحق على كتاب *La hora de todos* [ساعة الجميع]) أصدر حكمًا على الآداب وفي صالح الأسلحة. لقد كان ثرڤانتس عسكريا قديما: لهذا فإنّ لحكمه تفسيرا. لكنْ ما معنى أن يعودَ ضُونْ كيخوطي الذي ألَّفه مِنَار -الرجل الذي عاصَر كتابَ «خيانة الكَتَبة» وبرتراند راسل- إلى ارتكاب تلك السفسطات السديمية! لقد رأت السيدة بَاشْلِي فيها تبعية رائعة ونمطية من قِبَل المؤلِّف لنفسية البطل؛ ورأى فيها آخرون (دونما نظر ثاقب) استنساخا *للكيخوطي*؛ أمَّا بَارُونَة دُ بَكُور، فقد رأت أثَرَ نيتشه. وبخصوص هذا التأويل الثالث (الذي أَحْكُم بأنه لا يُفنَّد) لست أدري إنْ كنت سأجرؤ على إضافة تأويل رابع، وهو تأويل يتوافق جيدا مع ما يكاد يكون التواضُعَ الرَّباني عند پْيير مِنَار: تعوُّدُه الخانِع أوالساخر على إشاعة أفكار كانت العكس الخالص للتي يُفضِّلها. (لِنتذكر مرّة أخرى شتْمَه پُولْ ڤالِرِي في الصفحة العابرة من المجلة الفوق-واقعية لجَاكْ رُبُولْ). لأنّ نصَّيْ ثِرڤانتس ومِنار هما لُغَويًّا مُتطابِقان، لكن الثاني يكاد يكون أغنى بلا حد. (وأكثر غموضا، سيقول منتقصوه؛ لكنّ الغموضَ ثَراءٌ).

ومن باب الإظهار مقارَنَةُ ضُونْ كيخوطي من تأليف مِنار بضُونْ كيخوطي من تأليف ثِرڤانْتِس. فالأخير، مثلا، كتب (في ضُونْ كيخوطي، الجزءَ الأول، الفصل التاسع) النصّ التالي:

إنَّ الحقيقة، التي أُمُّها التاريخ، هي منافِسُ الزَّمنِ، مستودَع الأفعال، والشاهد على الماضي، وتنبيه الحاضر وبصيرُته، وتحْذير مِمّا سيأتي.

لقد حُرِّر النصُّ في القرن السابع عشر، حُرِّر من قِبل «العبقري العلماني» ثرڤانتس، وهذا التَّعداد هو مجرَّد مديحٌ بلاغي للتاريخ. وفي المقابل، كتبَ مِنَار:

إنَّ الحقيقة، التي أُمُّها التاريخ، هي منافِسُ الزَّمنِ، مستودَع الأفعال، والشاهد على الماضي، وتنبيه الحاضر وبصيرُته، وتحذير مِمّا سيأتي.

التاريخُ أمُّ الحقيقة؛ هذه الفكرة مُدهِشة. إنَّ مِنَار، الذي عاصر وِلْيامْ جِيمْس، لا يُعرِّف التاريخ بصفته تمحيصا في الواقع، وإنما باعتباره أصْلَه، فالحقيقة التاريخيَّة، بالنسبة إليه، ليست ما حدث؛ بل ما نَحكُم عليه بأنه قد حَدث. إنَّ الجُملتيْن الأخيرتيْن: *وتنبيه الحاضر وبصيرُته، وتحذير مِمّا سيأتي.* هما جملتان براغماتيتان بوقاحة. كذلك يُعايَن التبايُن بين الأسلوبين؛ فالأسلوب العتيق لدى مِنَار - أجنبي في الأخير- يُعاني بَعض التصنُّع، وليس كذلك أسلوب المؤلِّف المتقدِّم، الذي يتصرَّف بطلاقة في اللغة الإسبانية الرائجة في عصره.

لا وجود لتمرين عقلي يكون في النهاية غيرَ ذي فائدة. يكون مَذهب فلسفي في البداية وصفًا للكون مُمكنٌ تصديقُه؛ وبمرور السنين يغدو مجرَّد فصْل من كتاب -هذا إذا لم يصر فقرة أو اسْمًا- في تاريخ الفلسفة. وفي الأدب، يكون انتهاء الصلاحية ذاك اشتهارا. إن *الكيخوطي*، وفق ما قال لي مِنار «كان قبل كلّ شيء كتابًا مُمتِعا؛ وهو الآن مناسَبة لشرب أنخاب وطنية، وللغطرسة النحوية، ولطَبعات فاحشة وفاخرة. والمجْدُ سوءُ فَهم، وربما أسْوَأُ سوء فهم.»

لا جديد في تلك التثبُّتات العدمية؛ التي يتمثَّل الفريد فيها في القرار الذي اشتقَّه پْيير مِنَار من تلك التَّثبُّتات. فقد قرَّ قرارُه على أن يتقدَّم الزَّهوَ الذي ينتظر عناءَ الإنْسان؛ وبادر إلى مشروع معقَّد جدا، وتافه مُسبقًا، فانقطع بتدقيقاته وسهَرِه إلى أنْ يُكرِّر في لغة أجنبية كتابا موجودا مُسبقًا، فضاعف المُسوَّدات؛ وصحَّح في عناد، ومزَّق آلاف الصفحات المكتوبة بخط اليد[١]. لم يسمحْ بأنْ تُفحَص، وعُنِي بألَّا تُخَلَّد بعده. وسُدًى كان سعيي إلى إعادة بنائها.

تبصَّرتُ بأنه من المشروع أن أرى في *الكيخوطي* «النهائي» نوعًا من الطِّرس، تُستَشفُّ فيه لمحاتٌ -دقيقة، ولكنْ ليست بالعصية على فكِّ شفرتها- من الكتابة «السابقة» لِصَديقنا. وللأسف، وحْدَه پْيير مِنَار ثانٍ، يعكف على عمل الأول، يُمكنُه أنْ ينبش ويبْعثَ تلك الملاحم الطروادية...

وكتبَ لي أيضا: «إنَّ التفكير والتحليل والابتكارَ ليستْ أفعالا شاذَّة، إنها التنفُّسُ العادي للذكاء. وتمجيدُ الإتمامِ العَرَضي لتلك الوظيفة، واكتنازُ أفكار الآخرين القديمة والأجنبية، والتذكيرُ في ذهول الكافر بما فكَّر فيه *الدُّكْتور أُنيڤرْسَاليس* هو إقرارٌ بخمولِنا وهمجيتنا. يَلْزم أن يكون كلُّ إنسانٍ قادرا على التأقلم مع كلِّ الأفكار، وأتفهَّمُ أنه سيكون كذلك في المستقبل».

مِنَار، من جهته، (ربما عن غير قصد منه) أغْنَى -عَبر تقنية جديدة- فنَّ القراءة الموقوف والمرتبِك: تِقنية المفارقة الزمنية

---

(١) أتذكر دفاتره ذات المربَّعات، وتشطيباته السوداء، ورموزَه الطِّباعية المُميِّزة، وكتابتَه الشبيهة بِالحشرات. كان يروق له، في المساءات، أن يتمشّى في ضواحي نِيمْ؛ واعتاد أن يحمل معه دفترا وأنْ يوقد نارًا جذلة.

المتعمَّدة والاختصاصات الخاطئة. وتحفِّزنا تلك التقنية لتطبيقها إلى ما لانهاية على أن نجوب صفحات «الأوديسة» وكأنها لاحقة على «الإليادة»، وأنْ نقرأ كتاب *بستان القنطور* للسيدة هُنْرِي بَاشُلْيِي كما لو أنه للسيدة هُنْرِي باشُلِيِي. تُعمِّر تلك التقنيةُ أهْدَأَ الكتب بالمغامرات. ألن يكون عزْوُ كتاب «محاكاة المسيح» إلى لُوِيسْ فِرْدِينَانْ سِلِينْ أو إلى جِيْمْس جُويْسْ تجديدا كافيا لتلك الإنذارات الروحية الباهتة؟

نيم، ١٩٣٩

الأنقاض الدائِريّة

وإذا تخلى عن الحُلم بك. . .

Through the Looking-Glass, VI

لا أحَد رآه يُغادر الزورق في الليلة الليلاء، لا أحد رأى زورق الخيزران يغوص في الوَحل المُقدَّس، لكن بعد أيام قلائل لا أحد كان يجهل أنّ الرجل الصموتَ وَفَد من الجنوب، وأن موطنه كان إحدى البلدات التي في أعالي النهر، عند خاصرة الجبل العنيفة، حيث لغة السِّند ليست ملوَّثة بالإغريقية، وحيث الجذام غير شائع. الأكيد هو أن الرَّجل الرَّماديّ قَبَّل الوَحَل، وارتقى الضِّفة دون أن يُنحّي (احتمالا، دون إحساس) النجيليّات الجارحة التي تُمزّق جِلده، وجرجر جسَده دائخا ونازفا، إلى أنْ بلغ الحِمى الدائري الذي يُتوِّجُه نمرٌ أو حصان من حجارة، كان له ذات مرّة لونُ النار، والآن له لون الرَّماد. ذاك الحمى الدائري هو معبَد الْتَهمتْه الحرائقُ القديمة، ودنّسه الدَّغل المستنقعي الذي يتقبل إلهُه تشريفا من البشر. تمدَّد الغريب تحت قاعدة التمثال. أيقظتْهُ الشمس العالية. تحقَّق دون اندهاش من أن الجراح قد التأمت؛ أغمض العينيْن الشّاحبتيْن وغفا، ليس بسبب وهَن الجسد، بل بسبب إصرار الإرادة. كان يَعْلم أن ذاك المَعبد هو

ما كانت تلتمسه نيّتُه التي لا تَلين؛ كان يَعْلم أن الأشجار المستمرّة الانتشار لم تفلح، عند سافلة النهر، في خنق أنقاض مَعبَد آخر ملائم، هو كذلك لآلهة أُحرقَتْ وماتت؛ وكان يَعْلم أنّ واجبَه الفوريّ كان هو النوم. حوالي منتصف الليل، أيْقَظه صراخ لا يؤاسى. نبَّهتْه آثار أقدام حافية، وبعض التين وقُلّةٌ إلى أن رجال المنطقة قد تجسّسوا في احترام على نومه، وأنهم كانوا قد التمسوا حمايَتَه أو خافوا سِحرَه. أحسَّ ببرد الخوف، وبحث في السور المتداعي عن مشكاة لَحْدِيَّة وتغطّى بأوراق نباتات مجهولة.

النيّة التي كانت تقودُه لم تكن مستحيلة، ولو أنها كانت بالتأكيد خارقة للعادة. رغِبَ في أن يحلم برَجُل: رغِب في أن يَحلُم به في تمامه الدقيق، وأن يَفرِضه على الواقع. ذاك المشروع السحري كان قد استنفد الفضاء الكامل لروحه؛ فلو أنّ شخصا قد سأله عن اسمه الخاص أو عن أي لمحة في حياته السابقة، لما كان قد أصاب في الإجابة. يُلائمه المعبد المهجور والمُحطَّم، لأنه كان مُصغَّرا لعالَم مرئيّ؛ وقُرب الحطابين أيضا، لأن هؤلاء كانوا يتكفَّلون بتلبية حاجياته الغذائية البسيطة. الأرز وخَراجُ الفواكه كان قُوتًا كافيا لجسده، المنصرف إلى المهمة الوحيدة المتمثلة في النوم والحلم.

في البداية، كانت الأحلام فوضوية؛ بعد ذلك بقليل، صارت ذات طبيعة جدلية. كان الغريب يحلم بذاته في مركز مدرَّج دائري كان بصيغة ما هو المَعبَد المُحترِق: سُحُب من تلاميذ ساكتين كانت تُزعِجُ المدرّجات؛ وجوه الأخيرين كانت تتدلّى من مسافة قرون كثيرة، ومن علوّ نجميّ، لكنها كانت في منتهى الدقة. كان الرَّجل يُملي عليهم دروسا في التشريح، ووصف الكون، والسحر: وكانت الوجوه تُصغي في لهفة وتسعى إلى الإجابة بالفهم، كما لو أنها تتنبّأ

بأهمية ذلك الاختبار، الذي قد يُخلِّص أحَدَهم من شَرْطه بصفته مَظهَرا فارغا، ويُلحقه بالعالَم الحقيقي. الرَّجل، في نومه وتهجُّده، كان يتأمَّل إجابات أشباحِه، ولم يكن يترك ذاتَه تنخدع بالدّجالين، كان يحزر ذكاءً متناميا في بعض التحيُّر، ويبحث عن روح تستحق أن تُسهِم في الكون.

بعد انقضاء تسع ليالٍ أو عشر، فهِم بنوع من المرارة أنْ لا شيء يُمكن أن يُنتَظر من أولئك التلاميذ الذين يَقبَلون في استكانة مَذهبَه، وبالتأكيد من أولئك الذين يُخاطرون، أحيانا، بتناقض معقول. الأوائل، ولو أنهم خَليقون بالحب والعطف الكبير، لم يكن بمقدورهم الارتقاء إلى مرتبة أفراد؛ بينما الأواخرُ وُجِدوا من قَبلُ بوقت قليلا أكثر. ذات مساء (الآن أيضا المساءات كانت روافدَ للحُلم، الآن هو لا يحتجب سوى ساعتيْن عند الفجر) سرَّح إلى الأبد تلاميذَ المدرسة الشاسعة والخادعة، واقتصر على تلميذ واحد. كان فتى صموتا، وعبوسا، وعنيدا أحيانا، ذا قسَمات حادّة تُكرِّر لمحات حالِمه. لم يُشوِّشْ عليه لزمن طويل الإقصاءُ الفُجائيّ لزُملاء الدراسة؛ وتقدُّمُه، وفي غضون دروس خاصة قليلة، أمْكَنه أن يُدهشَ المُعلِّمَ. ومع ذلك، حلَّتِ الكارثة. ذات يوم، طفا الرَّجلِ من الحُلم كما لو من صحراء لزجة، نظر إلى نور المساء التافه، فأُرتِج عليه، في أول الأمر، لأنه تخيَّله الْفجرَ، وفهِم بأنه لم يكن قد حلُم. طيلة تلك الليلة كلِّها وطيلة النهار، انقضّ عليه صفاءُ الحُلمِ غيرُ المُحتمَل. رغِب في أنْ يستكشف الدَّغل، أن يُنهِك ذاتَه؛ وبمجرَّد دخولِه بين نبات الحَرْقَل باغتَتْه هبَّاتٌ من الحُلم الواهن، تُخالطها رؤى إلى زوال من النمط غير المكتمل: غير المفيد. أراد أن يَلُمّ من بالمدرسة، وبمجرد أن نبس بكلمات وجيزة لاستنهاضهم، تشوّهت

المدرسة، وامَّحتْ. أثناء سهره الدائم تقريبا، كانت دموع الغضب تحرق العينيْن العجوزيْن.

لقد فَهِم أن الإصرار على تشكيل المادة غير المنسجمة والمُدوّخة، التي تتألّف منها الأحلام هي المهمة الأصعب التي يُمكن أن يقترفَها رجُل، حتى لو أنَّه تبصَّر بنفاذ كلَّ أسرار النظام الأعلى والنظام الأدنى: المهمة أعْسر من فتْل حبل من رمل أو سَكِّ عملة للرّيح التي لا وجه لها. فهِم أن فشلا أوَّليّا كان حتميّا. وأقسَم أنْ ينسى الوهم الهائل الذي أضلَّه في البداية، وبحث عن منهج عمل آخَرَ. وقبل أنْ يتدرَّب عليه، أفْرَد شهرا ليستردّ قواه التي كان قد بدَّدها الهذَيانُ. لقد هجَر كلَّ إصرار على الحُلُم، وكاد يكون عملُه المُباشر تمكُّنَه من أن ينام فترةً معقولة من اليوم. إن المرات النادرة التي حلُم فيها، خلال تلك الفترة، لم يتوقَّفْ فيها عند الأحلام. ولكي يستأنف المهمة، انتظرَ اكتمالَ قرص البدر. وبعد ذلك، في المساء، تطهَّر في مياه النهر، وسجد للآلهة الكوكبية، وتلفَّظ بالمقاطع المسموح بها من اسم قدير ونام. وعلى الفور، تقريبا، حلُم بقلب ينبض.

حلُمَ به نشيطا، ودافئا، وسريًّا، بحجم قبضة يد مشدودة، وبلون قانيٍّ في ظُلَيل جسد بشري لمّا يمتلك وجها ولا جنسا بعد؛ بتدقيق حُبٍّ حلُمَ به، طيلة أربع عشرة ليلة جليّة. كلَّ ليلة، كان يُدركُه بوضوح أكبر. لم يكنْ يمسّه: كان يكتفي بأن يشهد على ذلك، وأنْ يُراقِبه، وربما أن يُصوِّبه بالنَّظر. كان يُدرِكه، ويَعيشه، انطلاقا من مسافات كثيرة ومن زوايا عديدة. في الليلة الرابعة عشرة، جسّ الشّريان الرِّئوي بالسّبّابة، ثمّ القلبَ كلَّه، من الخارج والداخل. أرضاه الفحص. وعَمْدا، لم يحلم طيلة ليلة: وبعد ذلك أمسك

القلب، واستحضر اسم كوكب، وشرع في رؤية عضو آخر من الأعضاء الرئيسة. وقبل انقضاء عام، كان قد بلغ إلى الهيكل العظمي، وإلى الجَفنيْن. وربما كان الشَّعَرُ، الذي لا عدّ له، المهمةَ الأصعبَ. حَلُم بإنسان كامل، وبفتى، لكنّ هذا الأخير كان لا يقف، ولا يتكلّم، ولا يستطيع فتحَ عينيْه. وليلة تلو ليلة، كان الرَّجل يحلم به نائما.

في نظرية نشأة الكون الغنوصية، يعجن خالقو الكونِ آدَمَ أحْمَرَ لا يستطيع الوقوف على قدميه؛ كان آدمُ الحُلم، الذي صنعته ليالي الساحر، غايةً في عدم الحذق، والخشونة والبدائية مثلما آدم ذاك الذي من تراب. وذات عشية، كاد الرَّجل يُحطّم كلَّ عمله، لكنه ندِم. (كان أفيد له لو أنه كان قد حطَّمه.) وباستنفاد النذور المقدّمة إلى آلهة التراب والنهر، ارتمى عند قَائمتي التمثال، الذي ربما كان نمِرا، وربما مُهرا، وابتهل إغاثَتَه المجهولة. إبان ذلك الغروب، حلُم بالتمثال. حلُم به حيًّا، مرتجِفا: لم يكن لقيطا فظيعا لنمر ومهر، بل كان في الوقت ذاته ذيْنك المخلوقيْن العنيفيْن، وثوْرا كذلك، ووردة، وعاصفة. كشف له ذلك الإله المتعدِّد أنّ اسمَه الدنيويّ هو فْويغُو [نار]، الذي في ذلك المَعْبَد الدائري (وفي معابد أخرى مماثلة) قد قُدِّمَت إليه قرابين وعبادات، وأنه سِحريًّا سيبعث الروح في الشبح المحلوم به، بحيث إنّ كل المخلوقات، باستثناء فْويغُو نفسِه والمحلوم به، سيتخيَّلونه إنسانا من لحم وعظم. وأخبرَه آمِرًا أنه بمجرِّد أن يتعلَّم الطقوس، سيُبعث إلى المعبد الآخر المحطَّم، الذي لا تزال أهراماتُه مستمرَّةً في سافلة النهر، كي يُمجِّده صوتٌ ما في ذلك البناء المقفر. أثناء نوم الرجل الذي كان يحلُم، استيقظَ المحلومُ به.

نفَّذ الساحر تلك الأوامر. لقد أَفْرَد مهلةً (حوتْ عاميْن أخيرا) ليكشف له أسرارَ الكون وعبادة النار. وبذريعة الحاجة التربوية، كان يُمدِّد يوميّا الساعات المخصَّصة للحلم. كذلك أعاد صناعة الكتف اليُمنى، ربما المَعِيبة. أحيانا، كان يُقلِقُه انطباع بأنّه كلَّ ذاكَ، كان قد حدث فعلا. . . وعموما، كانت أيامه سعيدة؛ وعند إغماضه العينيْن كان يُفكِّر: *الآن سأكون مع ابني*. أو بنُدرةٍ أكثرَ: *الابنُ الذي أنجبتُ ينتظرني، ولن يوجَد إن لم أذهبْ*.

تدريجيا، كان يُعوِّده على الواقع. مرَّةً أمَرَه أن يرفع علَمًا على قمة بعيدة. وفي اليوم الآخَر، كان العلَمُ يُرفرف في القمة. أنجز تجارب أخرى مماثلة، في كل مرَّة تكون أكثرَ جراءةً. وفَهِم بقدر من المرارة أنّ ابنَه كان جاهزا لكي يُولَد -وربما بفارغ الصبر. في تلك الليلة، قبَّله للمرَّة الأولى، وأرسلَه إلى المعبَد الآخَر، الذي كانتْ أنقاضُه تتلألأ بيضاء في سافلة النهر، مسافةَ فراسخَ كثيرة من الدغل المُشتبِك والمستنقع. قَبْل ذلك (كي لا يَعْلم أبدا أنه كان شبحا، ولكي يعتقد أنه إنسان مثل الآخرين) ألْهَمه النسيانَ الكليّ لأعوامِ تعلُّمِه.

ظلَّ انتصارُه وسِلمه مُكدَّريْن بالسأم. أثناءَ أوقات الغروب والفجر، كان يسجد أمام الشَّكل الحجريّ، ربما كان يتخيَّل أن ابنَه غير الحقيقي كان يُنفِّذ طقوسا مطابقة، في أنقاض دائرية أخرى، في سافلة النهر؛ وأنه لا يَحلُم ليلا، أو يحلُم مثلما يفعل كل الناس. أدركَ بقدر من الشحوب أصواتَ الكونِ وأشكالَه: وكان الابن الغائب يتغذى من ذلك الإنقاص من روحه. الهدف من حياته كان قد اكتمل؛ وظلّ الرجل في حال من الانخطاف. وبعد انقضاء وقت يُفضِّل بعضُ رواة حكايته احتسابَه بالسنوات، وآخَرون بخمس

سنوات، أيقظه مُجذِّفان في منتصف الليل: لم يتمكَّن من رؤية وجْهَيْهما، لكنهما حدَّثاه عن رجُل سِحريّ في مَعبَد في الشَّمال، قادِر على أن يدوسَ النار دون أنْ يحترقَ. فجأة، تذكَّر الساحر كلماتِ الرَّب. تذكَّر أنَّ من بين كلِّ المخلوقات التي تشكِّل مدار الفَلَك، كان فْويغُو المخلوق الوحيد الذي يَعْلم أنّ ابنَه كان شبَحًا. تلك الذّكرى، المُهدِّئة في البداية، انتهى بها الأمر مُعذِّبةً له. خشي أن يتأمَّل ابنُه في تلك الحظوة غير الطبيعية، وأنْ يكتشف بصيغة ما حالَه بصفته مجرَّد مُصطَنَع، وأنه ليس إنسانا، وأنه ظِلٌّ للحُلُم في إنسان آخر! كل أب يُعنى بالأبناء الذين أنجب (الذين سمَح بقدومهم) في مجرّد لحظة ارتباك أو سعادة؛ فطبيعي أن يخاف الساحرُ على مستقبَل ذلك الابن، وأن يُفكّر حشًا مُقابِل حشا وقَسمة مُقابل قسمة، في ألف ليلة وليلة سرّية.

كان حدُّ تأملاته فُجائيا، لكنّ بعض العلامات بشَّرته بها. أوَّلا (بعد انتهاء موسم جَفاف طويل) قدوم غمامة قصية من تَلّ، خفيفةٍ مثل طائر؛ ثم جِهةَ الجنوب، السماء التي كانت بلون متورِّد كلِثّة النمور الرقطاء؛ ثم سُحُب الدخان التي أصْدأتْ معدنَ الليالي؛ وبعدُ الفرار الهلِعُ للوحوش. لأن ما حدث منذ قرون كثيرة تكرَّر. أنقاضُ مَعبد الإله فْويغو دَمّرتها النارُ. في فجر بلا طيور، رأى الساحِرُ الحريقَ المُركَّز يحوِّم حول الأسوار. وللحظة، فكَّر في أنْ يلوذ بالمياه، لكنه فهم لاحقا أن الموتَ جاء لتتويج شيخوخته وليُعفِيَه من أعماله. مشى متحدِّيا مِزَق النار. لم تعضّ جسدَه هذه الأخيرة، بل لاطَفتْه وغمَرته دون دفء ودون إحراق. بتخفيف، وتواضع، وفزع، فهِم أنه كان تجلِّيًا أيضا، وأن آخَر كان يحلُم به.

اليانصيب في بابيلونيا

مثلما كل رجال بابيلونيا، كنتُ والِيًا؛ ومثلما الجميع، كنتُ عبدا؛ كذلك عَرَفتُ السلطة المطلقة، والخِزي، والسجون. أُنْظُروا: يدي اليُمنى تَنْقُصها السَّبابةُ. انْظُروا: عَبْر هذه المِزقة في السُّترة يُرى في بطني وشْمٌ قِرمِزيّ: إنه الرَّمز الثاني، بِيتْ[1]. هذا الحرف، في الليالي مكتملة البدر، يَمنحني سلطة على الرجال الذين علامَتُهم حرف چيمِل[2]، لكنه يجعلُني تابعا إلى مَن علامتُهم *أَلِف*، الذين في الليالي غير المُقمرة يَلْزَمُهم أنْ يُذعِنوا لحاملي علامة *چِيمِل*. في شفق الفجر، في قبو، نحَرتُ قُبالة حجر أسْوَد ثيرانا مُقدَّسة. طيلة سنة قمريَّة، أُعلنْتُ غيْرَ مرئيٍّ: كنتُ أصرخُ ولا يُرَدُّ عليَّ، كنتُ أسْرقُ الخُبز ولم يكن عُنقي يُضْرب. لقد عَرَفتُ ما كان الإغريق يجهلونه: الارتياب. في غرفة من البرونز، قُبالةَ المنديل الهادئ للخانق، كان الأمل وفيًّا لي؛ وفي نهر اللَّذاذات، كان الذُّعر. يحكي هيرقليطس البيثيني باندهاش أنّ فيثاغوراس كان يتذكَّر أنه كان بيروس وقبلَه أوربوس، وقبل ذلك شخصا ما من الفانين؛ ولكي أتذكَّر تقلُّباتٍ مماثلة أنا لا أُجبر على اللجوء إلى الموت ولا حتى إلى الخداع.

---

(١) الحرف الثاني في الأبجدية العبرية، وهو يُقابل (ب) Beth في العربية.

(٢) الحرف الثالث في الأبجدية العبرية، وهو يُقابل (ج) Ghimel المصرية في العربية.

أنا مَدين بذلك التنوع الفظيع تقريبا إلى مؤسَّسة تجهلُها جمهورياتٌ أخرى، أو التي تَعمَل فيها بصيغة غير كاملة أو سريَّة: اليانصيب. أنا لم أستقصِ تاريخَها؛ أعْلَمُ أنَّ السَّحَرة لا يتوصَّلون إلى أنْ يتَّفقوا فيما بينهم؛ وأَعْلَم عن أهدافهم المقتدِرة ما يُمكن أن يَعرِف عن القمر الرَّجُلُ غيرُ الضليع في علم التنجيم. أنا من بلد يُصيب بالدّوار حيث اليانصيب جزء أساسي من الواقع: إلى غاية يومنا هذا، لم أُفكِّر فيه أيضا مثلما لم أفكِّر في سلوك الآلهة الذي تتعذَّر قراءتُه، أو في سلوك قلبي. الآن، وأنا بعيد عن بابيلونيا وعاداتها الحبيبة، أفكِّر بقدر من الاندهاش في اليانصيب وفي الحدوس التجديفية التي يُهَمْهم بها الرجال الملثَّمون عند الشفق.

حكى أبي أنه قديما -هل هي مسألة قرون أم أعوام؟ -كان اليانصيب في بابيلونيا لعبة ذات طبيعة عامِّية. حكى (أَجْهَلُ إن كان الأمر حقيقيا) أنّ الحَلّاقين كانوا يتعاملون بنقود برونزية من عِظام أو بالرَّقّ المُزيَّن بالرموز. وفي واضحة النهار، كانتْ قُرعة تُسحَب: وكان المحظوظون يتلقَّون، دونما أي مُحالفة من الحظ، قطعا نقديّة مسكوكةً فضَّةً. الإجراء كان أوَّليا، مثلما تَرَون.

بالطبع، فشلت تلك «اليانصيبات»، لأن فضيلتها الأخلاقية كانت منعدِمة، ولأنها لم تكن تتجه إلى كل قُدرات الإنسان: إلى أَمَله فقط. وأمام عدم الاكتراث العمومي، شرع المتاجرون الذي أسسوا تلك «اليانصيبات» في خسارة المال. جرَّب أحَدُهم إصلاحا ما: دسُّ قلة من الحظوظ المضادَّة في إحصاء الأرقام الموافقة. بوساطة ذلك الإصلاح، جرَّب مُقتَنو المستطيلات المُرقَّمة الحَظَّ المُضاعَف لرِبح مَبْلَغ ولدفع ذعيرة تكون مرتفعة أحيانا. أيقظَتْ تلك المجازَفة الخفيفة (مقابل كل ثلاثين رقما موافقا كان هناك رقم مشؤوم) اهتمامَ

الجمهور، مثلما هو طبيعي. تعاطى البابيلونيون اللَّعِب. لقد اعتُبِر جَبانًا وصغيرَ النفس من لا يقتني حظوظا. ومع مرور الوقت، تضاعَف ذلك الازدراء المُبرَّر. كان الذي لا يلعبُ يُحتَقَر، لكنّ الخاسرين الذين كانوا يدفعون الذَّعيرة كانوا يُحتَقرون هم أيضا. لذلك كان على *الشركة* (هكذا شُرِع في تسميتها آنذاك) أنْ تسهر على رعاية الفائزين، الذين لا يستطيعون استخلاص الجوائز، إنْ نَقُص في الصناديق مَبلغ الذعائر الكُلّي تقريبا. رفعت *الشركة* دعوى قضائية على الخاسرين: حكم عليهم القاضي بأداء الذعيرة الأصلية والمصاريف أو بأيام في السجن. اختاروا جميعُهم السجن، لكي يغشّوا *الشركة*. من ذلك التبجُّح الذي ميَّز قِلَّةً منهم وُلِدت السلطة المطلقة *للشَّركة*: قيمَتُها الكنسية والغيبية.

بعد ذلك بوقت قليل، تناست تقاريرُ القُرعات تَعداد الذّعائر، واقتصرت على نشر أيام السجن التي كان يُعيِّنها كلُّ رقم مُضاد. ذلك الاقتضاب الذي يكاد يكون غير مرئيّ، كان ذا أهمّية رئيسة. *كان الظهور الأوَّلَ في اليانصيب لعناصر غير مالية*. كان النجاح كبيرا، حتى إن *الشركة* بإلحاح عليها من قِبَل اللاعبين ألْفتَ نفسَها مُضطرَّةً إلى الزيادة في الأرقام المُضادَّة.

لا أحد يجهل أن شعب بابيلونيا مُخلِص جدا للمنطق، وحتى للتماثل. كان من عدم الانسجام أن تُحتسَب الأرقام المحظوظة قطعا نقدية كاملةً بوضوح، وتُحتَسب الأيام المنحوسةُ أياما ولياليَ سجنا. وقضى بعضُ الأخلاقيين بأن امتلاك نقود لا يُفضي إلى السّعادة دوما، وأنّ أشكالا أخرى من الهناء تكون تقريبا أكثر مُباشَرة.

وهناك قلق آخر انتشر في الأحياء الوضيعة. ذلك أن أعضاء مَجمع الكهنوتيين كانوا يُضاعِفون المراهَنات، وكانوا يستمتعون بكل

تقلُّبات الرعب والأمل؛ وكان الفقراء (في حسد معقول أو لا مناص منه) يَعلمون أنهم مقصيُّون من ذاك الذهاب والإياب، اللذيذ والمعلوم علانيةً. لقد ألهم التشوُّقُ الحصيف إلى أن يُسهِم الجميع، فقراءَ وأغنياء، بالتساوي في اليانصيب، اضطرابا ساخطا، لم تُشوِّش السِّنون على وضوح ذكراه. لم يفهم بعض العنيدين (أو أوهموا بعدم الفهم) أن الأمر يتعلق بنظام جديد، وبمرحلة تاريخية ضرورية. . .لقد سرق عبدٌ ورقة قرمزية، وجعله الاقتراعُ جَديرا بأنْ يُحْرَق لِسانُه. وقد حدَّدت مدوَّنة المبادئ تلك العقوبة نفسها في حق من يسرق ورقة، وأقام بعض البابلونيين الحجَّة على أنه يستحق الكَيَّ بالحديد المتوهِّج، بِصِفته سارقا؛ ورأى آخرون أكثرُ شهامةً أن الجّلاد مُلزَم بتطبيق القانون، لأن الحظّ كان قد قدَّر ذلك كذلك. . . حدثت اضطرابات، وكثير من السفح المؤسِف للدماء؛ لكن الناس البابلونيين فرضوا إرادتَهم أخيرا، مُعاكِسين معارضةَ الأغنياء. حقَّق الشعب غاياته الكريمة بكاملها. في المقام الأول، نجح في أن تَقبَل *الشّركةُ* بجمع السلطة العمومية. (ذلك التوحيد كان ضروريا، نظرا لشسوع وتعقُّد العمليات الجديدة). وفي المقام الثاني، نجح في أن يكون اليانصيب سِرّيا، ومجانيا، وعامّا. وهكذا أُلغِيَ البيع الاسترزاقي للحظوظ. وبفعل التّفقُّه في أسرار الإله *بَعْل*، صار كل رجل حر يُسهم تلقائيا في القرعات المقدَّسة، التي كانت تُلعب في متاهات الإله كلَّ ستين ليلة، والتي تحدِّد مصيرَه إلى غاية اللعبة الأخرى. كانت العواقب تفوق الحصر، ذلك أن لعبة فائزة قد تحفز على الارتقاء به إلى مَجمع السّحرة أو إلى تقوده إلى سِجن لعَدُوّ (معروف أو خفي) أو إلى أن يعثر، في الظلمة الهادئة للغرفة، على المرأة التي تشرع في إثارة قلقنا، أو التي لم نكن ننتظر رؤيتها

مجدَّدا؛ إنها لعبة مضادة: البتر، والعار المتنوِّع، والموت. أحيانا، تكون واقعة واحدة -الاغتيالُ السافل للسيد (س)، أو التأليه المُبْهَم للسيد (ب)- الحلَّ العبقري لثلاثين قرعة أو أربعين. إن توليف اللعبات كان صعبا؛ لكنْ ضروري التذكير بأن مُمثِّلي *الشركة* كانوا (وهم للآن) مُطْلَقي السلطةِ وماكِرين. في حالات كثيرة، قد تكون المعرفة ببعض الأوراق الرابحة صناعةً للحظ بسيطة، مما قد يُقلِّل من فضيلتهم؛ ولتفادي ذلك العائق، كان وُكلاء *الشركة* يستعملون الإيحاءات والسِّحر. كانت خطواتهم ودسائسهم سِرّيّةً؛ فَلِكي يستقصوا الآمال الحميمة والرُّعب الباطني في كل واحد، كانوا يتوافَرون على مُنجِّمين وجواسيس. كان هنالك نوع من الأسُود الحجرية، وكان هنالك مرحاض مُقدَّس يُسمَّى *كافْكا Qaphqa*، وبعض الشقوق في مجرى مائي مُغبَرّ، التي وَفْق الرأي العالم، *تُفضي إلى الشركة*، ويضع فيها الأشخاصُ الأشرار أو الطّيبون سعاياتٍ. وهناك أرشيف ألفبائي يحوي تلك المعلومات ذات الصِّحة المتغيِّرة.

وبشكل لا يُصَدَّق، لم تنعدم النميمة. ذلك أن *الشركة* بتكتمها المعهود، لم تردّ مباشَرة. لقد آثرتْ أن تُخربش في أنقاض مَصنع أقنعة كلمات مقتَضَبة، هي التي تظهر الآن في الكتابات المقدَّسة. تُنبّه تلك القطعة المَذْهبيّة إلى أن اليانصيب هو إدراجٌ للحظ ضمن نظام العالَم، وأنّ القبول بالأخطاء لا يعني مناقَضة الحظّ: بل إنه تأكيده. ونبَّهت أيضا إلى أنّ تلك الأسُود وذلك الإناء المقَّدس، على الرغم من أنهما غير مُرَخَّص لها من قِبل *الشركة* (التي لم تتخلّ عن الحق في الرجوع إليها)، فإنها تَعمل دون ضمانة رسمية.

أخمدَ ذلك التصريح القلق العمومية، وأحدَث كذلك آثارا أخرى، ربما لم تُتوقَّع من قِبل المؤلِّف. لقد غيَّرت بشكل عميق روحَ

الشركة وعمليّاتِها. لم يبق لي من الوقت سوى القليل؛ أُخْبِرنا أن السفينة على أهبة الإبحار؛ لكنني سأسعى إلى تفسير ذلك.

مهما بدا الأمر غير قابل للتصديق، فإنّ لا أحد كان قد جرَّب حتى ذلك الوقت نظريّةً عامة للألعاب. إن البابيلوني ليس تأمُّليا، إنه يمتثل لإملاءات الحظ، ويَهَبُها حياتَه، وأَملَه، وفزعه المرعب، لكنه لا يخطر بباله أن يبحث في قوانينه المتاهية، ولا في مجالاته الدورية التي تكشف عنه. ومع ذلك، فإن التصريحات غير الرسمية التي أشرْتُ إليها قد ألهَمتْ كثيرا من النقاشات ذات الطابع القضائي-الرياضي. ونجم عن أحد تلك النقاشاتِ التخمينُ التالي: إذا كان اليانصيب تكثيفا للحظ، وبَثًّا دوريًّا للفوضى في الكون، أليس من الملائم أنْ يتدخَّل الحَظُّ في كلّ مراحل القُرعة، وليس في واحدة فقط؟ أليس سُخريَّةً أن يُملي الحظُّ موتَ شخص ما، وأن تكون ظروف ذلك الموت -الذُّخر، والإشهار، مهلة ساعة أو قرن- غيرَ خاضعة للحظ؟ أثارتْ تلك الوساوس العادلة للغاية، في الأخير، إصلاحا معتَبَرا، لا يَفهم تعقيداتها (التي عمَّقتْها ممارسة استغرقتْ قرونا) سوى بعض المتخصِّصين، لكنني سأحاول تلخيصَها، ولو بصيغة رمزية.

لنتخيَّل قرعةً أولى تُملي موتَ رجُل. لأجل تنفيذِ حكمها يُلجَأ إلى قرعة أخرى، وتقترح هذه (فَرَضا) تسعة مُنفِّذين مُحْتَملين. يُمكن لأربعة من أولئك المنفِّذين أن يبدؤوا قرعة ثالثة هي التي تُعلِن اسمَ الجَلاد، ويمكن لاثنيْن أن يُعوِّضا أمرا مضادا بأمر سعيد (لِنَقُل، العثور على كنز)، ويُمكن لآخر أن يُفاقم الموت (بمعنى أنه سيُصيِّره مَعِيبا أو سيُغْنيه بأشكال من التعذيب)، ويمكن لآخَرين أن يرفضوا تنفيذَه.. كذلك هي الخطاطة الرمزية. في الواقع، *إنّ عدد القُرعات* غير محدود. لا قرار يكون نهائيا، جميعُها يتفرَّع إلى أخرى.

ويفترض الجَهلة أن قُرعات غير محدودة تقتضي وقتا غير محدود؛ في الواقع، يكفي أنْ يكون الوقتُ انقساميًّا إلى ما لا نهاية، مثلما تُبرزُه الأمثولة الشهيرة للسباق مع السلحفاة. تتوافق تلك اللانهاية بطريقة رائعة مع أرقام الحظ المتعرِّجة ومع النموذج السماوي الأوّل لليانصيب، الذي يعبُده الأفلاطونيون. . . ويبدو أنَّ صدى ما لطقوسنا مُشوَّها قد دوَّى في نهر التِّبِر: يحكي إِلْيُو لامْبْرِيدُو، في حياة *أَنْطُونِينُو هِلْيوغَابَالُو*، أنّ هذا الإمبراطور كان يكتُب في الصَّدَفات الحظوظَ التي يُقيِّضها للضيوف، بحيث إن الواحد منهم كان يتوصَّل بعشر ليرات ذهبية وعشر ليرات أخرى نقدية، وعشرة قوارض زغبية، وعشرة دِببة. وجائز التذكير بأن هِلْيوغَابَالُو تَربّى في آسيا الصغرى، بين كهنة الإله الذي يحمل اسمَه.

كذلك توجَد قُرعات غير شخصية، لا هدف محدَّد لها: قرَّرت إحداها أن تُلْقَى ياقوتة زرقاء من جزيرة تابْروبانا في مياه الفُرات، وقرَّرتْ أخرى أنْ يُطلق سراحُ طائر من سقف بُرج؛ وأخرى قرَّرتْ أن تُسحب (أو تُضاف) في كلِّ قَرن حبَّةُ رمْل من بين عدد لا يُحصر من الموجودة في الشاطئ. تكون العواقبُ وخيمة، أحيانا.

وتحت التأثير المُحسِن من جهة *الشركة*، فإنّ عاداتنا صارت متخمَةً حظّا، ذلك أن مُشتري دزينة من جِرار الخمر الدِّمشقي لا يتعجَّب إن تضمَّنت إحداها طلسما أو أفعى؛ ثم إن الكاتب الذي يُحرِّر عَقْدا يكاد لا يتخلّى أبدا عن إدراج مُعْطى خاطئ؛ أنا نفسي، في هذا التصريح المستعْجَل، زوَّرتُ شيئا بَهيًّا، أو فظاعةً ما، وربما رتابةً ما مُبهَمة. . . لقد ابتكر مؤرِّخونا، الذين هم الأكثر نفاذَ بصيرةٍ في الفَلَك، مَنهجًا لتصحيح الحظ؛ واشْتُهِر أنَّ عمليات ذلك المنهج (عموما) موثوقٌ بها؛ على الرغم من أنها لا تُذاعَ دون جرعة ما من

الخداع، بالطبع. وبغض النظر عن ذلك، فلا شيءَ ملوَّث للغاية بالخيال مِثلَ حكاية *الشركة*... إذ يمكن لوثيقة مُحرَّرة بكتابة قديمة، ونُبِش عنها في مَعبد، أن تكون مِن عَمَل قرعةِ أمس أو من عمل قرعة مرّ عليها قَرْن. لا يُنشر كتابٌ دون اختلاف ما بين كل نسخة من نسخه. ويؤدي الكَتبة القَسَم السِّرّي بأن يحذفوا، ويدُسُّوا، وينوِّعوا. وكذلك يُمارَس الكذب غير المباشِر.

وتتحاشى *الشركة*، بتواضُع رباني، كل أشكال الإشهار، ويَكون وُكلاؤُها، بالطبع، سِرِّيين؛ وتكون الأوامر التي تُصدِرُها باستمرار (ربما دون توقف) لا تختلف عن تلك التي يُغدِقها المخادعون. وإضافة، من ذا الذي يُمكن أن يتباهى بكونه مجرَّد مُخادع؟ هل هو الثَّمِل الذي يرتجل أمرا عبثيّا، أم النائم الذي يستيقظ فجأة ويخنق باليديْن المرأةَ التي تنام بجانبه؟ ألربما لا ينفِّذان قرارا سريا *للشركة*؟ يُحرِّض هذا الاشتغال الصامت، الشبيهُ بعمل الإله، على كلِّ أشكالِ حظِّ التخمين. يُلمِّح تخمين في مقت إلى أنه منذ قرون لا توجد *الشركة*، وأنّ نظام حيواتنا المقدَّسَ هو وراثي خالص، وتقليدي؛ ويَحكم تخمين آخَرُ بأنها أبدية ويُظهِر بأنها ستدوم حتى نهاية العالم، عندما سيُفني الإله الأخيرُ العالَم. ويُصرِّح تخمين آخر بأن *الشركة* مطلقة القدرة، لكنها تؤثر أشياء ضئيلة فحسب: في صرخة طائر، وفي ألوان الصدأ والغُبار، وفي سِنَة الفجر. ويُخمّن آخر، على لسان هراطقة مقنَّعين، *أنها لم توجَد أبدا ولن توجَد*. ويستدل تخمين آخر، ليس أقل سفالة، بأنه لا ينبغي الاكتراث بحقيقة وجود التعاونية الغامضة أو إنكارُها، لأن بابيلونيا ليست شيئا آخر سوى لعبة لا نهائية من حظوظ.

فحص أعمالِ هِرْبِرْتْ كْوِينْ

تُوفّي هِربرت كْوين في رُوسْكُومون؛ وقد تحقّقتُ دون اندهاش من أن الملحق الثقافي لجريدة التّايْمِز أفردتْ له بالكاد نصف عمود من النعي الترحُّمي، حيث لا نعتَ مَدحيٌّ لم يُصوَّب (أو يُنبَّه إليه بجدِّية) بواسطة ظرف. وجاءت مجلة Spectator [المتفرِّج]، في عددها الخاص بالمناسبة، دون شك، أَقلَّ إيجازا، وربما أكثر وُدِّية، لكنّها زوَّدت القارئ بالكتاب الأول لكْوين -*إلهُ المَتَاهة*- مع كتاب للسيدة أغاثا كْريستي وكُتب أخرى لجِرْتْرود شْتايْن: وهي استحضارات لن يَحْكُم أحَدٌ بأنْ لا مناص منها، وأنها ما كان لها لتُفرِح الفقيد. كْوين هذا، فضلا عن ذلك، لم يُعتقدْ في أنه عبقري أبدا؛ حتى في ليالي النقاشات الأدبية المشّائية، التي كان الرَّجُلُ قد أرهق فيها المطابع، ولعبَ فيها على نسق واحد دوْرَ السيد تِسْتْ أو الدكتور صمويل جونسون... لقد أدرك بمنتهى صفاء الذهن الوضع التجريبي لِكُتُبه: لربما الرائعة بسبب الجِدّة ولقَدْر من الاستقامة المقتَضبَة فيها، لكنْ ليس بسبب فضائل الشَّغف. «أنا مثل قصائد كُوْلي الغنائية» كتب إليّ من لوُنْغْفورد يوم ٦ مارس ١٩٣٦. «لا أنتمي إلى الفن، بل إلى تاريخ الفن فقط.» لم تكن من دراسة، بالنسبة إليه، أدْنى مرتبة من التاريخ.

لقد كرَّرتُ قولا متواضِعا لهربرتْ كْوِين؛ بالطبع، ذلك التواضع لا يستنفد فكرَه. عوَّدنا فْلوبير وهِنري جِيمْس على أن نفترض أن الأعمال الفنية نادرة وأنّ تنفيذَها شاقٌّ؛ في القرن السادس عشر (لِنتذَكَّر رحلة *البَرْناسو*، ولْنتذكَّر مصير شِكسبير) لم يُتَّفق على ذلك الرأي المُحزِن. كذلك كان هِربرت كوين. تهيَّأَ له أن الأدب الرفيع شائع جدا، وأنه قلَّما لا يوجَد حوارٌ في الشارع لا يَبلُغه. كذلك بدا له أن الفعل الجمالي لا يُمكنه أن يستغني عن أحد عناصر الدهشة، وأن الاندهاش باعتماد الذاكرة صعبٌ. راسما ابتسامة صادقة كان يتأسَّف «للحفاظ في ذِلّة وعناد» على كتُب الماضي... أجْهلُ إن كانت نظريتُه مُبرَّرةً؛ وأَعلم أن كُتُبه تتطلَّع إلى الكثير من الدَّهشة.

آسَفُ لإعارتي سيِّدةً أوَّلَ كتاب نشَره، وأنها لم تردَّه إليّ. لقد صرَّحتُ أن الأمر يتعلَّق برواية بوليسية: *إله المتاهة*؛ ويُمكنني أن أشكر للناشر اقتراحَه إيّاها للبيع في الأيام الأخيرة من نونبر ١٩٣٣. وفي الأيام الأولى من ديسمبر، تسبَّب الارتدادُ السار والعسير لرواية «*لغز الأخويْن المُلتصِقين Siamese Twin Mystery*» في شَغل لندن ونيويورك؛ وأنا أُفضِّل أنْ أعزو إخفاق رواية صديقنا إلى تلك المصادفة المخرِّبة. كذلك (أريد أن أكون في منتهى الصِّدق) إلى تنفيذها الناقص، وإلى الأبهة الفارغة والباردة لبعض أوصافِه البحرَ. وبعد انقضاء سبع سنوات، يستحيل عليَّ أن أستعيد تفاصيل العملية؛ التي هنا خطَّتُها؛ مثلما الآنَ يُفقِّرها نسياني (مثلما الآن يُنَقِّيها). يُوجَد اغتيالٌ عصي على الحل في الصفحات الأولى، ونقاش بطيء في الصفحات الوسطى، وحل في الصفحات الأخيرة. الآن وقد اتَّضح اللغز، هنالك فقرة طويلة واستذكارية تتضمَّن هذه الجملة: *اعتقَدوا جميعا أن لقاءَ لاعبي الشطرنج كان مُصادَفة*. يُفهَم من هذه الجملة

بأن الحلَّ خاطئ. يُراجع القارئُ القَلِقُ الفصولَ الملائمة، ويكتشف حلًّا آخَر، هو الحل الحقيقي. إنّ قارئ ذلك الكتاب المتفرِّد هو أكثر فِطنة من البوليسي المحقِّق.

الأكثر هرطقة هي «الرواية التقهقرية، المتفرِّعة» *أبريل مارس*، التي جُزؤُها الثالث (والوحيد) يعود إلى سنة ١٩٣٦. لا أحد، عند الحُكم على تلك الرواية، يُنكر عند اكتشافه أنها لعبة؛ ومن الجائز التذكيرُ بأن المؤلِّف لم يعتبرْها أبدا شيئا آخر. سمعتُه يقول: «أنا أُطالِب بأن يُعترَف بتوافر ذلك العمل على القَسمات الجوهرية الضرورية في أيّ لعبة: التماثل، والقوانين الاعتباطية، والسأم.» حتى الاسم هو جناس ضعيف: إنه لا يعني مسيرة *أبريل*، بل يعني حرفيا *أبريل مارس*. لقد أدرك أحَدُهم في صفحاتها صدى لمَذاهِب دُون *Dunne*؛ ويُفضِّل تمهيدُ كُوينْ استحضار ذلك العالَم المعكوس لِبْراِدْلي، الذي يسبِقُ الموتُ فيه الولادةَ، وتسبق النَّدبة الجُرحَ، والجرحُ الضربةَ (المَظهر والحقيقة، ١٨٩٧، الصفحة ٢١٥)(١). ليست العوالِم التي تقترحها رواية *أبريل مارس* تقهقرية؛ بل الطريقة التي تُحكى بها. إنها تقهقرية وتفرُّعية، مثلما قُلتُ من قبل. يضم

---

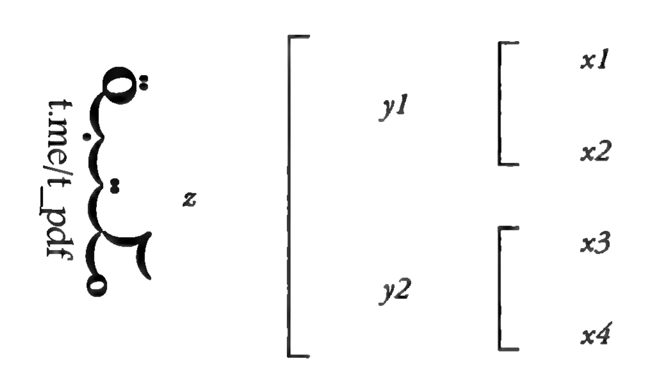
(١) يا لِتَبحُّر هربرت كوين، يا للصفحة ٢١٥ من كتاب يعود إلى سنة ١٨٩٧. وكان محاور لأفلاطون، في *السياسة*، قد وصف ارتدادا شبيها: ارتدادَ *أبناء الأرض* أو *الأهالي*، الذين أُخضِعوا لتأثير دورة للفلك عكسية، فانتقلوا من الشيخوخة إلى النضج، ومن النضج إلى الطفولة، ومن الطفولة إلى الاختفاء والعدم. كذلك تِيُومْبُومْبُو، الذي يتحدَّث في خطاباته *الفيليبية* عن بعض الفواكه الشّمالية التي تُوَصِّل في من يأكلها العمليَّةَ التقهقرية نفسَها. والأكثر أهميّة هو تخيُّل انقلاب للزّمان: وهي حالٌ نتذكَّر فيها المُستقبَل ونجْهل، أو بالكاد نستشعر، الماضي. أُنظر الإنشاد العاشر من *الجحيم*، الأبيات ٩٧-١٠٢، حيث تُقارَن الرؤيةُ الرّسولية والبصر الحسير.

العملُ ثلاثة عشر فصلا. يحكي الفصل الأول الحوارَ الغامض لبعض الغرباء على رصيف. ويحكي الثاني أحداث أمسِ الأوَّل. ويحكي الثالث، وهو تقهقري أيضا، أحداثَ أمسِ أوَّلَ آخَر محتمَلة؛ ويحكي الرابع أحداثَ آماس أُخَر. كل واحد من تلك الآماس (التي تُقصى بصرامة) تتفرَّع إلى آماس أخرى، ذات طابع متنوِّع جدا. إذن، تتألَّف الأعمال كُلُّها من تسع روايات؛ وتتألّف كل رواية من ثلاثة فصول. (الفصل الأول مشترَك بين الفصول جميعها، بالطبع.) ومن بين تلك الروايات، هناك واحدة ذاتُ طابَع رمزيّ؛ وأخرى، طابَعها خارق للعادة؛ وأخرى بوليسية؛ وأخرى نفسية؛ وأخرى شيوعية؛ وأخرى مناهضة للشيوعية؛ إلخ. ربما تساعدُ خُطاطة في فهم البنية.

z	*y1*	*x1* *x2* *x3*
	y2	*x4* *x5* *x6*
	y3	*x7* *x8* *x9*

يمكن أن نُكرِّر عن تلك البنية ما صرَّح شُوبِنهاور بصدد المقولات الكانْطِيّة الاثنتي عشرة: إنه بحنق تناظري يُضحي بكل شيء. وبشكل متوقَّع، تكون إحدى القصص التسعة غير مُستحقة لتكون من تأليف كْوِين؛ وأَفضلُ تلك القصص ليست التي تُصَوَّر في الأصل، أي قصة x4؛ بل تلك التي طبيعتها عجائبية، القصة x9.

وهناك قصص شُوِّهتْ بِدُعابات سخيفة وشِبه تدقيقات غير مُجْدية. ويَفقد من يقرؤونها في ترتيبها التاريخي (مثلا: x3، y1، z) الطَّعمَ الخاص للكتاب الغريب. وتَنقُص قصَّتيْن القيمةُ الفردية -هما x7، x8-؛ وتمنحهما المجاورةُ نجاعةً... ولستُ أدري إنْ كان عليَّ أنْ أذكِّر بأنه بعد نشر *أبريل مارس*، ندِم كْوين على الترتيب الثلاثي، وتنبّأ بأن الناس الذين سيُقلِّدونه سيختارون الترتيب الثنائي



أما خالقو الكون والآلهة فسيختارون اللانهائي: قصص لا حصر لها، ومتفرِّعة إلى ما لانهاية.

والأكثر اختلافا، لكن الأكثر استذكارا أيضا، هي المسرحية الكوميدية البطولية في فصلين *المرآة السرية*. في الأعمال المَوصوفة فعلا، كان التعقيدُ الشكليّ قد عرقل خيال المؤلِّف؛ أما هنا، فإنّ تطوُّرَه أكثر حُريّة. تدور أحداثُ الفصل الأول (الأكثر امتدادا) في البيت الريفي للجنرال ثْرالي، قريبا من ميلتون مُوْبْراي. إنّ المَركزَ غير المرئيّ في الحبكة هو الآنسة أُولْريكا ثْرالي، الابنةُ الكُبرى للجنرال. نَلمحُها عَبْر حِوار فارسة ومتغطرسة؛ ونرتاب في أمر تعوُّدها على قراءة الأدب؛ لقد أعْلنت الصُّحفُ التزامَها بالاقتران بالدُّوق رُوتْلانْد؛ وكذَّبت صحف أخرى خبر ذلك الالتزام. يُجِلُّها المؤلِّفُ

المسرحي وِيلْفْرِد كْوارْلِسْ؛ وهي مكّنته ذات مرّة من قُبلة ساهية. تمتلك الشخصيات ثروة هائلة ودَمًا أصيلا؛ والعواطفَ نبيلة، ولو أنها مُحتَدّة؛ ويبدو أن الحوار كان لا يعدو أن يتأرجح بين ثرثرة بُولْوير-لِيتُون وأُهجيات وايْلْد أو السيد فيليب غِيدَايا. وهناك عندليب وليلة، وهناك مُبارزة سرية في شرفة. (تكاد تكون غير مُدرَكة بالكامل، وهناك تناقض ما عجيب، وهناك تفاصيل قذِرة.) تَظهَر شخصياتُ الفصل الأوَّل مجدَّدا في الفصل الثاني -بأسماء أخرى. فـ«المؤلِّف المسرحِيّ» وِيلْفرِد كْوارْلِسْ يظهر وكيلا بالعمولة في ليفربول؛ واسمُه الحقيقي هو جُونْ ويليام كِيغْلِي. وتوجد الآنسة ثْرالي؛ التي لم يرَها كِيغْلي أبدا، لكنّه بِمَرَضية ينتقي صوَرَها من مجلَّتي *تاتْلر* أو سْكيتْش. كيغْلي هو مؤلِّف الفصل الأول. أما «البيت الريفي» الذي لا يُمكن تصديقه أو لا يمكن احتمال وجودِه فهو النُّزل اليهودي-الإيرلندي الذي يعيش فيه، والذي غُيِّر وجُمِّل من قِبَله... حُبكة الفصلَيْن متوازية، لكن في الفصل الثاني كلُّ شيءٍ فظيع بعض الشيء، وكل شيء يُؤجَّل أو يُحبَط. لما عُرِضت مسرحية *المرآة السريّة*، تلفَّظ النقد باسميْ فرويد وجوليان غْرِين. وتبدو لي الإشارةُ إلى الأوَّل غير مُبرَّرة كُلّيًا.

لقد أذاعت الشُّهرة أن *المرآة السرية* كوميديا فرويدية؛ وأن ذلك التمثيل الملائم (والزائف) حدَّد نجاحَها. المؤسِف هو أن كْوينْ كان قد أكْمَل الأربعين عاما؛ وكان قد تأقلم مع الفشل، ولم يكن قد أذعن بعذوبة لتغيير في النظام. لقد عقد العزم على الانتقام؛ ففي أواخِر سنة ١٩٣٢ نشر *اعترافات Statements*: ربما هو أكْثَرُ كُتبه أصالة، ودون شك أقلُّها امتداحا وأكثرها سرّيّة. اعتاد كْوين أنْ يحتجّ بأن القُرّاء كانوا نوعا قد انقرض. «لا وجود لأوربي (قال

مُستدِلا) ليس كاتبا، بالقوة أو بالفعل.» وأكَّد كذلك أن السعادات المختلفة يُمكن أن تَخدُم الأدب، الذي كان أعلى ما فيه هو الابتكار. وبما أن الجميع ليسوا قادرين على تلك الغبطة، فإن كثيرين يَكُونون قد رَضُوا بالمُصطَنعات. بالنسبة إلى أولئك «الكُتّاب غير الكاملين»، الذين اسمُهم فِرْقة، حرَّرَ القصص الثمانية من كتاب *اعترافات*. وتُصوِّر كل واحدة منها أو تَعِد بحُجَّة جيدة، أُفشِلتْ إراديّا من قِبل المؤلِّف. تُلمِّح إحدى تلك القصص -وليستْ أَفضلَها- إلى حجَّتيْن. ويعتقد القارئ، الساهي بسبب الغرور، أنه الذي ابتكرهما. أما القصة الثالثة، *وردة الأمس The Rose of Yesterday*، فأنا الذي اقترفْتُ سذاجة اقتباس «الأنقاض الدائرية»، التي هي إحدى قصص *حديقة الشعاب التي تتفرَّع*.

١٩٤١

مكتبة بابل

بهذا الفن يُمكنُ أن تتأمَّل تنوُّعَ
الثلاثة والعشرين حرفا. . .

تشريح السوداوية،
الجزء ٢، القسم II، الفصل IV.

يتألَّف الكَوْن (الذي يُسميه آخَرون مكتبةً) من عدد لا يُحصَر، وربما لا نهائي، من رواقات سُداسية الأضلاع، ذات آبار تهوية في وسطها، تطوِّقها حوافّ خفيضة. تُرَى انطلاقا من أي قاعة سُداسية الطوابِقُ الدنيا أو العليا: إلى ما لا نهاية. لا يتغيَّر توزيعُ الأروقة. يُغطي كلَّ الأضلاع إلا اثنيْن عشرون رَفًّا، خمسة رفوف طويلة في الضِّلع، عُلوُّها الذي بِعُلوّ الطوابق، يزيد بالكاد على طول محافظ مكتبة عاديّ. ويُطل أحد الضِّلعيْن الخاليَيْن إلى دِهليز ضيِّق، يُفضي بدوره إلى رواق آخر، مطابق للأوَّل ولجميعها. توجد على يمين الدهليز ويساره حجرتان صغيرتان. تسمح إحداهما لداخلها بالنوم وقوفا؛ والأخرى تسمح له بقضاء حاجاته. من هناك يمر السُّلّم اللولبي، الذي يُغوِّر ويرتفع نحو القَصِيّ. توجد في الدهليز مرآة تُضاعِف الهيئات بإخلاص. وعادة ما يستنتج الناس من تلك المرآة

أن *المكتبة* ليست لا نهائية (لو كانت كذلك في الواقع، فما معنى ذلك التضاعُف الوهمي؟)؛ أنا أُفضِّل أن أحْلُم أن الأسْطُح المصقولة تُصوِّر اللانهائي وتَعد به... النور يَصدُر عن فواكه كروية تحمل اسم مصابيح. توجَد اثنتان في كل شكل سُداسي الأضلاع: النور الذي تَبْعثانه غيرُ كاف، ومستمر.

مثل كل رجال المكتبة، سافرْتُ أثناء شبابي؛ وتغرَّبتُ بحثا عن كتاب، وربما بحثا عن فهرس الفهارس؛ الآن وعيناي تكادان لا تقدران على فك الرموز التي أكتب، ها أنا أتهيَّأ للموت على مسافة فراسخ قليلة من الرواق سداسي الأضلاع حيث وُلِدت. أنا ميِّت، لن تعوزني الأيادي الرحيمة التي ستُلقيني عبر الحافة؛ سيكون قبري الهواء الذي لا يُسبَر؛ وسيَغرق جسدي طويلا، وسيفسُد وسيتحلَّل في الريح التي تُوَلِّدها السقطة اللانهائية. أنا أؤكِّد أن *المكتبة* لا نِهائية. ويستنتج المثاليون أنّ الأروقة سُداسية الأضلاع هي شكل ضروري للفضاء المطلَق، أو على الأقل، لحدْسِنا الفضاءَ. ويبرِّرون ذلك باستحالة تَصوُّر قاعة مثلَّثة أو خُماسية الأضلاع. (ويدَّعي الصوفيةُ أن الانخطاف يَكشِف لهم غرفة دائرية بكتاب كبير دائريّ ذي كعب متواصل، ويلتف متمدِّدا مع الجدارن؛ لكنَّ شهادتَهم يُرتاب فيها؛ وكلماتهم غامضة.) يكفيني، حدّ الآن، أنْ أُكرِّر الفتوى التقليدية: *المكتبة* كرةٌ مركَزُها التام هو أي قاعة سُداسية الأضلاع، يتعذَّر بُلوغُ محيطِها.

تَؤول إلى كلّ جدار من كل قاعة سُداسية الأضلاع خمسة رفوف؛ ويضم كل رف اثنين وثلاثين كتابا من قياس موحَّد؛ وكُلُّ كتاب في أربعمائة وعشر صفحات؛ وكل صفحة فيها أربعون سطرا؛ وفي كل سطر زُهاء ثمانين حرفا لونُه أسْود. كذلك توجد حروف على

ظهر كل كتاب؛ لا تشير تلك الحروف أو تُصوِّر ما ستقوله الصفحات. أَعلَم أن فقدان الاتصال ذاك بدا، ذاتَ مرة، مكتَنَفا بالأسرار. وقبل أن أُلخِّص الحلَّ (الذي اكتشافُه، على الرغم من انعكاساته المأساوية، لربما كان الحَدثَ الرئيس في التاريخ) أودُّ أن أُذكِّر ببعض البديهيّات.

الأولى: *المكتبة موجودة منذ الأزل*. تلك الحقيقة التي نتيجتُها الفرعية والفورية هي خلود العالَم مُستقبَلا، ولا يُمكن لأي عقل رزين أن يشك فيها. يُمكن للرَّجل، مُحافِظ المكتبة غير الكامل، أن يكون صنيعة الحظّ أو خالقي الكون الخُبثاء؛ فالكون بتجهيزاته الأنيقة من رفوف، ومُجَلَّدات مُلغِزة، وسلالِم لا عياء فيها للمسافر، ومراحيض لمُحافِظ المكتبة الجالس، يمكن أن يكون عملَ إله فقط. ولإدراك المسافة بين الإلهي والإنساني، تكفي مقارَنَة هذه الرموز الخشنة والمرتجِفة التي تُخربشها يدِي المُعرَّضة للخطأ على غلاف كتاب، بالحروف المتناسقة بالداخل: دقيقة، نحيفة، مُسودَّة، تتعذَّر مُضاهاة تماثُلِها.

الثانية: عدد الرموز الخطية هو خمسة وعشرون[1]. لقد يسَّر ذلك التَّثبّت، منذ ثلاثمائة عام، من صياغة نظرية عامة *للمكتبة*، ومن حلِّ المشكلة بصيغة مُرْضية تلك التي لم ينجح أي تخمين في فك رموزها: الطبيعة عديمة الشَّكل والفوضوية التي عليها مُعظمُ الكُتب. أحدُ تلك الكتب رآه أبي في الرواق مُسدَّس الأضلاع من المَدار

(١) لا يحوي المخطوط الأصلي أرقاما أو حروفا كبيرة. انحصرت علامات الترقيم في الفاصلة والنقطة. تلكما العلامتان، المسافة وحروف الألفباء الاثنان والعشرون هي الرموز الخمسة والعشرون الكافية التي يَعُدُّها المجهول. (ملاحظة الناشر).

الخامس عشر الرابع والتسعون، المؤلَّف من الحروف MCV المكَرَّرة بشكل منحرف انطلاقا من السطر الأول حتى الأخير. وآخَر (أكثر استشارة في هذه المنطقة) هو مجرَّد متاهة من الحروف، لكن الصفحة ما قبل الأخيرة تقول *أيها الزمان أهراماتُكَ*. الآن يُعْرف: عَبْر سطر منطقي أو خبر صحيح توجد فراسخ من المتنافرات البليدة، والأمشاج اللفظية، وانعدام التماسك. (أنا أعْرف عن منطقة موحشة يُنكِر مكتبيُّوها العادة الشعوذية والعبثية المتمثلة في البحث عن معنى في الكتب، ويُشبِّهونَها بعادة البحث عنه في الأحلام أو في الخطوط المُختلِطة في اليد... ويَقبلون بأن مُبتكري الكتابة قد قلّدوا الرموز الخمسة والعشرين الطبيعية، لكنهم يُدافعون عن أن ذلك التطبيق هو عرَضي، وأنّ الكتُب لا تعني شيئا في ذاتها. ذلك الحُكم، كما سنرى، ليس زائفا تماما).

واعتُقِد طيلة وقت كثير أن تلك الكتب مُتمنِّعة على لغات قديمة أو قصية. حقيقة أن الناس الأكثر قِدما، الكُتبيين الأوائل، كانوا يستعملون لغة مختلفة كِفايةً عن التي نتحدَّثُها اليوم؛ حقيقة أنه مسافةَ أميال على اليمين اللغةُ هناك عامية، وأنّه إلى أعلى بتسعين طابَقا، هي لغة غير مفهومة. كل ذلك، أُكرِّر، حقيقي، لكن عشْرًا وأربعمائة صفحة غير متغيِّرة من م.س.ف MCV لا يُمكن أن تُطابق أيَّ لغة، مهما كانت عامية أو أوَّلية. ولمَّح بعضُهم إلى أن كلَّ حرف قد يقدر على التأثير في لاحِقه، وأن قيمة م.س.ف MCV في السطر الثالث بالصفحة ٧١ لم تكن ما يُمكن أن تتوافر عليه السلسلة نفسُها في وضع آخر من صفحة أخرى. لكنّ تلك الأطروحة الغامضة لم تنجح. وفكَّر آخَرون في الكتابة بالشيفرة؛ وكوْنِيًّا قُبل ذلك التخمين، ولو أنه بالمعنى الذي صاغه عليه مُبتكروه.

ومنذ خمسمائة عام، صادف رئيسٌ[1] رواق مُسدَّس الأضلاع كتابا شديد الغموض شأن الكُتب الأخرى، لكنْ كانت به ورقتان تقريبا سطورهما متجانسة. عرَض الرئيس لُقيتَه على فكّاك شيفرات متجوِّل، وأخبرَه الأخير بأنها حُرِّرتْ بالبرتغالية؛ وقال له آخَرون بأنها حُرِّرت باليَدِيشيّة. وقبل قرن أمكنَ للغة أن تستقرّ: دارجة سامُويِديّة-لِيتْوَانيّة متفرّعة عن الغُوارانية، وبتغييرات من العربية الفصحى. كذلك فُكَّت شيفرة المضمون: مفاهيم التحليل التوليفي، تُبيِّنها أمثلةٌ تنويعية تتكرّر إلى ما لا حدّ له. سمحت تلك الأمثلةُ بأن يكتشف مُحافِظ مكتبة ذو نبوغ القانونَ الأساسيّ *للمكتبة*. لاحَظ ذلك المفكِّر أن كل الكتب، على اختلافها، بتوافرها على عناصر متعادلة: المسافةُ، والنقطة، والفاصلة، والحروف الألفبائية الاثنان والعشرون. كذلك احتجَّ بأمر أكَّده كلُّ الرَّحالة: لا وجودَ، في *المكتبة الشاسعة*، *لكتابيْن متطابقيْن*. واستُنتِج من تلكما المقدِّمَتيْن القياسيَتيْن اللتيْن لا مُشاحّة فيهما أنّ *المكتبة* شاملة، وأن الرفوف تُسجِّل كلّ التوليفات الممكنة للعشرين ونيف رمزا خَطّيّا (رقم، ولو أنه كثير الشسوع، فإنه مُتناهٍ)، بمعنى أنّ كل ما يتيسَّر التعبير عنه: في كل اللغات. كل شيء: التاريخ الدقيق للمستقْبَل، والسِّير الذاتيَّة لرؤساء الملائكة، وفهرسُ *المكتبة* الأمينُ، وألوف وألوف من الفهارس المزوَّرة، والبرهنة على زيف تلك الفهارس، والبرهنة على زيف الفهرس الحقيقي، والإنجيل الغنوصي لباسيليدِسْ، وتفسير ذلك الإنجيل،

---

(١) فيما مضى، كان لكل ثلاثة أروقة مُسدَّسة الأضلاع رجُلٌ. وقد دمَّر الانتحارُ والأمراض الرِّئيّة ذلك التناسبَ. ذاكرة لسوداويّة يُعْجَزُ عن وصفها: أحيانا سافرتُ لياليَ كثيرةً عبر ممرات وسلالم مصقولة دون أن أعثر ولو على مُحافِظ مكتبة واحد.

وشرح تفسير ذلك الإنجيل، والسرد الحقيقي لموتك، وترجمة كل كتاب إلى كل اللغات، وتدليسات كلّ كِتاب في كل الكتب، والرسالة التي أمْكنَ بِيدَا أن يكتُبها (ولم يكتُبها) عن أساطير الساكسونيين، وكُتب تاسيتوس الضائعة.

لما أُعلن أن *المكتبة* تحوي كل الكتب، فإن الانطباع الأول كان ذا سعادة غريبة الأطوار. لقد أحس كلُّ الناس أنهم مالكو كنز غير ممسوس وسِرّي لم يكن هنالك مشكل شخصي أو عالَمي لا وجود لحلّ فصيح له: في أحد الأروقة المسدَّسة الأضلاع. كان الكون مُبرَّرا، واغتصب الكونُ فجأةً الأبعادَ اللامحدودة للأمل. في ذلك الزمان، تُحدِّث كثيرا عن *الأثآر*: كُتُب التبرير والنبوءة، التي تُدافع دوما عن أفعال كل إنسان في الكون، وتُحافظ على أسرار عجيبة من أجل مُستقبله. لقد تخلى الآلاف من الطماعين عن أروقة المُسدَّس العذب مَوْلدِهم، واندفعوا مُرْتَقين السلالم إلى فوق، مُستعْجَلين من قِبل النية الغامضة في العثور على *ثأرهم*. أولئك الرحالة كانوا يتنازعون في الممرات الضيقة، ويتفوَّهون بلعنات خبيثة، ويخنق بعضُهم بعضا في السلالم الربانية، ويرمون الكُتب الخادعة في عمق الأنفاق، ويموتون قتْلا بِيَديْ رجال المناطق القصية. آخَرون جُنُّوا... توجد الأثآر (رأيتُ اثنيْن يُحكَيان لأشخاص من المُسْتقبَل، ولأشخاص ربما ليسوا مُتخَيَّلين) لكن الباحثين لا يتذكَّرون أن إمكان عثور إنسان على ثأره، أو على تنويع غادر لثأره، يُحسَب صِفرا.

كذلك انْتُظِر حينئذ اتِّضاح ألغاز الإنسانية الأساسية: أَصْل *المكتبة* والزمان. المحتَمَل هو إمكان أن تُفسَّر بكلمات تلك الألغاز الجسيمة: إذا لم يَكْف كلامُ الفلاسفة، فإن *المكتبةَ* متعدِّدةَ الأشكال ستكون قد أنتجت اللغة التي لم يُسمع بها من قبل، والتي يُحتاج

إليها، والقواميس، وأنحاء تلك اللغة. لقد مرَّت أربعة قرون على إضجار البشر للأروقة المسدَّسة... يوجَد باحثون رسميّون، ومُسْتقْصو *مَحاكمِ التفتيش*. أنا رأيتهم أثناء مباشرتهم لمهمتهم: يَصِلون مستسلِمين دوما؛ يتحدَّثون عن سلّم لا أدراجَ له أوْشكَ أن يقتُلَهم؛ يتحدَّثون عن أروقة وسلالم مع مُحافظ المكتبة؛ أحيانا يُمسكون أقرب كتاب إليهم، ويتصفحونه بحثا عن كلمات مُشينة. ظاهريا، يبدو أن لا أحد ينتظر اكتشاف شيء.

ومع الأمل المُبالَغ فيه، حَدَث، مثلما هو طبيعي، إحباط مُفرِط. التيقُّن من أن أحد الرفوف في جدار ما برواق مُسدَّس الأضلاع يحوي كُتُبا ثمينة، وأن تلك الكُتُب الثمينة كانت بعيدة المنال، بدا شيئا يكادُ لا يُطاق. لقد اقترحت طائفةٌ كافرةٌ أنْ يُكَفّ عن البحث، وأنْ يَخلط كلُّ الناس الحروفَ والرموز، إلى أن يبنوا، بوساطة هِبة من الحظ غير محتَمَلة، تلك الكُتُبَ المطابِقة للقانون. وألْفت السلطات نفسَها مُجبَرة على إصدار قوانين صارمة. اختفت الطائفةُ، لكني في طفولتي رأيْتُ رجالا شيوخا كانوا يختفون طويلا في المراحيض، وفي يدهم أقراص من المعدن في قدَح ممنوع، وفي وهَنٍ كانوا يُقلِّدون الفوضى الإلهية.

عكسيا، اعتقد آخرون أن الأساسي كان هو حذف الأعمال عديمة الفائدة. لقد اكتسحوا الأروقة المسدَّسة، وأبرزوا رُخَصا ليست مزيَّفة دوما، وكانوا يتصفَّحون في ضجر مُجلَّدا ويَدينون رُفوفا برُمّتها: ويُعزى إلى هُياجهم التطهيري والزّهدي الضياع الأهوج لملايين الكتب. اسمهم مقيت، لكن الذين يَرْثون «الكُنوز» التي دمَّرها جنونُهم، يُهملون حَدَثيْن شهيريْن. أحدُهما: أنّ *المكتبة* هائلة جدا حتى إن كلَّ تقليص لها مَصدرُه الإنسان يبقى في منتهى الضآلة.

وثانيهما: أنّ كلّ نسخة هي متفردة، ولا تُعوَّض، لكن (بما أن *المكتبة شاملةٌ*) هناك دوما بضع مئات الآلاف من النسخ غير الكاملة: لأعمال لا تختلف إلا بحرف أو بفاصلة. وضِدّ الرأي العام، أجرُؤُ على افتراض أن عواقب التَّلف الذي اقترفه *الصِّفائيُّون* قد بُولِغ فيه، بفعل الفظاعة التي تسبَّب فيها أولئك المتعصِّبون. لقد استعجلهم هذيانُ غَزْوِ كُتب المسدَّس القِرمزيّ: كتب ذات شكل أصغر من المألوفة؛ وكلِّية القُدرة، ومزَيَّنة رسوما، وسحرية.

كذلك نَعْلم عن خرافة أخرى من ذلك الزمان: خرافة *الرَّجُل الكِتاب*. في رفٍّ من ذلك الرِّواق المسدَّس (استنتج الناس) يَلزَم أنْ يوجَد كتابٌ له أن يكون الشيفرة والمختَصَر الكامل *لِكُلِّ الكُتُب الأخرى*: لقد تصفَّحه أحَدُ محافظي المكتبة، وهو مماثِل لإله. وفي كلام هذه المنطقة لا تزال آثار لعبادة ذلك الموظَّف القصِيّ موجودةً. ارتحل كثيرون بحثا عنه هو. طيلة قرن أرهقوا أنفُسهم عبَثًا يجوبون الاتجاهات الأكثر اختلافا. كيف يُضْبط موقِع الرواق السِّرّي المبجَّل الذي كان يَأويه؟ اقترح أحدُهم منهجا ارتداديا: لأجل ضبط موضِع الكتاب A، ينبغي أن يُستشار مُقدَّما الكتاب B، الذي يُشير إلى موضِع الكتاب A؛ ولتحديد موضع الكتاب B، يَلزم أن يُستشار مُقدَّما الكتابُ C، وهكذا دواليك حتى إلى ما لا نهاية... في مغامَرات مثل تلك، بذَّرتُ واستنفدت سنوات عمري. ولا يبدو لي بعيدا عن المعقول أن يوجَد في رَفٍّ بِالكَون كتابٌ شامل؛[1] وأتوسَّل

(١) أكرِّر: يكفي أن يكون كتابٌ ممكنا كي يوجَدَ. وحدَه المستحيلُ هو المَقْصِيُّ. على سبيل المثال: لا كتابَ هو سُلّمٌ أيضا، ولو أنه توجَد، دون شك، كُتُب تُناقِش وتُنكِر وتُدَلِّل على ذلك الإمكان، وأخرى تُطابق بِنيَتُها بنيةَ سُلَّم.

إلى الآلهة المجهولة أن يكون رجُل واحد -واحد فقط، ولو كان ذلك منذ آلاف السنين! - قد فحصه وقرأه. وإذا لم يكن الشرف والحكمة والسعادة من نصيبي، فلتكن السماء موجودة، حتى لو يكن الجحيمُ مكاني. ولْيكن مآلي التحقيرُ والإبادة، لكنْ في لحظة، وفي كائن، فَلْتَثبُتي أنتِ أيتها *المكتبة* الهائلة.

ويؤكِّد الكافرون أنّ الحماقة طبيعية في *المكتبة*، وأن المعقول (وحتى الانسجام المتواضع والخالص) يكادُ يكون استثناءً مُعجِزا. يتحدَّثون (أعرفُ ذلك) عن «*المكتبة* المحمومة التي مُجَلَّداتها المشؤومة تُجرِّب دون توقُّف حظَّ التحوُّل إلى أخرى، وأن الجميع يؤكِّدون ذلك، ويُنكرونه، ويَغلطون فيه كألوهية تَهذي». تلك الكلمات التي لا تُندِّد بالفوضى فقط، بل إنها توضِّحها أيْضا، وتُشْهر إثباتَها سوء ذوقها وجهلها اليائس. في الواقع، تضم *المكتبة* كلَّ البنيات اللفظية، وكلَّ التنويعات التي تسمح بها الرموز الخمسة والعشرون الهجائية، لكن لا حماقة واحدة فقط مُطْلَقة. ولا فائدة من ملاحظة أن أفضل مجلد في الأروقة مسدَّسة الأضلاع التي أُدِيرها عنوانُه *الرَّعد الممشوط*، وآخَر هو تشنُّج من جصّ وآخَر هو *أَشَاشَاشَاسْ مْلُو Axaxaxas mlö*. تلك الاقتراحات تبدو عند النظرة الأولى غير منسجمة، وهي دون ريْب قادرة على تقديم تبرير في كتابة مُشفَّرة أو مجازية؛ ذلك التبرير لفظي، ونظريَّة سابقة، وهي فعلا موجودة في *المكتبة*. وليس بوسعي أنْ أُلائِم بين عدد من الحروف:

dhcmrlchtdj

لم تتوقَّعها *المكتبة* الإلهية، والتي في إحدى لغاتها السرية لا تحوي معنى رهيبا. لا أحد يستطيع أن ينطق حرفا صامتا ليس مشحونا حنانا وخوفا؛ ولا يكون في إحدى تلك اللغات الاسمَ

المُقتدِر لإله. إن التحدُّث هو وقوع في تحصيل الحاصل. وتوجد هذه الرسالة غيرِ المفيدة والثرثارة فِعلا ضمن أحد المجلَّدات الثلاثين، التي بالرفوف الخمسة بأحد الأروقة المُسدَّسة التي لا تُحصى - وكذلك ما يُفنِّدها. (يستعمل عددٌ من n اللغات الممكنة القاموس نفسَه؛ وفي بعضها؛ يَقبَل رمز مكتبة التعريف المصيب *نظام أروقة مسدَّسة الأضلاع موجود في كل مكان ودائم*، لكن مكتبة تُفيد خبزا أو *هرَما* أو أي شيء آخر، ثم إن للكلمات السبع التي تُعرِّفها معنى آخر. أنتَ، يا من تقرأ لي! هل أنتَ متأكد من فهم لغتي؟)

أنا تَشغَلني الكتابة المنهجية عن الوضع الحالي للناس. إن اليَقين بأنّ كلَّ شيء قد كُتب يُلغينا أو يُصيِّرنا أشباحا. أنا أعرف أحياءً سكنية حيث يسجد الشبابُ قُبالة الكتُب، ويُقبِّلون الصفحات بوحشية، لكنهم لا يَعرفون فك شيفرة حرف واحد. لقد أعدمتِ السُّكانَ الأوبئة، والنزاعات الهرطقية، والتَّرحال الذي لا مناصَ من أن يُفضي إلى اللصوصية. أعتقد أني قد أشَرتُ إلى الانتحارات، التي تصير كلَّ عام أكثر تواترا. ربما تخدَعُني الشيخوخة والخوف، لكني أرتاب في أن النوع البشري -هو النوع الوحيد- الذي في طريق الانقراض، وفي أن *المكتبة* ستدوم: وضَّاءَةً، ووحيدة، ولا نهائية، وراسخة بإحكام، ومُجهَّزة بمجلَّدات نفيسة، وغير مفيدة، وغير قابلة للفساد، وسريّة.

كتبْتُ للتّوّ *لا نهائية*. لم أَدُسّ هذا النعت بسبب عادة بلاغية؛ أقول إنه من غير المنطقي تصوُّرُ العالَم لا نِهائيّا. إن من يحكمون عليه بأنه محدود يُسلِّمون بأنه في أماكن قصيّة يُمكن للمَمرّات، وللسلالم، وللأروقة المُسدَّسة، أن تزول -وهو شيء عبثي. وإنّ من يتخيَّلونه بلا حدود ينسون تَوافُرَه في العدد الممكن من الكتب. أنا

أجْرؤ على التلميح إلى هذا الحلّ للمشكلة القديمة: *المكتبة لا حدَّ لها ودَوريَّة*. إذا ما عبَرها مُسافر أبديٌّ في أيِّ اتجاه، فإنه سيتثبَّت بتوالي القرون من أنّ المجلَّدات نفسَها تتكرَّر في الفوضى نفسِها (التي، بالتَّكرار، قد تصير نظاما: *النظام*). إن عزلتي تُسَرُّ بذلك الأمل الأنيق.[1]

---

(١) لاحظتْ لِتِيثْيَا أَلْفارِسْ دِطُولِدُو أن *المكتبة* الشاسعة غير نافعة؛ وبدقة، يكفي مُجلَّد *واحد*، ذو شكل مألوف، مطبوع في حجم قياسُه تسعة أو عشرة، ويتألَّف من عدد لا نهائي من صفحات دقيقة إلى ما لا نهاية. (لقد قال كافالْيِيري، في بداية القرن السابع عشر، إن كلَّ جسم صلب هو تَراكُب لعدد لا نهائي من السطوح.) إن استعمال ذلك *الكُتيِّب* الحريريّ قد لا يكون مُريحا: كلُّ ورقة ظاهرة ستُبْسَط في أخرى متماثلة؛ ولن يكون للصفحة التي لا يُمكن تصوُّرها قَفًا.

حديقة الشِّعابِ التي تتفرَّع

إلى فِيكتورْيا أُوكامْبُو

يُقرَأ، في الصفحة ٢٤٢ من *تاريخ الحرب الأوربية* لِلِيدِّلْ هارْتْ، أنَّ هجوما من ثلاث عشرة فرقة بريطانية (مدعومة من أربعمائة وألف قطعة مدفعية) على خطّ سِرِّ-مُونْطاوْبان كان قد خُطِّط لتنفيذه يوم ٢٤ يوليوز ١٩١٦، واقتضى الأمرُ إرجاءه حتى صباح يوم ٢٩. تسبَّبت الأمطار الجارفة (يُسجِّل النقيب لِيدِّلْ هارْتْ) في ذلك التأخير - وهو شيءٌ لا أهمية له، بالمناسبة. ويُلقي التصريحُ التالي ضوءً لا ارتياب فيه على الحالة، وقد أملاه الدكتور يُو تْسُونْ، وأعاد قراءتَه، ووقَّعه، وهو أستاذ كرسي سابق للإنجليزية بِهُوشْشْشُولي في تْسِينْجْتاوْ. وتنْقُصُه الصفحتان الأُولَيان.

«. . . فرفعتُ مِقبض الهاتف. وفَوْرا تعرَّفتُ الصوتَ الذي كان قد أجاب بالألمانية. كان صوتَ النقيب ريتشارد مادِّنْ. وجود مادِّنْ في شقة فيكتور رُونبِرْغ، يعني نهاية عنائنا وحياتَيْنا أيضا، لكنّ ذلك بدا ثانويا جدا، أو كذا يكون قد بدا لي. ودِدتُ أن أقول إنّ رُونبِرْغ كان قد أُوقِف، أوِ اغْتيلَ.[1] وقبل غروب الشمس ذلك اليوم، كِدتُ

---

(١) فرضية حاقدة احتيالية. لقد جرحَ الجاسوسُ البروسي هانْز رابِنِرْ المعروف

أُصادف المصيرَ نفسَه. كان مادِّنْ مُتصلِّبا، أو بالأحرى، كان مُجبَرا على أن يكون متصلِّبا. كان إِرْلانْديا تحت أوامر إنجلترا، رجُلا متَّهَما بانعدام الحَماس، وربما بالخيانة. كيف له ألَّا يُعانق ويَشكُر هذا المعروف المُعجِز: أن يكتشف ويقبض وربما يقتل عميليْن اثنيْن للإمبراطورية الألمانية؟ صعدتُ إلى غرفتي؛ وبشكل عبثي أوصدت الباب بالمفتاح، واستلقيْتُ على ظهر في السرير الحديدي الضيِّق. من النافذة كنت أرى الأسطح التي تعوَّدتُ رؤيتها وشمس السادسة الغائمة. وبدا لي أمْرًا لا يُصدَّق أنه في ذلك اليوم الذي دُون تحذيرات مُسبقة ولا رموز كان يوم موتي الحتمي. على الرغم من موت أبي، وعلى الرغم من كوني كنتُ طفلا في حديقة متماثلة في هَايْ فِينْج. أأنا، الآن، سأموت؟ بعد ذلك، فكَّرتُ في أنَّ كلَّ الأشياء تَحدث للمرء تحديدا، وتحديدا الآنَ. قرونٌ من القرون وفي الحاضر وحْدَه تحدث الوقائع؛ أشخاص لا يُحصَون يُحلِّقون في الهواء، ويمشون في الأرض، ويسبحون في البحر، وكلّ ما يَحدُث حقيقةً يحدُثُ لي أنا... إن الذكرى التي لا تكاد تُطاق للوَجه الخَيليّ لِمادِّن أبطلتْ تلك الهذيانات. فكَّرتُ وأنا في خضم حقدي وفزعي (الآن لا يهمني في شيء أن أتحدَّث عن الرعب: الآن وقد سخِرتُ من ريتشارد مادِّنْ، الآن وقد حنَّ عُنُقي إلى الحبل) في ذلك المُحارِب الصاخب، والسعيد دون شك، لم يكن يشك في أني أمتلك *السِّرّ*. الاسم للمكان الدقيق لرَحبة المدفعية البريطانية المُشرِف على نهر *أَنْكْرْ*. بزغ طائر في السماء الرمادية، ودون تريُّث ترجمتُه إلى

بفيكتور رُونبِرْغ بمسدَّس أوتوماتيكي حاملَ الأمر بالإيقاف، النقيبَ ريتشارد مادِّنْ. هذا الأخير، وفي دَفاع منه عن ذاته، تسبَّبَ له في جروح أفضتْ به إلى الموت. (ملاحظةُ الناشر.)

طائرة، وتلك الطائرة ترجمتُها إلى كثيرات (في السماء الفرنسية) تُبيد رحبة المدفعية بقنابل عمودية. لو يستطيع فمي، قَبل أن تُخرِّبه رصاصةٌ، أن يصرخ بذلك الاسم بحيث يُسمَعُ في ألمانيا... صوتي البشري كان ضعيفا جدا. كيف لي أن أُوصِله إلى مَسمع الرئيس؟ إلى مسمع ذلك الإنسان المريض والحاقد، الذي لا يَعْلم شيئا عن رونبِرْغ وعني سوى أننا كنا في ستافوردشِير، وأنه انتظرَ عبثا أخبارَنا في مَكتَبه القاحل ببرلين.، وهو يفحص الجرائد إلى ما لا نهاية... قُلتُ بصوت عال: «عليّ بالهَرَب». استويْتُ واقفا دون ضجيج، في صمت كامل وغير مُجْد، كما لو أن مادِّنْ كان يترصّد بي. شيء ما – ربما مجرَّد التَّباهي بتجريب إن كانت مَواردي صِفرا– جعلني أفتش جَيْبيَّ. عثرتُ على ما كنتُ أَعلم أني سأجده. الساعةُ الأمريكية، وسلسلة النِّيكل والعملة النقدية المُربَّعة الزوايا، وحِمالة المفاتيح بمفاتيحها المُثيرة للشُّبهة وغير المُفيدة لشقة رونبرغ، والكُرّاسة، ورسالة حسَمتُ في تدميرها فورا (والتي لم أُدمِّرها)، وجوازُ السفر المزوَّر، وعملة كورونا، وشِيلِينَان اثنان، وبضع بَنْسَات، وقلم الرصاص الأحمر-الأزرق، والمنديل، والمُسدَّس برصاصة واحدة. عَبَثًا أمسكتُ به، وأمعنتُ النظر فيه ليمنحني الشجاعة. في غموض فكَّرتُ في أن طلقةَ مسدَّس يُمكن أنْ تُسمَع بعيدا جدا. في عشر دقائق كانت خطتي قد نضجت. قدَّم لي دليل الهاتف اسم الشخص الوحيد القادر على نقل الخبر: كان يعيش بضاحية في فِنْتُون، على مسافة تَقِلّ عن نصف ساعة في القطار.

أنا رجُل جبان. أقولها الآن، الآن وقد أتممتُ خطّةً لا يُمكن لأيّ أحدٍ إلا أن ينعتها بالمُجازِفة. أنا أَعرِف أن تنفيذها كان رهيبا. لم أفعلْ ذلك من أجل ألمانيا، لا. لا يَهمّني في شيء بلَدٌ متوحِّش،

كان قد أجبرني على خساسة التحوُّلِ إلى جاسوس. للإضافة، أنا أَعلَمُ أنّ رجُلا من إنجلترا -رجُل متواضع هو بالنسبة إليّ ليس بأقلَّ من غُوتِه. لم أتحدَّثْ معه أكثر من ساعة، لكنّه طيلة ساعةٍ كان غُوتِه. . .فعلتُ ذلك، لأني أحسستُ أن الرئيس كان يحتقر أبناء جنسي -وأسلافيَ الذين لا يُحصَون والذين يلتقون فيَّ. أردتُ أن أُثبِتَ له أن رجُلا أصْفَر يُمكنه أن يُنقذَ جيوشَه. إضافة إلى أنه كان عليَّ أن أفِرَّ من النقيب. إن يديْه وصوتَه كانا يُمكنُهما أن يَخبِطا بابي في أيّ لحظة. ارتديتُ ملابسي دون ضجيج، وقُلتُ لنفسي وداعا أمام المرآة، نزلتُ، استقصيْتُ الشارعَ الهادئ وخرجتُ. لم تكن المحطة بعيدة عن البيت كثيرا، لكنّي خمَّنتُ أنّ الأفضلَ امتطاءُ سيارة. استنتجْتُ أني هكذا سأقلِّل من خطر أنْ يُتعرَّف إليَّ؛ والواقع هو أني في الشارع الخالي كنتُ أُحِسُّني مَرئيًّا ويَسهُل النَّيل مني، إلى ما لا نهاية. أتذكَّرُ أني طلبتُ من السائق أن يقف على مسافة قليلة من المدخل الرئيس. نزلتُ ببطء إراديّ يكاد يكون مُتعِبا؛ كنتُ ذاهبا إلى قرية *أَشْغْرُوفِي*، لكني اشتريْتُ رحلة إلى محطّة أبْعَد. كان القطار سينطلق في غضون دقائق قليلة، على الساعة الثامنة وخمسين دقيقة. عجَّلت الخطى؛ فالقطار القادم سيخرج في التاسعة والنصف. لم يكن من أحد على الرصيف تقريبا. جُبْتُ العربات: أتذكَّر بضعة فلاحين، وامرأة في حِداد، وشابا يقرأ في حماس *حَوْليات تاسِيتُو*، وجنديا جريحا وسعيدا. انطلقت العربات أخيرا. تعرَّفتُ رجُلا جرى سُدًى حتى نهاية الرّصيف. كان الرَّجل هو النقيب ريتشارد مادِّن. مُنهَكا، ومرتجفا، وانكمشتُ في الطرف الآخر من المَقْعد، بعيدا عن زجاج النافذة المُخيف.

انتقلتُ من تلك الإبادة إلى السعادة التي تكاد تكون دنيئة.

حدَّثتُ نفسي بأن مُبارزتي كانت قد بدأتْ، وأني كنتُ قد فزت بالشوط الأول، بإحباطي، حتى مدَّة أربعين دقيقة، هجومَ خصمي. استنتجْتُ أن ذلك الانتصار الأصغر رَسم مُسبّقا معالم النصر الكُلّيِ. استخلصتُ أنه لم يكن انتصارا أَصْغرَ، ذلك أنه دُون ذلك الاختلاف الثمين الذي قدَّمه لي توقيتُ القطارات، لكنتُ في السجن، أو ميِّتا. استنتجتُ (ليس بتعقيد أقَلّ) أن سعادتي الرِّعديدة كانت تُبرهِن على أنني كنتُ رجُلا قادرا على أنْ أجعل المغامرة تؤتي بنجاح أُكُلَها. أتوقَّع أن الإنسان سيستسلم يوما تلو يوم لِمَساعٍ أفْظَع؛ وقريبا لن يكون من وجود سوى لمحاربين ولصوص؛ أُقدِّم لكم هذه النصيحة: «يَلزَم منفِّذ مسعى فظيع أن يتخيَّل أنه فعلا قد أنجزَه بكامله، يجب أنْ يَفْرض مُستَقبَلا لا رجعة فيه مثلما الماضي». هكذا أنا تصرَّفتُ، بينما عيْناي اللتان هما عينا رجُل ميِّت الآن كانتا تُسجِّلان انسيابَ ذلك اليوم الذي ربما كان الأخير، وانسدالَ الليل. كان القطار يجري في عذوبة، بين أشجار المُرَّان. توقَّف، في وسط البادية تقريبا. لا أحدَ هتف باسم المحطَّة. *أشْغْرُوفي*؟ سألتُ بعضَ الأولاد الموجودين على الرصيف. «*أشْغْرُوفي*»، أجابوا. نزلْتُ.

الرصيف كان مُضاء بمصباح، لكن وجوه الأطفال بقيت في منطقة العتمة. سألني أحدُهم: «هل أنتَ ذاهب إلى بيت الدكتور سْتيفِن أَلْبِرْت؟». ودون انتظار إجابةٍ، قال آخَر: «البيت بعيد عن هذا المكان، لكنك لن تضِلّ إذا اتّبعتَ هذا الطريق يسارا، وعند كل ملتقى طرق استدر يسارا». رميْتُ لهم قطعة نقدية (الأخيرة)، ونزلتُ أدراجا حجرية، وخضتُ في الطريق المقفر. هذا الأخير، كان ينحدر وئيدا. كان تُرابيّ العناصر، وفوْقُ كانت الأغصان تتشابك، وكان القمر النازل والدائري يبدو مصاحِبا إياي.

تخيَّلتُ، للحظة، أنَّ ريتشارد مادِّن كان قد اخترق بطريقة ما نيّتي اليائسة. وسريعا فهمت أن ذلك كان مستحيلا. ذكَّرتني النصيحةُ؛ أنْ أنعطف إلى اليسار دوما؛ بأن الإجراء الشائع هكذا كان لأجل اكتشاف الفِناء المركزي لبعض المتاهات. أعرف شيئا ما عن المتاهات: ليس عبثا أني ابنُ حفيد تْسْوِي بِنْ، الذي كان حاكم يُونَّانْ، والذي تخلى عن سلطته المؤقتة كي يكتب روايةً لا تزال أكثر شعبيّة من هُونْغْ لُو مِنْغْ، ولكي يبني متاهة يضيع فيها كلّ البشر. ثلاثَ عشرة سنة صَرَفها لتلكما العمليّتيْن المُتعِبتيْن وغير المتجانِستيْن، لكنّ يَدَ غريبٍ اغتالته، وروايتُه كانت خرقاءَ، ولا أحد عثر على المتاهة. أسفل أشجار إنجليزية فكَّرتُ في تلك المتاهة الضائعة: تخيَّلتُها لم تُطرَق، وكاملةً في القمة السّريّة لجَبَل، تخيّلتُها ممحُوَّةً بحقول الأرزّ، أو تحت الماء، تخيَّلتُها لا نهائية، وليست من الأكشاك ثمانية الزوايا، أو من الشِّعاب التي تدور على نفسها، وَإنما من أنهار وأقاليم وممالك... فكَّرتُ في متاهة لمتاهات، في متاهة متعرِّجة ومتنامية، تضم الماضي والمستقبَل، وبصيغة ما تَتضمّن النجومَ. مستغرِقا في تلك الصُّوَر الخادعة، نسيتُ مصيري بصِفتي ملاحَقا. أحسستُني، لوقت غير محدَّد، مُدرِكا للعالَم مُجرَّدا. البادية غامضة وحية، والقمر، وبقايا المساء، فعلتْ فعلها فيَّ؛ وكذلك الانحدار الذي كان يحذف أي إمكانية للتعب. كان المساء حميما، لا نهائيا. الطريق كان يَنزل ويتفرَّع، بين المروج الغامضة فعلا. كانت موسيقى حادّة وكأنها مقطعية تدنو وتنأى بين ذهاب وإياب الريح، محشوَّةً أوراقا ومسافة. فكَّرتُ في أنّ إنسانا يُمكن أن يصير عدوّا للبشر الآخَرين، ولكنْ ليس عدوّا لِبلد: عَدُوَّ حباحب، وكلمات، وحدائق، ومَجاري ماء، والرياح الغربيّة. وصلتُ، هكذا،

إلى بوَّابة عالية وصدئة. ميّزتُ بين شبيكة الحديد ممرّا من شجر الحَوَر، ونوعا من السُّرادق. فهمتُ، فجأة، شيْئيْن، الأوّل مُبتَذل، والثاني يكاد لا يُصدَّق: كانت الموسيقى تأتي من السرادق، كانت موسيقى صينية. لذلك، أنا كنتُ قد تقبَّلتُها بامتلاء، دون أن أوليَها اهتماما. لا أتذكَّر إنْ كان هناك ناقوس أو جرس، أو إن كنتُ قد طرقْتُ البابَ بيديَّ. تَواصل رنين الموسيقى.

لكن من عمق البيت الحميم شرع مصباحٌ في الاقتراب: مصباح كانت الجذوع تخدشه وبين الفينة والفينة تُخفيه، مصباح من ورق، كان له شكل الطبول ولون القمر. جلبَه رجُل طويل. لم أرَ مُحيّاه، لأن النور كان يُعميني. فتح البوابة، وقال بلغتي على مهل.

- أرى أنّ الوَرِع هْسِي بِنْغْ يُصرّ على إصلاح عُزلتي. أنتَ دون شك ترغب في رؤية الحديقة؟

تعرَّفتُ اسمَ أحد قناصلتنا، فكرَّرتُ في ارتباك:

- الحديقة؟

- حديقة الشِّعاب التي تتفرَّع.

شيءٌ ما ارتجّ في ذاكرتي، فتلفَّظتُ في وثوق غير مفهوم:

- حديقةُ سَلَفي تْسْ وِي بِنْ.

- أَسَلفك؟ سلفُك ذائعُ الصّيت؟ تفضَّلْ.

كان الشِّعْب النّديّ يتعرَّج مثلما شِعاب طفولتي. وصلْنا إلى مكتبة كُتُب شرقية وغربية. تعرَّفتُ بعضَ المجلَّدات المخطوطة من *الموسوعة الضائعة*، مُغَلَّفة في حرير أصفر، أدارَها *الإمبراطور الثالث* من *السلالة المَلكية النَّيِّرة*، والتي لم يُسلِّمها إلى المطبعة أبدا. كانت أسطوانة الحاكي تلف إلى جانب عنقاءَ من برونز. أتذكَّر، كذلك،

إناءً للأُسرة الوردية وآخَر سابقا عليه بقرون كثيرة، بذلك اللون الأزرق الذي نسخه صُنّاعُنا عن فَخّاري فارسَ...

كان سْتيفِنْ أَلبِرْت يُراقبني مُبتَسِما. كان (قلتُ ذلك سابقا) فارع الطول، ذا قسمات حادة، وعينيْن رماديَتيْن، ولحية رمادية. كان فيه شيء من هيئة الكاهن، وكذلك من هيئة بَحّار؛ بعد ذلك قصّ عليّ أنه كان مُبشِّرا في تِينْسْتينْ «قبل أن يتطلَّع إلى مَنْصب عالِمٍ بالدراسات الصينيّة».

جلسْنا؛ أنا في كنبة طويلة وواطئة؛ وهو مُوليا ظَهرَه للنافذة ولساعة عالية ودائرية. حَسبْتُ أنه قبل انصرام ساعة لن يَصِل مُلاحِقي، رتشارد مادّن. قراري الذي لا رجعة فيه بوُسعِه أن ينتظر.

- مُدهِش مصيرُ تْسْ وِي بِنْ -قال سْتيفن ألبرتْ-. حاكِم الإقليم الذي وُلِد فيه، والمتضلِّع في الفلَك، وفي التنجيم، وفي التأويل الذي لا يَكِلّ للكُتُب المُقدَّسة، ولاعب شطرنج، وشاعر شهير، وخطّاط: هجر كلَّ شيء لينصرف إلى تأليف كتاب وبناء متاهة. تخلّى عن لذّة القمع، والعدل، والأسِرّة العديدة، والولائم، وحتى عن التبحُّر في العلوم، وأغلق على نفسه طيلة ثلاث عشرة سنة في سُرادق بناية *العزلة الرائقة*. وعند وفاته، لم يعثر ورثتُه سوى على مخطوطات فوضوية. رغِبت العائلة، مثلما تَعْلَم، أن تَخصَّ بها النارَ؛ لكن مُنفِّذ الوصية -وهو راهب طَاوِيٌّ أو بوذِيٌّ- ألحَّ على النَّشر.

- نحن الذين تسري فينا دماءُ تْسْ وِي بِنْ -أجَبْتُ- لا نزال نلعن ذلك الراهب. ذلك النشر كان عملاً أخْرَقَ. الكِتاب تراث حائر من المسوَّدات المتناقضة. لقد تفحَّصتُه ذات مرة: يموت البطل في الفصل الثالث، وفي الرابع هو حيٌّ. أما في ما يخص المَسعى الآخَر لِتْسْ وِي بِنْ، أي متاهته...

– ها هنا هيَ المتاهة قال وهو يُشير إلى مكتب عالٍ مصموغ.

– متاهة من عاج! –صِحتُ–. متاهة صَغيرة جدا. . .

– متاهة من رموز –صحّحَ–. متاهةُ زمنٍ غيرُ مرئية. لقد هُيِّئ لي، أنا الإنجليزي المتوحِّش، الكشفُ عن ذلك اللغز الصافي. بعد انقضاء مائة عام، يصير مستحيلا استعادة التفاصيل، لكن ليس من الصعب تخمين ما حدَث. مرّةً قال تْسْ وِي بِنْ: «أنسحبُ لتأليف كتاب». وقال مرَّة أخرى: «أنسحب لبناء متاهة». تخيَّل جميعُ الناس عملَيْن؛ ولا أحد تصوَّر أن الكتاب والمتاهة شيء واحد. إن سُرادق *العزلة الرائقة* كان ينتصب في مركز حديقة ربما مشتبكةٌ نباتاتُها؛ ويُمكن أن تكون الواقعةُ قد أوحتْ للبشر بمتاهة مادية. تْسْ وِي بِنْ مات؛ لا أحَدَ، في الأراضي المتمدِّدة التي كانت أراضيه، صادف المتاهة؛ وارتباك الرواية أوحى إليَّ بأن الأخيرة كانت هي المتاهة. هنالك ظَرفان قدَّما لي الحلَّ الصائب للمشكلة. واحد: الخرافة العجيبة الذاهبة إلى أن تْسْ وِي بِنْ كان قد قصد متاهة تكون لانهائية بإحكام. وآخَر: مقطعٌ من رسالة اكتشَفتُها.

انتصب ألبرتْ. وَلّاني ظهرَه للحظات؛ فتح دُرجا بالمكتب الذهبي والأدْكَن. عاد بورقة كانتْ قِرمزيةً سابقا؛ وهي الآن ورديّة ورقيقة وذات مربَّعات. كانت مكتوبة بالخط ذائع الصِّيت باسم الخَطاط لِتْسْ وِي بِنْ. قرأتُ دون استيعاب وبحماس هذه الكلمات التي حرَّرها بريشة دقيقة رَجُلٌ من أبناء جنسي: «أترُكُ للمستقْبَلات المتنوعة (وليس لها جميعا) حديقتي ذات الشِّعاب التي تتفرَّع». أعدْتُ الورقةَ في صمت. ألْبرتْ واصلَ:

– قبل النبش عن هذه الورقة، كنتُ قد تساءلتُ عن الطريقة التي يصير بها كتابٌ لا نهائيا. لم أُخمِّنْ إجراء آخَر سوى ذاك الذي لمجلَّد

دَوْرِيٍّ، الدائري. مجلّدٌ تكون صفحتُه الأخيرة مطابقةً للأولى، مع إمكانية مواصلة القراءة إلى ما لا نهاية. كذلك تذكَّرتُ تلك الليلة التي توجد في مركز *ألف ليلة وليلة*، لمّا شرعت فيها الملكة شهرزاد (بسبب سهو سحري من الناسخ) تحكي نَصِّيًا حكاية *ألف ليلة وليلة*، مجازِفةً بالوصول مرَّةً أخرى إلى الليلة التي تُسرَدَ فيها حكايتُها، وهكذا حتى إلى ما لا نهاية. كذلك تخيَّلتُ عملا أفلاطونيا، وراثيا، نُقِل من أبٍ لابنه، والذي يُضيف فيه كلُّ فَردٍ جديد فَصْلا أو يُصحِّح في عناية ورِعة صفحةَ الكِبار. لقد سلَّتني تلك التخمينات؛ لكنْ لا تخمينَ بدا مناسبا، حتى بصيغة قصيّة، مع تناقُضات فصول تْسْ وِي بِنْ. في خضم ذلك الارتباك، بُعِث إليَّ المخطوط الذي فحصتَه. توقَّفتُ، كما هو طبيعي، عند جملة: «أترُكُ للمستقْبَلات المتنوعة (وليس لها جميعا) حديقتي ذات الشِّعاب التي تتفرَّع». وتقريبا في الحال فهمتُ؛ *الحديقة ذات الشِّعاب التي تتفرَّع* كانت الرواية الفوضوية؛ وأوحتْ إلي جملة *المستقْبَلات المتنوعة (وليس لها جميعا)* بصورة التفرُّع في الزمن، وليس في المكان. وأكَّدتْ لي إعادةُ قراءة العمل العامّةِ تلك النظرية. في كل القصص، كلَّ مرَّة يواجه فيها إنسان خيارات متنوّعةً، فإنه يختار واحدا، ويُبطل الأخرى؛ وفي قصة تْسْ وِي بِنْ التي تكاد لا تُفَكّ عُقدُها، يختارُها جميعا تزامُنيا. هكذا، يَخْلُق، مُستقبَلات متنوعة، وأزمنة متنوعة، هي بدوْرها تتكاثر وتتفرَّع. من هنا كانت تناقُضات الرواية. فانْغْ، لِنَقُل، لديه سر؛ طرق بابَه مجهول؛ فقرَّر فانْغْ قتلَه. بالطبع، توجد حلول متنوعة ممكنة: يُمكن لفانْغْ أنْ يقتل الدَّخيلَ، ويُمكن للدَّخيل أنْ يقتل فانْغْ، ويُمكن لكليهما أن يُفلتا، وكلاهما يمكن أن يموت، إلخ. في عمل تْسْ وِي بِنْ تَحْدُث كلُّ حلول العُقد؛ كل واحد هو

نقطة انطلاق لتفرُّعات أخرى. ذات مرّة، تلاقتْ شِعابُ تلك المتاهة: على سبيل المثال، أنت تصِل إلى هذا البيت، لكنْ في زمن من الأزمنة الماضِية الممكنة أنتَ عدُوّي، وفي آخَر أنتَ صديقي. إذا ما أنتَ استسلمتَ لتلفُّظي المُستعصي، فإننا سنقرأ بضع صفحات.

كان وجهه، في دائرة المصباح الحية، دون شك وجْهَ مُسِنٍّ، لكنّ به شيئا لا ينكسر وحتى خالد. قرأ بدقة وئيدة تحريرَيْن من فصل ملحمي بعينه. في التحرير الأول، يَمضي جيش في اتجاه معركة عبر جبل مقفر؛ رُعبُ الحجارة والظّلّ يجعله يزدري الحياة، ويُحقق الانتصار بيُسر؛ في التحرير الثاني، يَعبر الجيش نفسُه قصرا تُقام فيه حفلةٌ؛ فبدت للجنود المعركةُ الزاهية استمرارا للحفلة، وأحرزوا الانتصار. كنت أستمع في احتشام مُبجِّل إلى تلك القصص القديمة، ربما هي أقلّ روعة من واقعة أن يكون دمي قد ابتكرها، وأن يكون رجُلٌ من إمبراطورية قصية يُرمِّمُها لي، في غمرة مغامَرة يائسة، في جزيرة غربية. أتذكَّر الكلمات الختامية، التي تتكرَّر في كلِّ تحرير كأنها وصايا سرّيّة: «هكذا قاتَل الأبطال، القلبُ المُدهِش هادئٌ، والسيف عنيفٌ، وكلاهما خاضع لأمْرَيِ القتل والموت».

منذ تلك اللحظة، أحسستُ حولي وفي جسدي الغامض بعجيج غير مَرئي وغير ملموس. لم يكن عجيج الجيوش المتباعِدة، والمتوازية، وأخيرا المتلاحمة، وإنما ارتجاج أكثر تعذُّرا على البلوغ، وأكثر حميمية، ذاك الذي كانوا بصيغة ما يتصوَّرونه مسبَّقا. واصل سْتيفِن ألْبِرت:

– لا أعتقد أن سَلفَك الشهير كان يلعب التنويعات من باب التسلية. أنا لا أحكم على مصداقية تضحيته بثلاث عشرة سنة للتنفيذ اللانهائي لتجربة بلاغية. في بلدك، الرواية جنس تابع؛ في ذلك

الزمان كانت جنسا محتَقَرا. تْسْ وِي بِنْ كان روائيا عبقريا، لكنه كان رجل أدب أيضا، ودون شك لم يعتَبَر نفسَه مجرَّد روائي. وتُعلِن شهادة معاصريه (وكذلك تؤكِّد حياتُه) هواياتِه الميتافيزيقية، والزهدية. ويستحوذ الجدال الفلسفي على نصيب مهم من روايته. أعرفُ أنه من بين كل المشاكل، لا أحدَ أقلقَه واشتغل به شأن المشكل اللُّجّي للزمان. ومع ذلك، فذاك هو المشكل *الوحيد* الذي لا يظهر في صفحات *الحديقة*. إنه لا يستخدم حتى الكلمة التي تعني *الزمان*. كيف تُفسّر إرادةَ الإغفال تلك؟

اقترحْتُ حلولا متنوعة؛ جميعَها غير كافية. ناقشناها؛ في الأخير، قال لي سْتيفن ألبرت:

- في أحجية موضوعها هو الشطرنج، ما الكلمة الوحيدة الممنوعة؟

فكَّرتُ للحظة وأجبْتُ:

- كلمة شطرنج.

- تماما -قال ألبرت-، *حديقة الشِّعاب التي تتفرَّع* هي أحجية هائلة، أو أمثولة، موضوعُها الزمان؛ وتلك القضية الخفية مَنعتْه من أنْ يُشير إلى اسمها. أن تنسى *دائما* كلمةً، وأن تلجأ إلى استعارات عديمة الأهلية، وإلى كنايات بيِّنة، ربما كانت الصيغة الأكثر تفخيما لتعْيينها. إنها الصيغة الملتوية التي فضَّلها، عند كل واحد من تعرُّجات روايته التي لا تَتعب، إنه تْسْ وِي بِنْ الملتوي. لقد قابلتُ بين مئات المخطوطات، وصحَّحت الأخطاء التي أدرَجَها إهمالُ النُّساخ، وخمَّنتُ خطَّةَ تلك الفوضى، وأعَدْتُ إصلاح النظام الأصلي، أو اعتقَدْتُ أني أعدْتُ إصلاحَه، وترجمْتُ العمل برمَّته:

أعْلَمُ أنه لا يستخدم ولو مرَّة واحدة كلمة *زمان*. التفسير جلِيٌّ: حديقة *الشِّعاب التي تتفرَّع* هي صورة غير مكتملة للكون، مثلما تمثَّله تْسْ وِي بِنْ، لكنها ليست مزيَّفة. وبخلاف نْيُوتُن وشوبنهاور، فإن سَلَفه لم يكن يؤمن بزمان ذي نَسَق واحد، مطلَق. كان يُؤمن بسلسلة لا نهائية من الأزمنة، في شبكة متنامية وُدُوارية لأزمنة متباعِدة، ومتقاربة، ومتوازية. حُبكة الأزمنة تلك، التي تتقارب، هي تتفرَّع، وتتقطَّع، أو هي تُتناسى قَرْنًا تلو قرن، إنها تَضُمّ *كلّ* الاِحتمالات. إننا لا نوجد في مُعظم تلك الأزمنة؛ في بعضها توجَد أنتَ لا أنا؛ وفي أخرى أنا الذي يوجَد، ولستَ أنتَ؛ وفي أخرى، نوجَد نحن الاثنيْن. في هذا الزمان، الذي هيّأه لي حظٌّ ملائم، أنتَ وصلْتَ إلى بيتي؛ وفي آخَر، أنتَ عند عبورك الحديقة، وجدتَني ميّتا؛ وفي آخَر، أنا أقول هذه الكلمات نفسَها، لكنني خَطَأ، أو شبَح.

- في جميعِها -نطقتُ دون ارتجاف- أشْكُر وأُبجِّل إعادة إبداعِك لحديقة تْسْ وِي بِنْ.

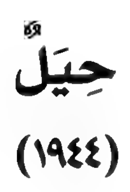
- ليس في جميعها -تتمتم وهو يرسم بسمة-. يتفرَّع الزمان أبديّا في اتجاه مُستَقبَلات لا حصر لأعداها. في أحدِها أكون أنا عَدوَّك.

عدْتُ إلى الإحساس بذلك التكاثر الذي تحدَّثتُ عنه. بدا لي أن الحديقة النديَّة التي تُحيط بالبيت مُتخمَة إلى ما لا نهاية بشخوص غير مرئيّين. أولئك الأشخاص كانوا ألبرت وأنا، سِرّييْن، ومشغوليْن، ومُتَعدِّدَيِ الشكل في أبعاد أخرى للزمان. رفعْتُ العيْنيْن فانقشع الكابوس الخفيف. في الحديقة الصفراء والسوداء كان هناك رجُل واحد؛ لكنّ ذلك الرجل كان قويا مثل تمثال، وكان ذلك الرَّجُل يتقدَّم عبر الشِّعب، كان هو النقيب ريتشارد مادِّن.

- المُستقبَل فِعْلا موجود -أجبتُ-، لكني أنا صديقُك. هل يُمكنني أنْ أفحص الرسالة مجدَّدا؟

نهض ألبرت بقامته الطويلة، وفتح الدّرج الأعلى في المكتب؛ أَوْلاني ظهرَه لحظةً. كنتُ قد أعددْتُ المسدّس. أطلقتُ عليه النار بدقة متناهية: انهار ألبرت دون أيّ تشَكّ منه، في الحال. أُقسِمُ أنّ موتَه كان فوريا: كان صعقة.

البقيَّة غير واقعية، ولا أهمية لها. اقتحم مادّن المكان، وأَلقى القبض علي. حُكِم عليَّ بالشنق. وبشكل بغيض انتصرتُ: أبْلغتُ المسؤولين في برلين الاسمَ السّرّيّ للمدينة التي يَلزَمُهم أن يُهاجموها. أمسِ قصَفوها؛ قرأتُ ذلك في الجرائد نفسِها التي عرضت على إنجلترا لغزَ أنْ يموت العالِم بالكتابة الصينية ستيفن ألبرت مُغتالا من قِبل مجهول، يُدعى يُو تْسُون. لقد فكّ الرئيس تلك الشيفرة. هو يعرف أنّ مشكلتي كانت في تعيين (خلال ضوضاء الحرب) المدينة التي تُسمى ألبرتْ ولم أجدْ أيّ وسيلة أخرى سوى قتل شخص يحمل ذلك الاسم. لا يَعلَم (لا أحَد يُمكنه أن يعلم) ندمي الذي لا حصر له وتَعبي.»



حِيَلٌ

(١٩٤٤)

تمهيد

على الرغم من التنفيذ الأقلّ لباقةً لمكوِّنات هذا الكتاب، فإنها لا تختلف عَمّا في الكتاب السابق. لربما يسمح اثنان منها بإشارة دقيقة: «الموت والبوصلة» و«فُونِسْ قَوِيُّ الذاكرة». الثاني استعارة للأَرَق طويلة. والأوّل، على الرغم من الأسماء الألمانية أو الإسكندنافية، تدور أحداثُه في بوينوس آيْرِس حُلُميّة: في شارع تُولُونْ المتعرِّج هو ممَرّ خُولْيو؛ حيث تْريسْتي-لُو-رُويْ، الفندق الذي توصَّل فيه هِرْبرتْ آشِي، المجلَّد الحادي عشر من موسوعة متوَهَّمة، والتي ربما لم يقرأها. الآن وقد حُرِّرتْ تلك القصة، فكَّرت في ملاءمة توسيع ما تحويه من زمان ومكان: يُمكن للثأر أن يُورَّث؛ ويُمكِن للمُهَل أنْ تُحسبَ بالأعوام، ربما بالقرون؛ الحَرف الأوّل من الاسم يُمكن أن يُنطق في إيسلاندا؛ والثاني، في المكسيك؛ والثالث، في الهندوستان. هل أُضيف أنّ الْحَسِيدِيِّين أدرجوا قِدّيسين وأنّ التضحية بأربع حيوات للحصول على الحروف الأربعة التي تؤلِّف الاسْمَ تخيُّل أملى عليّ شكلَ قصتي؟

حاشية ١٩٥٦. لقد أضفْتُ ثلاث قصص إلى السلسلة: «الجنوب»، و«طائفة العنقاء»، و«النهاية». عدا شخصية واحِدة - رِكابارّنْ- التي بثباتها وباستكانتها تُستخدَم لإبراز التعارض، فإن لا

شيء أو تقريبا لا شيء من اختراعي في المرور الوجيز لأحداث القصة الأخيرة؛ فكلُّ ما يوجد فيها هو مُتضمَّن في كتاب شهير، وأنا كنتُ الأوّلَ في الاطلاع على مكنونه، أو، على الأقلّ، في الإفصاح عن ذلك. في أمثولة *العنقاء* ألْزمْتُني بقضية الإيحاء بواقعة عام - *السِّرّ*- بطريقة مُتذَبذة ومتدرِّجة انتهتْ، في الأخير، غيْرَ مُلتبِسة؛ ولست أدري إلى أيّ مدى حالفني الحظ معها. أما عن «الجنوب»، التي ربما تكون أفضل قصة، فيكفيني أن أنبه إلى إمكان قراءتها بصفتها سردا مباشرا لوقائع روائية، وكذلك بصيغة أخرى.

ويُشكِّل كل من شوبنهاور، ودي كينْسي، وسْتِفنسون، وماوْتنِر، وشَاو، وشِسْتِرْتون، ولِيُونْ بْلويْ، التَّعدادَ المتنافِر للمؤلِّفين الذين أُعيد قراءتهم باستمرار. وأعتقد أني أحسستُ بالتأثير القصي للأخير، في المُخيِّلة المَسِيحُولُوجية[1] التي عنوانها «ثلاث روايات ليهوذا».

خ.ل.ب

بوينوس آيْرِس، ٢٩ غشت ١٩٤٤

---

(١) أو الكريستولوجيا مبحث لاهوتي مسيحي مختص بالسيد المسيح، وبارتباط الإلهي والإنساني في شخصه. [المترجم]

فُونِسْ قَوِيُّ الذّاكرة

أتذكُّره (ليس لي الحق في أن أتلفَّظ بذلك الفعل المقدَّس، وحْدَه رجُل واحد على الأرض كان له الحق، وذلك الشخص مات) بزهرة آلام قاتمة في اليد، يراها كما لم يرَها أحد، ولو أنه كان ينظر إليها من رحيل النهار إلى انصراف الليل، مَدى حياة برُمّتها. أتذكُّره، الوجه صموت وشبيه بالهنود، وقصِيّ بفرادة، خلْفَ السيجارة. أتذكَّر (أعتقد) يديْه الحادّتين كيَدَيْ مُضفِّر. أتذكَّر على مقربة من تلكما اليديْن قدَحَ نقيع الأعشاب *مَاتِي*، مع أدوات *الجوقة الشرقية*؛ وأتذكر في نافذة البيت حصيرة صفراء، رُسم عليها مَنظرٌ بُحيْريّ غامض. أتذكّر صوتَه بوضوح؛ الصوت البطيء، والممتعِض، والأنفي مثلما قنّاص قديم، دون الصفير الإيطالي الحالي. لم أره أكثر من ثلاث مرات؛ الأخيرة، سنةَ ١٨٨٧... وبدا لي سعيدا جدا بمشروع أن يكون كل أولئك الذين تعاملوا معه قد كتبوا عنه؛ وربما ستكون شهادتي هي الأكثر إيجازا، ودون شك، الأقل قيمة، لكنها لن تكون أقلَّها إنصافا ضِمن المُجلّد الذي ستطبعونه. سيمنعني وضعي المؤسف بصفتي أرجنتينيا من أن أكيل المدح –وهو غرض إجباري في الأوروغواي، عندما يكون أورغواني موضوعا للكتابة. لم يقل فُونِسْ *المتأدِّب والمتأنق، والمنتمي للمدينة ذات الميناء*، تلك

الكلمات المُهينة، لكن بصيغة كافية أعلم أنني مثلت بالنسبة إليه مصائب. وكان پيدرو لِيانْدْرُو إِيبُوشْ قد كتب أن فُونِسْ كان متقدِّما على الأناس الخارِقين، أي أنه كان نوعا من «زرادشت البَرّي والبَلَديّ»؛ أنا لا أناقشُه، لكن لا ينبغي أن ننسى أنه كان كذلك كُومْپَادْرِيتُو[1] لِفْرَايْ بِنْتُوسْ، وأنَّ به أشكالا من القُصور الذي لا علاج له.

ذكرايَ الأولى عن فونِسْ شديدة الوضوح. أراه في مساء من مارس أو فبراير من عام ٨٤. كان أبي، في تلك السنة، قد أخذني إلى فْرايْ بِنْتُوس لقضاء عطلة الصيف. كنتُ عائدا مع ابن عمي برنارْدو هايْدو من إقامة سانْ فْرانسيسكو. كنا عائدَيْن ونحن نغني، على متن حصان، وذلك لم يكن حافز سعادتي الوحيد. فبعد يوم قائظ، هبت عاصفة هائلة لونُها أردوازي فأخفت السماء. ونشَّطَتها ريحُ *الجنوب*، فِعلا الأشجارُ تُجَنّ؛ وتملَّكني الخوف (الأمل) من أن يُباغتنا المطر الأوَّلي في العراء. عَدَوْنا نوعا من العَدو مع العاصفة، ودخلنا في سبيل كان يُغوِّر بين سورَيْن عاليَيْن من اللَّبِنات. كانت السماء قد أظلمتْ فجأةً؛ سمِعتُ خطوات سريعة تكاد تكون سرّيّة في الأعلى؛ رفعْتُ عيْنيَّ فرأيتُ فتى يجري عبر السبيل الضيّق والمتكسر، كما لو كان يجري فوق جدار ضيق ومكسور. أتذكَّر السراويل الفضفاضة، والنّعليْن، أتذكَّر السيجارة في الوجه القاسي، والمخفي بسحابة الدخان الكثيف والمُترامِية. صرَخ برنارْدو فيه على غير توقُّع:

---

(١) صُعلوكٌ شعبي وشهير في الأرجنتين والأوروغواي، متأنِّق ومتباه واستفزازي. أُنظر حكايات هؤلاء الصعاليك في *التانغو*: *أربع محاضرات* لخورخي لويس بوخيس، ضمن منشورات دار الجَمل. [المترجم]

«كم الساعة، يا إِيرِنِيُو؟» ودون استشارة السماء، ودون توقُّف، أجابَ الآخَر: «بقيتْ أربع دقائق للثامنة، أيها الشاب برناردو خْوانْ فرانسيسْكو». كان الصوتُ حادّا، وهازئا.

أنا شديد السَّهو إلى درجة أن الحوار الذي جئت للتو على حَكْيه لم يكن ليُثير انتباهي لو لم يكن ابن عمي قد نوَّه به، الذي كان يُحفِّزُه (أعتقد) نوعٌ من الكبرياء المحلي، والرغبة في أنْ يبدُوَ غير مكترث برَدِّ الآخَر ثلاثي الأجزاء.

لقد قال لي إنّ فتى السبيل هو المدعُوّ إِيرِنِيُو فُونِسْ، المذكور بسبب بعض الغرائب مثل نادِرةِ عدم الاتصال بأيٍّ كان، ونادرة معرفة التوقيت دوما، مثلما الساعة. وأضاف أنه كان ابنَ كَوَّاءَة ملابس القرية، مارِيّا كْلِمِنْتِينَا فُونِسْ، وأن بعضَهم يقول إن أباه كان طبيبَ مَصنَع تمليح اللحوم، الإنجليزي أُوكُونُور، ويقول آخَرون إلى أنه كان مُروِّضا أو قائِفًا من دائرة سالْتُو. كان يعيش مع أمه، عند المنعَطف الخامس من شارع لَوْرِلِسْ.

لقد صيَّفنا سنَتيْ ٨٥ و٨٦ في مدينة مونْتِفِيدْيو. في سنة ٨٧، عُدتُ إلى فْرايْ بِنْتوسْ. سألتُ، كما هو طبيعي، عن كل المَعارف، وأخيرا، عن «فُونِسْ المؤقِّت». قيل لي إن حصانا جامحا أطاحه في ضيعة سان فرانْسيسْكو، وأنه أصبح مُقعَدا، بلا أمل. أتذكَّر الانطباعَ ذا السِّحر المكدِّر الذي أحدَثَه الخبرُ في: المرّة الوحيدة التي رأيتُه فيها، كنا قادِمَيْن من سَانْ فْرانسيسكو على الحصان وهو كان يمشي في مكان مرتفع؛ وكانت للواقعة، على لسان ابن عمي برناردو، كثيرٌ من توابل الحُلُم المَصوغ بعناصر سابقة. قيل لي إنه لا يتزحزح عن سريره، مُثبِّتا العينيْن في شجرة التين في العُمق، أو في بيت عنكبوت. في المساءات، كان يَسمَح بأنْ يُساق إلى النافذة. كانت به

أنفة إلى درجة التظاهر بأنَّ الضربة التي صعقَتْه كانت ميمونة. . . رأيتُه مرَّتَيْن خلف الشّبّاك، الذي بفظاظة كان يشدِّد على وضعه بصفته سجيننا أبديا: مرّةً، ثابتا، بعيْنيْن مغمَضتيْن؛ وأخرى، ثابتا أيضا، منذهلا في تأمُّل فسيلة من القَيْصُوم الجَبَلي.

وفي خُلوّ من أي غرور، كنتُ قد بدأْتُ في ذلك الزمان الدراسة المنهجية للغة اللاتينية. كانت حقيبتي تتضمّن كتابَ بخصوص مشاهير الرِّجال *De viris illustribus* لِمؤلِّفه لُومُونْد، والقاموس الموسوعي للمفردات *Thesaurus* لمؤلِّفه كِيشِراتْ، والتعليقات *Comentarios* لمؤلِّفه يوليوس قيصر، ومجلَّد مُفرَد من التاريخ الطبيعي *Naturalis historia* لمؤلِّفه بْلينْيو، الذي كان يَزيد (ولا يزال) عن تميُّزي اليسير بصفتي عالِما باللاتينية. كل شيء يَذيع في قرية صغيرة؛ إيرِنِيُو، في مزرعته على الضفتيْن، لم يتأخَّر في أنْ يَعلَم برُسُوِّ تلك الكتُب الغريبة، إذ بعث إليّ رسالة جَزلة وتشريفية، ذكَّرني فيها بلقائنا، الذي كان للأسف عابرا، «لقاءَ اليوم ٧ من فبراير من عام ٨٤»، وأشاد بالخدمات المجيدة التي أسداها السيد غْرِيغُورْيُو أَيِدُو، عمّي، المُتوفى تلك السنة نفسَها، «كان قد أسدى خدمة للوطَنَيْن يومَ معركة إِتُوثايْنْغو المشهودة»، والتمس مني أنْ أُعيرَه أيًّا من المجلَّدات، مَصحوبا بقاموس «لكي أفهم النص الأصلي سريعا، لأني ما أزال أجهل اللاتينية». وعد بأن يردَّهما في حال جيّدة، تقريبا في حينه. كان خَطُّه جيدا، ومُدبَّبا جدا؛ من النمط الذي أشاد به أنْدْرِسْ بِيُّو: *i* عوض *y* و *j* عوض *g*. خشيتُ بالطبع من مُزحة. لكن أبناء عمي أكَّدوا لي العكس، وأنها أشياء طبيعية في إِرِنِيُو. لم أعْلَم إن كان عليَّ أن أعزُوَ إلى الوقاحة أو الجهل أو الغباء فكرةَ أنّ اللاتينية العويصة لا تتطلبّ أداة سوى قاموس؛ فبعثْتُ إليه كتاب الصعود نحو

بارْناسوس *Gradus ad Parnassra* لمؤلِّفه كِيشِراتْ، وعمَلَ بْلِينْيُو، كي أُحرِّره من التوَهّم تماما.

وصلني يومَ ١٤ فبراير تلغراف من بوينوس آيْرِس بأن أعود فورا، لأن أبي لم يكن «في حال حسنة» بتاتا. لِيغفر الربُّ لي؛ فهَيْبَة أن أكون من أُرسِل إليه تلغرافٌ مستعجَل، والرغبة في أن أُعلِم كلَّ فْرايْ بِنْتُوس بالتناقض بين الشَّكل السلبي للخبر والظَّرف العاجل، وغواية إضفاء المأساة على ألمي، والتظاهر بشدة عزم رجولية، ربما ألهتني عن كل احتمال يَظهِر به ألمي. وعند إعدادي للحقيبة، لاحظتُ أن كتاب *الصعود* يَنقُصني، وكذلك المجلد الأوَّل من *التاريخ الطبيعي*. كانت سفينة ساتُورْنُو ستُبحر في اليوم التالي، صباحا؛ في تلك الليلة، بعد تناولي العشاء، سِرتُ على قدميّ إلى بيت فُونِسْ. اندهشْتُ من كون الليل لم يكن أقلَّ ثِقَلا من النهار.

في المزرعة النظيفة، استقبلتني والدة فُونِسْ.

قالتْ لي إنّ إِرِنيُو كان في الغرفة التي بالداخل، وعليَّ ألا أستغربَ إن وجدتُها مُعتمة، لأن إِرِنيُو كان يقدر على قضاء ساعات الفراغ دون أن يُوقد شمعة. عبَرتُ الفِناء المُبلَّط، والمَمرّ القصير؛ ووصلت إلى الفِناء الثاني. كانت هنالك سقيفة كرمة؛ أمْكنَ العتمةَ أن تَبْدُوَ لي كلِّية. فجأةً سمعت صوت إِرِنيُو عاليا وساخرا. كان ذلك الصوت يتحدَّث باللاتينية؛ ذلك الصوت (الذي كان يأتي من الظُّلمة) كان ينطق بالتذاذ بطيء خُطبة أو دعاء أو رقية. تردَّدت المَقاطع الرومانية في الفِناء الترابي؛ اعتقدَ خَوْفي أن شيفرتَها لا تُفكُّ، وأنها لا نهائية؛ بعد ذلك، كان الحوار الهائل لتلك الليلة، عَلمْتُ أنه يُشكّل الفقرة الأولى من الفصل الرابع عشر من الكتاب السابع من *التاريخ الطبيعي*. إن مادة ذلك الفصل هي الذاكرة؛ وكانت الكلمات

الأخيـرة هـي *ut nihil non iisdem verbis redderetur auditum* [لا يوجد شيء في *الكلمات لا يمكن إعادته إلى السمع نفسه*].

دون أدنى تغيير في الصوت، قال لي إِيرِنِيُو بأن أَدخل. كان يفترش سرِيرا وهو يدخن. يبدو لي أني لم أر وجهه حتى الفجر؛ وأعتقد أني أتذكَّر الجذوة المؤقَّتة لسيجاره. كانت الغرفة تتضوَّع رطوبةً في غموض. جلسْتُ؛ وأعدْتُ حكاية التلغراف ومرض أبي.

أرسو، الآن، عند النقطة الأصعب في حكايتي. هذه الأخيرة (يحْسُن بالقارئ أنْ يَعرِفها) ليس لها حجة أخرى غير ذلك الحوار الذي مرَّ عليه نصف قرن. سأسعى إلى إعادة إنتاج كلماته، التي يستحيل استعادتُها الآن. أُفضِّل أنْ أوجِزَ بصدق الأشياء الكثيرة التي قالها لي إِيرِنْيُو. الأسلوب غير المباشِر قديم وواهن؛ وأنا أعرف أُضحي بتأثير قصتي؛ وليتخيَّلْ قُرّائيَ المراحلَ المتقطِّعة التي حمَّلتني فوق طاقتي تلك الليلة.

شرع إيرنيو يُعدِّد، باللاتينية والإسبانية، حالات الذاكرة العبقرية المسجَّلة في *التاريخ الطبيعي*: قورش Ciro، ملك الفُرس، الذي كان يعرف أن يُنادي على كل جنود جيوشه بأسمائهم؛ مِيثْراداتِسْ يُوباتور، الذي كان يُدير العدالة بلسان اللغات الاثنتين والعشرين المتكلَّمة في إمبراطوريته؛ وسيمونيدس، مخترع تقنيات الاستذكار mnemotecnia؛ وميترودوروس، الذي كان يعلِّم فن التَّكرار بأمانة لما يُسمَع مرَّة واحدة فقط. بحسن نية مُسلَّم بها اندهش من نظير تلك الحالات التي أدْهشتْ. لقد قال لي إنه قبل ذلك المساء المطير الذي أطاحَه الحصانُ الضارب إلى الزرقة، كان شأنه شأن كل المسيحيين: أعمى، وأصمَّ، ومعتوها، وضعيف الذاكرة. (سعيتُ على أن أذكِّره بإدراكه الدقيق للوقت، وبذاكرته التي تختزن أسماء الأعلام؛ لكنه لم

يُعرني اهتماما.) عاش تسعة عشر عاما مثل من يَحلُم: كان ينظر دون أن يرى، ويسمع دون أن يُصغي، وكان ينسى كلَّ شيء، كلَّ شيء تقريبا. عند وقوعه، فقد الوعي؛ ولما استردَّه، كاد الحاضر يكون لديه غيرَ مُطاق من كثرة غِناه وشدة جَلائه، وكذلك الذكريات كانت أكثر قِدَما وأكثر ابتذالا. بعد ذلك بقليل تحقَّق من أنه كان قعيدا. كاد ألّا يهتم بالواقعة. لقد فكَّر (أحسّ) أن العجز عن الحركة كان ثمنا زهيدا. الآن صار إدراكُه وذاكرته لا يُخطِئان.

إننا، بإلقاء نظرة واحدة، نُدرك أن ثلاث كؤوس فوق مائدة؛ بينما يُدرك فُونِسْ كلَّ الفسيلات والعناقيد والثمار التي تحويه سقيفة كَرْمَة. كان يعرف أشكالَ غيوم النهار الجنوبية ليوم ٣٠ أبريل ١٨٨٢، وكان يُمكنه إن يُقارنَها في ذاكرته بالخطوط الملوَّنة على ورق مقوّى كان قد رآه مرَّة واحدة، وبخطوط الزَّبد التي يُثيرُها مجذاف في النهر الأسود عشيّةَ معركة كِبْراشُّو. لم تكن تلك الذكريات بسيطة؛ فكل صورة بصرية كانت مُرتبطة بأحاسيس عضلية، وحرارية، إلخ. كان يُمكنُه أن يُعيد بناء كلّ السِّنات. كان مرَّةً أو مرَّتيْن قد أعاد بناء يوم بكامله؛ ولم يكن قد شكّ أبدا، لكنَّ كلَّ إعادة بناء كانت قد اقتضتْ يوما بِرُمّته. قال لي: «لديّ من الذكريات أنا وحدي أكثر مما لدى كل البشر منذ أنْ صار العالَم عالَما.» وقال كذلك: «أحلامي شبيهة بسَهَركم.» وقال أيضا: «ذاكرتي، يا سيدي، هي مثل مَفْرَغ القُمامة.» إن محيط دائرة على سبورة، أو مُثلَّثا قائما، أو مُعيَّنا، هي أشكال يُمكنُنا حدسُها تماما؛ إيرِنْيو حدث له الشيءُ نفسُه مع أعْراف مُهر هائجة، أو مع قطيع ماشية في سلسلة جبال، أو مع النار المتغيِّرة، ومع ما لا يُحصى من الرَّماد، ومع الوجوه الكثيرة لميِّت في سهَر طويل على ميِّت. لستُ أدري عَدَدَ النجوم التي كان يراها في السماء.

تلك الأشياءَ قالها لي؛ ولم أَضعْها موضع شك لا قَبلُ ولا بَعد. في ذلك الزمان لم تكنْ كاميرات سينمائية ولا آلات تسجيل صوتية؛ ومع ذلك، فما لا يُعقَل وحتى ما يُصدَّق هو ألا يُجري أيّ أحد تجربة مع فُونِسْ. الأكيد هو أننا نعيش مُرجِئين كلَّ ما يُرجَأ؛ ربما نحن جميعا نعرف بعمق أننا فانون، وأنه عاجلا أو آجلا، سيقوم كلّ إنسان بكل الأشياء أو سيَعرِف كلَّ شيء.

انطلاقا من الظُّلمة، كان صوتُ فُونِسْ يواصل الكلام.

قال لي إنه، حوالى ١٨٨٦، كان قد ابتكر، نظاما أصليا للتَّعداد، وأنه في غضون أيام قليلة كان قد تخطى أربعة وعشرين ألفا. لم يكتبْ ذلك، لأن ما يُفكِّر فيه مرَّةً واحدة لا يُمكنُه أن يمَّحي من ذاكرته. أعتقد أن حافزَه الأوَّل كان هو انزعاجه من أن الأرقام الشرقية الثلاثة والثلاثين تتطلَّب علامَتيْن وثلاث كلماتٍ عِوَض كلمة واحدة ومز واحد. لقد طبَّق لاحقا هذا المبدأ غير المعقول على الأرقام الأخرى. إنه عِوَض ثلاثة عشر وسبعة آلاف كان يقول (مثلا) *ماكْسِيمُو بِرِيثْ*؛ وعِوض أربعة عشر وألف، *السكك الحديدية*؛ وكانت أرقام أخرى *لُويس مِلِيَّانْ لافينور*، *وأُليمار*، *والكبريت*، *والسَّرج*، *والحوت*، *والغاز*، *والغلاية*، *ونابليون*، *وأغوستينْ دِفيدْيا*. وعِوض خمسمائة، كان يقول تسعة. كان لكل كلمة معنى خاصٌّ، نوع من العلامة؛ وكانت الأخيرة معقَّدة جدا... حاولتُ أن أفسِّر له أن ذلك المهرجان ذا الأصوات التي لا صلة بينها كان تحديدا نقيضَ نظامِ التَّعداد. قلتُ له إن قول ٣٦٥ كان يُفيد ثلاثَ مئات، وسِتّ عشرات، وخمس وحدات: إنه تحليل لا يوجَد في «الأرقام» مثل تيموتِيُّو *الأسود* أو *لحاف اللحم*. لم يَفهمْني فونس، أو لم يَرغَبْ في أنْ يفهمني.

التمس لُوكِي (وشجب)، في القرن السابع عشر، لغةً مستحيلة

يكون لكل شيء فيها فرد، وكل شجرة، وكل طائر، وكل غصن اسمٌ خاص؛ لقد عرض فونِسْ ذاتَ مرة لغةً مماثِلة، لكنه ألغى العرض لأنه بدا له مبالغا في العمومية، ومبالغا في الغموض. فعلا، لم يتذكَّر فونس كل ورقة من كلّ شجرة في كل جبل، بل كلّ مرَّة من المرات التي كان قد أدركها فيها أو تخيَّلها. فقرَّر تقليص كل يوم من أيامه الماضية إلى حوالي سبعين ألف ذكرى، سيُعرِّفها بالأرقام لاحقا. وقد صرفه عن ذلك اعتباران: الوعي بأن المهمة كانت لا نهاية لها، والوعي بأنها كانت غير مُفيدة. وفكَّر في أنه في لحظة الوفاة لن يكون قد أكمل بَعْدُ تصنيف كلّ ذكريات الطفولة.

المشروعان اللذان أشرتُ إليهما (قاموس لا نهائي للسلسلة الطبيعية للأرقام، ومَسرد ذهني لا جدوى منه لكل صور الذِّكرى) بليدان، لكنهما يكشفان نوعا من العظمة المتلجلجة. إنهما يسمحان لنا بأن نلمح أو أن نستدلّ على عالَم فونس المُدوِّخ. وهذا الأخير، حتى لا ننسى، كان تقريبا عاجزا عن الإتيان بأفكار أصلية، وأفلاطونية. لم يكنْ يَشقّ عليه أن يفهم أنَّ الرمز الجنسيّ (كلب) يضم كثيرا من الأفراد المتباينين من أحجام متنوعة وأشكال متنوعة فحسب؛ بل كان يُزعجه أن يكون لكلب الثالثة وأربع عشرة دقيقة (منظورا إليه جانبيّا) الاسم نفسُه الذي لكلب الثالثة والرُّبع (منظورا إليه وجها لوجه). كان وجهُه الخاص في المرآة، ويداه الخاصتان، تباغته كلَّ مرة. ويحكي سْوِيفْتْ أن إمبراطور جزيرة ليلّيبوتْ كان يُميِّز حركات عقرب الدقائق؛ وكان فونس يُميِّز باستمرار التقدُّم الهادئ للفساد، والتسوُّس، والتعب. كان يُلاحظ تقدُّم الموت، والرطوبة. كان المتفرِّجَ المتفرِّد والنيِّر لعالَم متعدِّد الأشكال، وآنِيٍّ بشكل يكاد لا يُطاق. لقد أفحمتْ بابل، ولندن ونيويورك بوهج شرس خيالَ

البشر؛ ولا أحد في أبراجها العامرة أو في شوارعها المستعجلة أحسّ بحرارةِ وضغطِ واقع لا يعرف التَّعب مثل ذاك الذي ليلَ نهارَ كان يتآمر على إِيرنيو الشقي، في ضاحيته التعيسة بأمريكا الجنوبية. كان يشق عليه أن ينام. النوم هو السَّهو عن العالَم؛ وكان فونس، موليا ظهرَه للسرير، في العتمة، يتخيَّل كل شِقّ وكلَّ قالب بالبيوت المعيَّنة التي تُحيط به. (أكرِّر أنّ الأقلَّ أهمية من ذكرياته كان أكثر ضآلة وأكثر حياةً من إدراكنا لمتعة مادية أو لعذاب جسدي.) جهةَ الشرق، في فضاء غير مُفرَّز، كانت بيوت جديدة موجودة، ومجهولة. وكان فونس يتخيَّلها سوداء، مضغوطة، ومصنوعة من ظُلمة متجانسة؛ نحو تلك الوجهة كان يولي وجهَه لكي ينام. كذلك تعوَّد أن يتخيَّل نفسَه في قعر النهر، يُهَدْهَد، يتلاعب به التيار.

تعلَّمَ الإنجليزية، والفرنسية، والبرتغالية، واللاتينية دون جهد. ومع ذلك، أرتابُ في أن يكون غير قادر بقوة على التفكير. التفكير هو نسيان الاختلافات، وهو التعميم، والتجريد. في عالَم فونس المكتظ لا وجود إلا للتفاصيل، والفوريّ منها تقريبا.

دخل الضوء الحذر للصّباح عبر الفِناء التُّرابي.

رأيتُ عندئذ الوجهَ صاحبَ الصوتِ الذي كان قد تحدَّث طيلةَ الليل. كانت لإيرِنيو تسع عشرة سنة؛ كان قد وُلِد في ١٨٦٨؛ بدا لي عظيما مثل تمثال من البرونز، وأكثر قِدما من مِصْر، وسابقا على النبوءات والأهرام. فكَّرتُ في أن كلّ واحدة من كلماتي (وفي أن كل واحدة من حركاتي) ستدوم في ذاكرته الصُّلبة؛ وشلَّني الخوفُ من مُضاعَفة حركاتٍ غير مجدية.

مات إيرنيو فونس في ١٨٨٩، جَرّاء احتقان رئوي.

١٩٤٢

شكل السَّيف

وجْهُه تَعبُره ندبةٌ حقود: قوس رمادي ويكاد يكون كاملا يترك الصدغَ من جانب ذابلا، والوجنةَ من جانب آخَر. لا يهم اسمه الحقيقي في شيء؛ الجميع في تاكْوارِمبُو ينادونه *إنجليزي كولورادا*. لم يكن مالك تلك الحقول، السيد *كارْدوسا*، يرغب في بيعها؛ وسمعتُ أن *الإنجليزي* لجأ إلى حجة غير متوقَّعة: لقدِ عهِد إليه بالحكاية السّرّية للندبة. كان *الإنجليزي* قد أتى من الحدود، من *رِيُّو غْرانْدي دِلْ سُورْ*؛ ولم يَنقُص من يذهب إلى أنه كان في البرازيل يتعاطى التهريب. كانت الحقول قد تحوَّلتْ مَراعِيَ؛ والمياهُ مُرَّةً؛ لتصحيح هذا القصور، اشتغل *الإنجليزي* سَوِيًّا مع عُمّاله الزراعيين. قيل عنه إنه كان صارما حتى الفظاظة، لكنه كان عادلا بدقة متناهية. كذلك قيل عنه إنه كان سِكِّيرا: كان يُغلق على نفسه مرَّتيْن، في السنة، في غرفة المَرْقَب، ويبرز بعد يومين أو ثلاثة كالقادم من معركة أو دُوَار، شاحبا، ومرتجفا، ومفزوعا، وشديد التسلُّط شأنه في السابق. أتذكَّر العينيْن الجليديتْن، والنحافة الحيوية، والشارب الرمادي. لم يكن يتحدَّث مع أيّ كان؛ الحقيقة هي أن لغته الإسبانية كانت بدائية، بنبرة برازيلية. وعدا رسالة ما تجارية أو ورقة أو كُتيّب، لم يكن يتلقى أيَّ مراسَلة.

في المرة الأخيرة التي جُبْتُ فيها أقاليم الشمال، أجبرني فيضان نهر كاراغْواتا أن أقضي الليلة في لاكولورادا. في الدقائق الأولى هناك اعتقدْتُ أن ظهوري كان في غير أوانه؛ حاولتُ أن أتودَّد إلى *الإنجليزي*؛ فلجأتُ إلى أقل الأهواءِ فِطنة: الوطنية. قلتُ إن بلدا ذا روح إنجليزية لا يُهزَم. أمَّنَ مُحاوري على كلامي، لكنه أضاف بابتسامة أنَّه لم يكنْ إنجليزيا. كان إيرلانديا، من دُونْغَارْفان. توقَّف عند قوله هذا، كما لو أنه كشف سِرّا.

بعد الأكل، خرجْنا لكي ننظر إلى السماء. كان المطر قد توقَّف عن الهطول، لكنْ خلفَ سلسلة جبال سُورْ، التي تخدشُها البروق وتشقُّها، كانت عاصفة أخرى تُدبِّر أمْرَها. في غرفة الأكل المُهمَلة، أحضر العامِلُ الذي كان قدَّم لنا وجبة العشاء قنينة من مشروب الرُّوم. شربنا في صمت طويلا.

لست أدري أيَّ ساعة كانت لمَّا لاحظتُ أني كنت قد سَكِرتُ؛ ولستُ أدري أيّ إلهام، أو أيّ ابتهاج، أو أي سأم جعلني آتي على ذِكر الندبة. امتقع وجْهُ *الإنجليزي*؛ وتخيَّلتُ طيلةَ دقائق أنه سيطردني من البيت. وفي الأخير قال لي بصوته المُعتاد:

- سأحكي لك قصة ندبتي لكن بشرط واحد: شرط ألا تُخفف من ذكر أي خزي، ولا أيّ ظرف شهد العار.

أمَّنتُ. هذه هي الحكاية التي قصَّها، مناوِبا بين الإنجليزية والإسبانية، وحتى البرتغالية:

«حوالى ١٩٢٢، في إحدى مدن كُونّاوْت، كنتُ واحدا من كثيرين كانوا يتآمرون من أجل استقلال إيرلاندا. كان من بين أصحابي من يواصلون العيش منصرفين إلى مهمات سلمية؛ وكان آخرون، مفارَقة، يُقاتلون في البحار أو في القفار، تحت الألوية

الإنجليزية؛ وكان آخَر، وهو أفْضلُنا، قد مات في ساحة مُعسْكر، فجْرا، رُمِي بالرصاص من قِبَل رجال خيَّم عليهم النوم؛ وآخرون (ليسوا هم الأكثر تعاسة)، لقوا حتفَهم في معارك الحرب الأهلية المجهولة منها أو التي كادت تكون سرية. كنا جمهوريين، ومسيحيين؛ وكنا، وهو ما أشك فيه، رومانسيين. لم تكن إيرلاندا، بالنسبة إلينا، المستقبَلَ الأوتوبي فقط، والحاضر الذي لا يُطاق؛ كانت أسطورة مُرّة وحنونا، كانت الأبراج الدائرية والمستنقعات الحمراء، كانت طَلاق *بارْنيل* والملاحم الهائلة التي تتغنى بسرقة الثيران التي كانت في تجسُّد آخرَ أبطالا وفي تجسُّدات أخرى حيتانا وجبالا... في مساء لن أنساه، التحق بنا أحدُ المنضمِّين إلى مُونْسْتِرْ: رجُل يُدعى جُونْ فانْسُونْ مُونْ.

لم يكن عُمره يتعدى العشرين سنة. كان نحيفا ورِخْوا معًا؛ كان يُعطي الانطباع المُزعج بكونه لا فَقاريّا. كان قد درس بحمية وزهو تقريبا كلّ صفحات كتاب عن الشيوعية مختصر لا أعرفه، كانت المادية الجدلية تَصلُح له لكي يُنهي كلّ نقاش. إنّ الأسباب التي يُمكن أنْ يمتلكها إنسان لكي يمقت آخر أو لكي يُحبَّه لا نهائية: كان مُونْ يوجِز التاريخ الكوني في صراع اقتصادي قَذِر. كان يؤكّد أن الثورة قدرُها الانتصار. أنا قلتُ له إن *إنسانا محترَما gentleman* لا يمكن أن تهمه سوى القضايا الخاسرة... كان الليل قد حلَّ؛ ونحن نواصل اختلافنا في المَمرّ، وفي السلالم، ثم في الشوارع الخالية. إنّ الأحكام التي أصدرها مُونْ أثَّرتْ فيَّ أقلَّ من نبرته غير القابلة للاستئناف والقاطعة. لم يكن الرفيق الجديد يُناقِش: كان يُفتي في ازدراء وبنوع من الحنق.

ولما وصلنا إلى البيوت الأخيرة، أرْبَكنا تبادُل فُجائيّ لإطلاق

النار. (قَبلُ أو بَعد، دُرنا حول أطراف الجدار الحاجِب لمعمل أو معسكر.) توغَّلنا في شارع من تراب؛ وفي غمرة البريق، برز لنا جُنديّ هائل من كوخ يحترق. أَمَرنا صارخا بأن نتوقَّف. أنا حثثت الخطى؛ ورفيقي لم يتبعني. التفتُّ: كان جُون مُونْ ثابتا، كأنه مُؤبَّد في الرُّعب. عندئذ عُدتُ، وأسقطتُ الجندي بضربة، رجَجْتُ *فانْسُونْ مُونْ*، سبَبْتُه وأمَرتُه بأن يتبعني. اضْطُررْتُ إلى أنْ أُمسِكه من الذراع؛ كان التأثُّر بالخوف قد شلَّه. فررنا، أثناء الليل المثقوب بالحرائق. تقفَّتنا رشقاتٌ من طلقات النَّار؛ حاذت رصاصة الكتف اليُمنى *لمُونْ*؛ هذا الأخير، وبينما نحن نهرب بين أشجار الصنوبر، انخرط في شهيق واهن.

في ذلك الخريف من عام ١٩٢٢ كنتُ قد أقمْتُ في حامية هي عِزبةٌ للجنرال بيرْكْلي. هذا الأخير (الذي لم أرَه أبدا) كان يشغل منصِبًا إداريا لستُ أعْلَمه في *بِنْغالا*؛ البناية التي لا يتجاوز عمرها نصف قرن، لكنها كانت قد أصابها التَّلَف والغَبَش، وتكثر فيها ممَرّات مُربِكة، وقاعات انتظار عَبَثٌ وجودُها. كان المتحف والمكتبة الهائلة يغتصبان الطابق الأسفل: كتُب مجادِلة وغير متوافقة هي بصيغة ما تاريخ القرن التاسع عشر؛ سيوف عريضة من نيسابور، التي في أروقتها الدقيقة والدائرية تبدو مؤبّدَة للريح ولعُنف المعركة. دخَلنا (أعتقد أني أتذكَّر) عبر الأفنية الداخلية. ارتجف مُونْ وجفَّف فمَه، وتمتم بأن حَلقات الليل كانت مهمة؛ قدَّمت له علاجا، جلبْتُ له فنجان شاي؛ وتمكَّنتُ من أن أتحقَّق من أن «جُرحَه» كان سطحيّا. وبغتةً قال متلعْثِما وفي ارتباك:

- لكنَّكَ خاطرْتَ بنفسك بشكل ملحوظ.

قلتُ له ألا يشْغل بالَه. (التعوُّد على الحرب الأهلية كان قد

حضَّني على التصرُّف كما فعلتُ؛ إضافة إلى أنّ سَجن مُنضمٍّ واحد مِنّا يُمكن أنْ يُعرِّض قضيّتنا للخطر.)

في اليوم التالي كان مُون قد استعاد رباطة جأشه. قبِل مني سيجارة، وأخضعني لاستنطاق صارم حول «الموارد المالية لحزبنا الثوري». كانت أسئلته جليّة جدا: قلتُ له (بصراحة) إنّ الوضع كان جسيما. رشقات نارية عميقة أثَّرت في منطقة سُورْ. قلتُ لمُونْ إن الزملاء في انتظارنا. كان مِعطفي ومُسدسي في غرفتي؛ ولما عُدتُ، عثرْتُ على مُونْ مستلقيا على الكنبة، وعيناه مُغمضتان. لقد خمَّن أن به حُمّى، واستحضر تشنُّجا مُمِضًّا في الكتف.

حينئذ فهمتُ أنّ جُبنَه

يتعذَّر على الإصلاح. تضرَّعتُ إليه بشكل محرج كي يُعنى بذاته ودَّعتُه. كان ذلك الرَّجل الخائف يُخجلني، كما لو أني كنتُ الرِّعديد، وليس *فانْسَان* مُونْ. إن ما يقوم به رجُل شبيه بما يقوم به كل الرِّجال. لذلك ليس حيفا أن عِصيانا في حديقة يُلوِّث النوع البشري؛ ولذلك ليس حَيْفا أن صَلب يهودي واحد يكفي لإنقاذ النوع البشري. ربما شُوبِنْهاور على صواب: أنا آخَرون، وأيّ إنسان هو كل البشر، وشكسبير هو بصيغة ما جُونْ *فانْسان* مُون البائس.

قضَيْنا تسعة أيام في بيت الجِنرال الهائل. لن أقول شيئا عن الاحتضارات وأضواء الحرب: قصدي هو أن أحكي قصة هذه الندبة التي تُخجِلني. تُشكِّل تلك السنوات التسع، في ذاكرتي، يوما واحدا فقط، باستثناء اليوم ما قبل الأخير، لما اقتحم ذَوُونا معسْكرا، وأمْكَننا أن ننتقم تحديدا للرفاق الستة عشر الذين رُمُوا بالرصاص في *إِلْفِينْ*. أنا فررتُ من البيت حوالى السَّحَر، أثناء فوضى الفجر. وعند حلول الليل كنتُ قد عُدت إلى بيتي. كان صاحبي ينتظرني في الطابق

الأول: لم يسمح له الجُرح بأن ينزل إلى الطابق الأسفل. أتذكَّره بكتاب ما عن الاستراتيجية في يده: ف. ن. *مَاوْدِي* أو كْلاوْزِفِيتْسْ. وباح لي ذات ليلة قائلا: «السلاح الذي أُفضِّله هو المِدفعية». لقد استقصى خُططنا؛ كان يروقه أنْ يُمارس الرقابة عليها أو أنْ يُعيد إصلاحَها. كذلك تعوّد أنْ يُندِّد «بقاعدتنا الاقتصادية المؤسفة»؛ كان يتنبّأ حاسِما ومكفَهِرّا بالنهاية المخرِّبة. *إنها قضية تجارة في ازدهار* *C'est une afaire flambée*، كان يُتمتم. ولإظهار أنه لم يكن يعبأ بكونه رعديدا جسديا، كان يضخِّم من عجرفته الذهنية. هكذا انصرمت تسعة أيام، بجيدها وسيئها.

في اليوم العاشر، سقطت المدينة نهائيا في قبضة بْلاكْ *أَنْدْ تَانْزْ*[١]. إنهم فُرسان طِوال وصامتون، يجوبون الطرقات؛ كانت الريح مُثقلة بالرماد والدخان؛ رأيتُ في زاوية جثَّةً مرمية، كانت ذكراها أقلّ رسوخا في ذهني من دمية كان الجنود يتمرَّنون إلى ما لا نهاية على رَمْيها بالرصاص، وسط ساحة المعسكر... كنتُ قد خرجْتُ لما كان نورُ الصباح قد غمر السماء؛ وعدْتُ قبل الزوال. كان مُونْ في المكتبة يتحدَّث مع شخص ما؛ وأفهمتْني نبرةُ كلامه أنه يتحدَّث عبر الهاتف. بعد ذلك، سمعتُ اسمي؛ وبعدُ سمعتُ عن عودتي في السابعة، وبعد سمعتُ الإشارةَ بإلقاء القبض عليَّ أثناءَ عبوري للحديقة. كان صديقي العاقل يبيعني بشكل مُتعقِّل. سمعتُه يُصرّ على توافر ضمانات لسلامته الشخصية.

---

(١) الاحتياطي الخاص للشرطة الملكية الأيرلندية، هم جنود استأجرتهم الحكومة البريطانية منذ عام ١٩٢٠ لمساعدة الشرطة الملكية الأيرلندية (RIC) والجيش البريطاني للقتال ضد الانفصاليين في الجيش الجمهوري الأيرلندي (IRA). تم حلها في عام ١٩٢٢، بعد نهاية حرب الاستقلال الأيرلندية.

هنا تختلط حكايتي وتضيع. أَعْلم أنني لاحقْتُ الواشي عبر ممرات سوداء كابوسية، وعبر سلالم عميقة تُحْدِث الدّوار. كان مُونْ يعرف البيت جيدا، وبشكل أَفضَل مني. لقد أضَعْتُه مرّةً أو مرّتيْن. حاصرتُه قبل انْ يُلقي الجنود القبض عليَّ. انتزعْتُ من إحدى شِكّات سلاحِ الجنرال سيفَ يَقَطان المُقوَّس، بذلك الهلال الفولاذي وقَّعتُ له على الوجه، إلى الأبد، هلالا من الدَّم.

بورخيس: أنتَ بصفتك غريبا، بُحتُ لك بهذا الاعتراف. ولا يؤلمني كثيرا ازدراؤُك إياي.»

هنا توقَّف السارد. لاحظتُ ارتعاش يديْه.

- ومُونْ؟ -سألتُه.

- لقد تقاضى أموال خيانته مِثل يهوذا وفرَّ إلى البرازيل. ذلك المساء، في الساحة، رأى دُميَةً تُرمى بالرصاص من قِبل بعض السكارى.

انتظرتُ عَبثًا تكملة الحكاية. وأخيرا، قلتُ له أنْ يواصلَها.

عندئذ اخترَقَتْه أَنَّةٌ؛ وحينئذ أبرزَ لي في حلاوة واهنة النّدبةَ المقوَّسة المائلة إلى البياض.

- أنتَ لا تُصدِّقني؟ -تمتم-. ألا ترى أني أحمل علامةَ عاري مكتوبة على وجهي؟ لقد حكيْتُ لك القصة بهذه الصيغة لكي تُصْغي إليها حتى النهاية. أنا أبْلغْتُ عن الرَّجل الذي حماني: أنا هو فَانْسَان مُون. الآن احتقرْني.

١٩٤٢

موضوع الخائن والبطل

So the Platonic Year
Whirls out right and wrong,

Whirls in the old instead;
All men are dancers and their tread
Goes to the barbarous clangour of a gong.

W.B.YEATS, «The Towers»

بتأثير معلوم من تِشْسْتِرْتُون (مُبتكر ألغاز أنيقة ومحسِّنُها) ومُستشار البلاط لَيْبْنِزْ (الذي اخترع التناسق المقرَّر سلَفًا) ، كنتُ قد تخيَّلتُ هذا الموضوع، الذي ربما سأكتُبُه، والذي سيُبرِّئني بصيغة ما، في المساءات غير المجدية. تعوزُني تفاصيلُ، وتصويبات، وتسويات؛ وهناك مناطق في الحكاية لم تُكشَف لي بَعْدُ؛ اليومَ، ٣ يناير من ١٩٤٤، أتبيَّنُها هكذا.

يجري الحدث في بلد مقموع وعنيد: بولونيا، إيرلاندا، جمهورية البندقية، في بلد ما من أمريكا الجنوبية أو البلقان... لقد جرى الحدث، بالأحرى، ولو أن السارد ما يزال معاصرا، فإن الحكاية التي حكاها على لسانه حدَثتْ منتصَف القرن التاسع عشر أو بدايتَه. لنَقُلْ (توخِّيا للراحة في السرد) في إيرلاندا؛ ولنقل سنة ١٨٢٤. يُدعى السارد رِيّانْ؛ إنه ابن حفيدِ الشَّاب البطل والوسيم

المُغتال فِرْغُوسْ كِيلْبَاتْرِيك، الذي انتُهِك قبرُه في ظروف غامضة، والذي يُعزِّز اسمُه أبياتا لبْرُوْنينْ ولهُوغُو، وينتصب تمثالُه فوق تلّة رمادية بين المستنقعات الحمراء.

كان كِيلْبَاتْرِيك متآمرا، ونقيبَ متآمِرين سِرِّيا وماجدا؛ على غرار موسى، الذي انطلاقا من بلاد مؤاب، الذي لمح الأرض الموعودة، ولم يتمكَّن من أن يطأها، هَلك كِيلْبَاتْرِيك عشيَّةَ التمرُّد الناجح الذي كان قد هيَّأ له وحلُم به. يقترب تاريخ المائوية الأولى لرحيله؛ بينما ظروفُ الجريمة لا تزال لغزا؛ اكتشف رِيّانْ، الذي انقطع إلى كتابة سيرة للبطل، أن اللغز يتجاوز ما هو بوليسي خالص. لقد اغْتِيل كِيلْبَاتْرِيك في مسرح؛ ولم يعثر البوليس البريطاني على القاتل أبدا؛ ويُصرِّح المؤرِّخون أن ذلك الفشل لا يقدح في صدقيته الحسنة، فلربما يكون البوليس نفسُه وراء قتلِه. وهناك أوجُه أخرى للغز تُقلق رِيّانْ. إنها ذات طابع دوري: ويبدو أنها تُكرِّر أو تؤالف بين وقائع من مناطق قصية، ومن عصور قديمة. هكذا، لا أحد يُنكر أن شرطة التحقيق، التي فحصت جثة البطل، قد عثرتْ على رسالة مغلَقة تُحذِّره من مجازفة التوافد على المسرح، تلك الليلة؛ كذلك يوليوس قيصر، عند خوضه الطريق صوب المكان الذي كانت خناجر أصدقائه تنتظره، توصَّل بمذكِّرة لم تتسّن له قراءتُها، صُرِّح له فيها بالخيانة وبأسماء خائنيه. وكانت كالْبُورْنيا، زوجة قيصر، رأت في أحلامها بُرجا يُدمَّر، كان مجلسُ الشيوخ قرَّره؛ وراجت إشاعات زائفة ومجهولة المصدر، عشيَّةَ موت كِيلْبَاتْرِيك، وقد نُشِر في جرائد كلّ البلد خبرُ احتراق البرج الدائري في كيلْغارْفان، الواقعة التي يُمكن أن تَبدُو نذيرَ شؤم، لأن كِيلْبَاتْرِيك كان قد وُلِد في كيلغارْفان. تلك التوازيات (وأخرى) بين حكاية قيصر وحكاية متآمر إيرلاندي حَملَتْ

رِيّانْ على افتراض شكل سِرّي للزمان، على شكل رسم لخطوط تتكرَّر. فكَّر في التاريخ العُشري الذي تصوَّره كُونْدُرْسِي؛ وفي الأشكال الصَّرفية التي اقترحَها هيغل، وسْبينْغْلِر، وفيكو؛ وفي رجال هِزْيُود، الذين كانوا يُفسِدون الأشياء بدءً من الذّهب حتى الحديد. فكَّر في تناسُخ الأرواح، المذهَب الذي يُفزع الآداب السَّلْتية، والذي نَسبَه قيصر إلى الكَهَنة البريطانيين؛ فكَّر في أنه قبل أن يكون فِرغُوسْ كِيلْبَاتْرِيك، كان فِرغوس كِيلْبَاتْرِيك هو يوليوس قيصر. وأنقذَه من تلك المتاهات الدائرية تثبُّتٌ أَغرَقه في متاهات أخرى أكثر تعقيدا وغير متجانسة: إن بعض كلمات متسوِّل تحادَث مع فِرغوس كِيلْبَاتْرِيك يومَ وفاته تُخُيّلتْ مُسبَّقا من قِبل شكسبير، في مأساة ماكْبِثْ. أن تنقُلَ حكايةٌ عن حكاية كانت مسألة مُدهِشة بما فيه الكفاية؛ وأن ينقل التاريخ عن الأدب شيء يصعب فهمُه...

استقصى رِيّانْ أنه في عام ١٨١٤، كان جِيْمِس ألكسندر نُولان، أَقدَم أصدقاء البطل، قد ترجَم إلى اللغة الغالية المسرحياتِ الرئيسة لشكسبير؛ من بينها يوليوس قيصر. كذلك اكتشف ضمن الوثائق المحفوظة مقالة مخطوطة لنُولان عن المهرجانات السويسرية؛ وهي عروض مسرحية هائلة ومتجوِّلة، تتطلَّب آلاف المُمثِّلين، وتُكرِّر حلقات تاريخية في المدن نفسِها، وفي الجبال حيث جرت الأحداث. وكشفتْ له وثيقةٌ أخرى، لم يسبق نشرُها، أياما قليلة قبل النهاية، أنّ كِيلْبَاتْرِيك مترئِّسا آخِر اجتماع، كان قد وقَّع الحُكمَ بالموت على خائنٍ شُطِّبَ على اسمِه. هذا الحُكم لا يتلاءم مع عادات كِيلْبَاتْرِيك الورِعةِ. يبحث رِيَّان في المسألة (ذلك البحث هو إحدى تلك الثغرات في الموضوع) وأفلح في فك شيفرة اللغز.

أُجهِزَ على كِيلْبَاتْرِيك في مسرح، لكنَّه جعل من المدينة برُمَّتها

مسرحا أيضا، ومن المُمثِّلين فيْلَقا، وجعل المأساةَ المتوَّجة بموته تحوي نهارات كثيرة ولياليَ كثيرة. وها هنا ما حدث:

يوم ٢ غشت ١٨٢٤، اجتمع المتآمرون. كان البلد قد نضج ليخوض التمرُّدَ؛ ومع ذلك، فإن شيئا ما كان يَخذل دوما: كان يوجَد في الاجتماع خائنٌ. فِرغوس كِيلْبَاتْرِيك كان قد عهِد إلى جِمْس نولان باكتشاف هذا الخائن. أنجز نولان مهمَّتَه: لقد أعلن على الملإ في الاجتماع أن الخائن كان هو كِيلْبَاتْرِيك. بَرهَن بأدلة لا تُدحَض حقيقةَ الاتهام؛ حكم المتآمرون بالموت على رئيسهم. هذا الأخير وقَّع بنفسه على الحُكم الصَّادر في حقه، لكنَّه توسَّل إليهم بأنْ لا يكون عِقابُه مُضِرّا بالوطن.

عندئذ صمَّم نولان خطة غريبة. كانت إيرلاندا تعبد كِيلْبَاتْرِيك؛ وكان يُمكن لأدقّ ارتياب في دناءته أنْ يُحرِجَ التمرُّد؛ لقد اقترح نولان خطة جعل من إعدام الخائن الأداةَ لأجل تحرُّر الوطن. اقترحَ أنْ يموتَ المُدان بيديْ قاتل مجهول، في ظروف تكون مأساوية قصْدا، وأن يرسخ ذلك في الخيال الشعبي، فيُعجِّل الشّعبُ بالتمرُّد. أقسمَ كِيلْبَاتْرِيك على أن يتعاون لإنجاح تلك الخطة، التي تُعطيه فرصة للفداء ويُقِرُّه موتُه.

نولان، مستعْجَلا بالزمن، لم يَعرِف تماما كيف يبتكر الظروفَ المتعدِّدة لتنفيذ الإعدام؛ كان عليه أن ينتحل عمل كاتب مسرحي آخَر، إنه العدو الإنجليزي. لقد كرَّر مشاهِدَ من *ماكْبِثْ* ومن *يوليوس قيصر*. استغرق التمثيل العلني والسري أياما عديدة. دخل المُدان إلى دُبْلِنْ، ناقش، وعمِل، وصَلّى، وشجَب، وتلفَّظ بكلمات بالغة التأثير، وكان كل فعلٍ من تلك الأفعال، التي تعكس المَجْد، قد حُدِّد مسبَّقا من قِبل نولان. تعاون المئات من المُمثِّلين مع البطل؛

وكان دور بعضِهم مُعقَّدا؛ ودور آخَرين مؤقَّتا. إن الأشياء التي قالوها وفعلوها تستمر في كُتُب التاريخ، وفي ذاكرة إيرلاندا شديدة الانفعال. كِيلْبَاتْرِيك، مندَهِشا من ذلك المصير الدقيق الذي يفديه والذي سيقضي عليه، أغنى، أكثرَ من مرَّة، بالأفعال والكلمات المرَتجَلة نصَّ قاضِيه. هكذا، طفقت المأساة الشعبية تتمدَّد حثيثا في الزمن، إلى غاية يوم ٦ غشت من ١٨٢٤، في مقصورة ذات ستائر مأتمية تُصوِّر مسبَّقا مأتم لينكولن، استقرَّت رصاصةٌ، كان يُسعى إليها، في صدر الخائن والبطل، الذي بالكاد أمْكنَه أن يتلفَّظ، بين دَفْقَتَيْ دمٍ فُجائيّ، بعض الكلمات المتوَقَّعة.

في عمل نولان، تُمثِّل الفقرات المُقلِّدة لشكسبير *الأقَلَّ* مأساوية؛ وقد شكّ رِيَّانْ في أنْ يكون المؤلِّف هو من أقحَمها، لكي يتمكّن شخصٌ، في المستقبَل، من أن يَعثر على الحقيقة. وفَهِم كذلك أنه يُشكِّل جزءً من حُبكة نولان... وبعد تأمُّلات عنيدة، صمَّم على أنْ يُسكِت الاكتشاف. لقد نشر كتابا خصَّصه لتمجيد البطل؛ كذلك ذاك، لربما كان متوَقَّعًا.

الموتُ والبوصلة

إلى ماندي مُولِينا ڤدْيا

من بين المشاكل الكثيرة التي راضَتْ فطنةَ لُونْروتْ، لا مشكلةَ أغْرَب -لِنقُلْ أشَدَّ صرامة في الغرابة- مثل سلسلة الوقائع الدموية الدورية التي بلغت الذّروة في البيت الريفي لِتْرِيسْتِي-لُو-رُويْ، بين الرائحة اللانهائية لشجر الأوكلبتوس. صحيح أن إِريكْ لُونْروتْ لم يُفلِح في منع الجريمة الأخيرة، لكن لا نقاش في أنه كان قد توقَّعها. إنه لم يتنبَّأ بهوية القاتل المشؤوم لِيَارْمُولِينْسْكِي، لكنه بالتأكيد تنبَّأ بتضاريس السلسلة الشريرة وإسهام رِيدْ شارْلاشْ، الذي لقبه الثاني هو شارْلاشْ الدَّانْدِي. ذلك المجرم (مثل كثيرين) كان قد أقسم بشرفه على قتل لُونْروتْ، لكنَّ الأخير لم يستسلم لتخويفه أبدا. كان لُونْروتْ يرى في ذاته مُحاجِجًا خالصا، على شاكلة أوغُسْتْ دُوبَانْ، لكنّ فيه نوعا من المغامِر وحتى المُحتال.

حدَثَت الجريمة الأولى في أُوطِيلْ دُو نُورْ -ذلك الموشور الشاهق الذي يُشرف على مَصبِّ النهر، الذي لمياهه لون الصحراء. بذلك البرج (الذي اشتهر كثيرا بجمعه البياضَ المقيت لمستشفى، إلى التقسيم المُرقَّم لسجن، إلى المَظهر العام لبيت سيئ السُّمعة) حَلَّ يوم

٣ ديسمبر المندوب بُودولْسْكي لحضور *المؤتمر التلموديّ* الثالث، الدكتورُ *مارْسيلو يارْمولينسْكي*، وهو رجل ذو لحية رمادية وعينيْن رماديتيْن. لن تعرف أبدا إنْ كان أُوطِيلْ دُو نُورْ قد راقَه: لقد قَبِله مع الاستسلام القديم الذي سمح له بأن يتحمَّل ثلاث سنوات من الحرب في جبال الكارْبات، وثلاثة آلاف سنة من القمع والمجازر. عُرِضت عليه غرفة في الطابق R، قُبالة جناح إقامة ليس أقلَّ روعة شغَله حاكم ولاية *الجَلِيل*. تعشى يارْمولينسكي، وأرجأ إلى اليوم اللاحق استقصاء المدينة المجهولة، ورتَّب في خزانة كتُبَه الكثيرة وملابسَه القليلة جدا، وأطفأ النور قبل منتصف الليل. (هكذا صرَّح سائِقُ حاكم الولاية، الذي كان ينام في الغرفة المجاورة.) ويوم ٤، على الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق صباحا، هاتفَه مُحرِّرٌ بجريدة يِديشْ زايْتُونْغ *Yidische Zaitung*؛ لم يرُدَّ الدكتور يارمولينسكي؛ وعُثِر عليه في غرفته، كان وجهه أسْوَد طفيفا، ويكاد يكون عاريا تحت معطف كبير غير موافق لزمانه، منطرحا غير بعيد عن الباب الذي يُفضي إلى المَمرّ؛ كانت طعنة خنجر عميقة قد شطرت صدرَه. ساعتان بعد ذلك، في الغرفة نفسِها، بين صحافِيِّين ومُصوِّرين ورجال الدرك، كان مفوَّض الشرطة تْريفيرانوس ولُونْرُوت يتجادلان في القضية بهدوء.

– لا ينبغي أن نطلب المستحيل –قال تريفيرانوس، وهو يشهر سيجارا متعجرفا–. جميعا نَعْلَم أن حاكم ولاية *الجليل* يمتلك أفضل أحجار ياقوت العالَم. سيكون أحَدٌ ما، لكي يسرِقَها، قد دخل خطأً إلى هنا، وأن يارمولينسكي قد استيقظ؛ فاضطُرَّ السارق إلى قتله. ما رأيُك؟

– ممكن، لكنّه ليس مهما –أجاب لُونورْتْ–. أنتَ ستُجيب بأن

الواقع ليس له أقلّ إلزام بأن يكون مهما، لكنْ ليس الفرضيات. إنّ الحظ يتدخَّل بوفرة، في ما أنتَ ارتجلتَه. لدينا هنا حَبْرٌ ميت؛ أنا أفضِّل تفسيرا حَبْريًّا خالصا، وليس الحوادث الطارئة والمتخَيَّلة عن سارق مُتَخَيَّل.

- لا تهمني التفسيراتُ الحَبْرية؛ يهمني القبض على الرجل الذي طعن هذا المجهول.

- ليس مجهولا بالمرة -صحَّح لونورتْ-. هنا لدينا أعمالُه الكاملة. -أشار إلى ما في الخزانة من صف المجلَّدات العالية: *دِفاع عن القَبَّالة*؛ واختبار *لفلسفة روبرتْ فْلُود*؛ وترجمة حرفية *لكتاب الخَلْق*؛ وسيرة *بعل شيم*؛ *وتاريخٌ لطائفة الحَسِيدِيّين*، ودراسة (بالألمانية) عن *Tetragrámaton* [*أسماء الرَّب رباعية الحروف*]، ودراسة أخرى عن لائحة أسماء الرب في *أسفار موسى الخمسة*. نظر المُفوَّض إليها بخوف، وبنفور تقريبا. ثم انفجر ضاحكا.

- أنا رجل مسيحي -ردّ-. خذْ كلَّ تلك المجلَّدات، إن تشأ؛ لا وقتَ لديّ كي أضيِّعه في الخرافات اليهودية.

- ربما كانت هذه الجريمة تنتمي إلى الخرافات اليهودية -همهم لونورْتْ.

- مِثل المسيحية -تجرَّأ على الإتمام محرِّرُ جريدة *يِديشْ زايتونغ*. كان أعشى، وملحدا وخجولا جدا.

لا أحد رَدَّ عليه. عثر أحد رجال الشرطة في آلة الكتابة الصغيرة على ورقة فيها هذا الحُكم غيْرُ المُكتمل:

نُطِق الحرفُ الأول من الاسم.

أحجم لونورتْ عن الابتسام. بغتةً أصبح من هواة الكُتُب النادرة

أو عالِما باللغة العبرية، أَمَرَ بأنْ يُهيّأَ له طَردٌ فيه كُتُب الميّت وحمَلَها إلى بيته. غيرَ مكترِث بالبحث البوليسي، انصرف إلى قراءتها. كشف له كتاب من قَطْع الثُّمُن الكبير عن تعاليم إسرائيل بعل شيم توف، مؤسِّسِ طائفة *الوَرِعين*؛ وكشف له آخَر عن فضائل وفظائع أسماء الرَّب رباعية الحروف، وهو اسمُ الربّ الذي لا يُوصف؛ وكشف له كتابٌ آخَر أطروحةَ أنّ الرَّبَّ لديه اسمٌ سِرِّيٌّ، وفيه يتلخَّص (كما في الكرة البلَّورية التي يَعزونها إلى الإسكندر المقدوني) نعتُه التاسع، الخلود -أي المعرفة الفورية بكل الأشياء التي ستكون في الكون، والكائنة فيه، والتي كانت. وتَعُدّ الأحاديث التسعة والتسعين اسما للرب؛ وينسب علماء اللغة العبرية هذا الرقم غير الكامل إلى الخوف السحري من الأرقام الزوجية؛ ويستدلّ الحسيديّون بأن هذه الثّغرة تُشير إلى الاسم المائوي -*الاسم المُطلَق*.

لقد صرفَهُ عن ذلك التَّبحُّر المعرفي، أياما قليلة بعد ذلك، ظهورُ المحرِّر في *يِديش زايتونغ*. رغِبَ هذا الأخيرُ في أن يتحدَّث عن الجريمة؛ ورغبَ لونروتْ في أن يتحدَّث عن الأسماء المختلفة للرب؛ أعلَن الصّحافيُّ في ثلاثة أعمدة بأنّ المحقِّق إيرِكْ لونْروتْ قد انصرف إلى دراسة أسماء الرَّب كي يقف على اسم القاتل. ولونْروتْ، متعوِّدا على تبسيطات الصحافة، لم يَغتظْ. وقد نشر أحدُ أولئك الباعة، من الذين اكتشفوا أنّ أيّ إنسان يرضخ لشراء أي كتاب، طبعةً شعبية من *تاريخ طائفة الحسيديين*.

حدثت الجريمة الثانية ليلةَ ٣ يناير، في أقْفَر الضواحي الغربية الخالية بالعاصمة وأكثرها فراغا. حوالى الفجر، رأى أحد الدَّركيّين، الذي يَحرُسون وهم على فرسهم تلك الأماكن المعزولة، في عتبة مَتجر قديم للطلاء ملفوفا في معطف، وراقدا. كان الوجه الصلب

كأنه مُقنَّع بالدم؛ وكانت طعنة خنجر عميقة قد شطرتْ صدرَه. على الحائط، وعلى المُعيَّنات الصفراء والحمراء، كانت كلماتٌ مكتوبة بالطباشير. تهجَّاها الدَّركيُّ... ذلك المساء، توجَّه تْرِفيرانوس ولورْنتْ إلى مسرح الجريمة القصيّ. على يسار السيارة ويمينها، كانت المدينة تتفتّت؛ وكانت قبة السماء تَكْبُر، وفعلا ما كانت البيوتُ، أو الفُرن المصنوع من الآجر، أو شجرة حَوَر لِتَهُمّ في شيء. وصلا إلى وجهتهما البئيسة: زقاق عند نهاية أسوار وردية قصيرة تبدو كأنها تعكس بصيغة ما غروب الشمس الهائل. تَعرُّف الميّت كان قد حدث. كان هو دانْيِيلْ سِيمُونْ أَزِفِدو، رجُل ذو شهرة معيَّنة في الضواحي القديمة بشَمال المدينة، كان قد ارتقى من سائق عربات إلى وسيم انتخابي، لكي ينحطّ لاحقا إلى سارق، وحتى إلى واش. (بدا لهم الأسلوب المتفرِّد لموته ملائما: أزِفِدو كان آخِر ممثِّل لجيل من اللصوص الذين يعرفون استعمال الخنجر، لكنْ ليس استعمال المسدَّس.) الكلمات التي كُتبتْ بالطباشير كانت التالية:

نُطِق الحرفُ الثاني من الاسم.

حدثت الجريمة الثالثة ليلة ٣ فبراير. قبل الواحدة بقليل، رنَّ الهاتف في مكتب المفوَّض تْرِفيرانوس. بتكتُّم حريص، تحدَّث رجل ذو صوت حلقيّ؛ قال إنه يُدعى غِينْزبرْغ (أو غينسْبُورْغ)، وأنه مستعد للإبلاغ، مُقابل مكافأة معقولة، عن واقعتَيْ ذبح إزِفدو و يارمولينسكي. خنق صوتَ الواشي اعتراضٌ من تصفيقات وأبواق. وبعد ذلك، انقطع الاتصال. ودون حتى رفض إمكان أن تكون المسألة مُزحة (في النهاية، هم كانوا في كرنفال) تثبَّت تْرِفيرانوس من أنه قد كُلِّم من لِيفِرْبُول هاوْسْ، الخمارة الكائنة بشارع تُولونْ -ذلك

الشارع المُقزِّز، الذي تتعايش فيه القاعة المُظلمة مُكبِّرة الصُّوَر cosmorama والمَحلبة، الماخور وبائعو الأناجيل. تكلَّم تْرِفيرانوس مع المالك. هذا الأخير (بْلاكْ فِينِّغانْ، مجرم إيرلاندي قديم، مسحوق وكاد الاحتشام أن يُلغيَه) قال له إنّ آخر شخص كان قد استعمل الهاتف هو مستأجر غرفة، رجل يُدعى غْريفيوس، وأنه خرج توّا مع بعض الأصدقاء. ذهب تْرِفيرانوس مباشرة إلى ليفربول هاوْسْ، فأخبرَه المالك بما يلي: منذ حوالى ثمانية أيام، كان غْريفيوس قد شَغَل غُرفة في أعلى الحانة. كان رجلا ذا قسمات حادَّة، ولحية فوضوية ورمادية، يرتدي بذلة سوداء متواضعة؛ فينِّغانْ (الذي كان يُخصِّص تلك الغرفة لاستعمالٍ حزَرَه ترفيرانوس) طلب منه دون شك أجر كراء مُبالغا فيه؛ دفع غريفيوس فورا المَبلغ المُشتَرَط. لم يكن يخرج أبدا على وجه التقريب؛ كان يتعشى ويتغذى في غرفته؛ بالكاد تعرَّف على وجهه مُرتادو الحانة. تلك الليلة، نزل لكي يُهاتِف مكتَب فِنِّيغان. توقَّفت عربة مُغلَقة تجرها أحصنة قُبالة الخمارة. لم يتزحزح الحوذِيُّ عن مقعده؛ ويتذكَّر بعضُ الزُّبُن أنه كان يضع قناع دُبّ على وجهه. نزل من العربة مُهرِّجان؛ كانا قصيرَيِ القامة، ولا أحدَ أَمْكَنه أن يُلاحظ أنهما كانا سكرانيْن جدا. بين أصوات الثغاء والأبواق، اقتحما مكتَب فِنِّيغان؛ وعانقا غريفيوس، الذي بدا أنه تَعرَّفَهما، لكنه ردَّ عليهما ببرودة؛ تبادل الثلاثة بعض الكلمات باليِدِيشية -هو بصوت خفيض، حَلْقي، بصوتيْن مُزيَّفيْن وحادَّيْن- وصعدوا إلى الغرفة التي فوق. بعد انصرام ربع ساعة، نزل الثلاثة سُعداءَ جدا. غريفيوس وهو مترنِّح بدا شديد السُّكْر مثل الآخريْن. كان يمضي عاليا ودائخا، في الوسط، بين المُهرّجيْن المُقنَّعيْن. (تذكَّرتْ إحدى النساء العاملات في الحانة

المُعيَّنات الصفراء، والحمراء، والخضراء.) تعثّر مرَّتيْن، ومرَّتيْن أسنَده المُهرِّجان. في اتجاه رصيف بناء السفن المحاذي، ذي الأحواض المستطيلة، صعد الثلاثة في العربة واختفوا. آخِر المُهرِّجيْن وهو على سُلّم العربية، خَربَش صورة فاحشة، وحُكما في إحدى سبورات لوائح الأثمنة.

شاهد تْرِفيرانوس الحُكم. كان يكاد يكون متوقَّعا، قال:

نُطِق الحرفُ الأخير من الاسم

بعد ذلك، فحص الغرفة الصغيرة لغريفيوسغينزبرغ. كانت على الأرضية نجمة دم مفاجئة؛ وفي الزوايا، أعقاب سجائر نوعُها هنْغاري؛ وفي خزانة كتاب باللاتينية -*el Philologus hebraeo-graecus* (١٧٣٩) [الفيلولوجيا العبرية-اللاتينية] لمؤلِّفه لِوْسْدِنْ- مع أنواع من الملاحظات الخطّية. نظر فيه ترفيرانوس بغيظ، وطلبَ حضور لونْروتْ. هذا الأخير، دون أن يُزيل القبعة، شرع في القراءة، بينما المفوَّض كان يستجوب الشهود المتناقضين على الاختطاف المُحتمَل. على الساعة الرابعة انصرفا. وفي شارع تُولُون الملتوي، لما كانا يدوسان أشرطة الفجر الملوَّنة، قال ترفيرانوس:

ماذا لو كانت حكاية هذه الليلة مُصطنَعة؟

ابتسم إريكْ لونورْتْ، وقرأ له بمنتهى الرصانة مَقطعا (كان مُشدَّدا عليه) من المقالة الثالثة والثلاثين من *فيلولوجيا* :

Dies Judaeorum incipit a solis occasu usque ad solis - ocassum diei sequentis. ويعني هذا -أضاف-: النهارُ العبري يبدأ عند الإظلام ويمتدّ حتى الليلة اللاحقة.

جرَّبَ الآخَر عبارة ساخرة.

- هل تلك المعلومة هي أثمن ما التَقَطْتَه هذه الليلة؟

- لا. الأثمن هي كلمة قالَها غينزبرغ.

لم تهمل جرائد المساء تلك الاختفاءات الدَّورية. لقد عارض *صليبَ السَّيف* بالانضباط الرائع والنظام الذي كان عليه *المؤتمر التلمودي* الأخير؛ واستنكر *إِرنِستْ بالاسْتْ* في صحيفة *المارْتِير* «التأخيرات التي لا تُطاق في تنفيذ مذبحة سرّيَّة وبسيطة، واقتضتْ ثلاثة أشهر لقتل ثلاثة يهود»؛ ورفضتْ *يِديشْ زايتونغ* الفرضية الفظيعة لمؤامرة مناهضة للسامية، «ولو أن كثيرا من النفوس النافذة لا تقبل حلا آخَر للغز الثلاثي»؛ وأقسم دانْدِي رِدْ شارْلاشْ، أبرز مُسلَّحي سُورْ أنّه لن تحْدُث في حيِّه أبدا جرائمُ مماثلة، واتَّهم المفوَّض فْرانْزْ ترفيرانوس بالإهمال.

وتوصَّل هذا الأخير، ليلةَ ١ مارس، بظرف هائل مختوم. فتحه: كان الظرف يحوي رسالة بتوقيع *باروخ سبينوزا*، ومعها خارطة دقيقة للمدينة، انتُزِعت بشكل ملحوظ من دليل أسفار *بايْدِكِرْ*. كانت الرسالة تتنبّأ بأنه في ٣ من مارس لن تكون جريمة رابعة، ذلك أن مَتجر الطلاء في الغرب، وخمّارة شارع *تولونْ*، *وأوطيل دو نُورْ* هي «رؤوس الزوايا التامة لمثلَّث متساوي الأضلاع وباطني»؛ وكانت الخارطة تُبرهِن بمداد أحمر على انتظام ذلك المثلَّث. قرأ ترفيرانيوس في إذعان ذلك الموضوع *more geométrico أكثر من الهندسي*، وبعث الرسالة والخارطة إلى بيت لونورْتْ -مستحقٍّ نظير هذه الحماقات الذي لا تُناقَش.

درسَهما إِريكْ لونورْتْ. الأمكنة الثلاثة كانت، فعلا، متساويَةً مسافةً. تَماثُل في الزمان (٣ من ديسمبر، و٣ من يناير، و٣ من فبراير)؛ وتماثُل في المكان، أيضا... أحسَّ، فجأة، بأنه يوشك

على فك شيفرة اللغز. أكْمَل بِركارٌ وبوصلة ذلك الحدس الفُجائي. ابتسم، ونطق بكلمة *Tetragrámaton* [*اسم الرَّب رباعي الأحرف*] وهاتَف المفوَّض. قال له:

- شكرا على ذلك المثلَّث متساوي الأضلاع الذي أرسلْتَه إليّ أمس ليلا. لقد سمح لي بأن أحُلَّ المشكلة. غدا الجمعة سيكون المجرمون في السجن؛ يُمكننا أن نكون هادئين جدا.

- إذن، ألا يُخطِّطون لجريمة رابعة؟

- بالضبط، لأنهم يُخطّطون لجريمة رابعة، يُمكننا أن نكون هادئين. -ووضع لونورْتْ السماعة.

ساعةً بعد ذلك، كان يُسافر في قطار للسكك الحديدة الجنوبية، في اتجاه البيت الريفي المهجور لتْرِيسْتِي-لو-رُويْ. جنوبَ مدينةِ حكايتي ينساب على غير هدى جدولُ مياه وَحليَّة، يَشينُه صرْفُ مدابغَ وأزبال. وفي الناحية الأخرى توجَد ضاحية صناعية حيث، في حماية زعيم بَرشَلُونيّ، يزدهر نشاط المُسلَّحين. ابتسم لونورْتْ لما فكّر في أن أكثرَهم شُهرة -رِدْ شارْلاشْ- كان مُستَعِدّا ليُقدِّم أيَّ شيء مُقابِل أنْ يعرف سبب تلك الزيارة السرية. كان أَزِفِدُو زميلا لشارْلاش، وقد اعتَبر لونورْتْ الاحتمالَ القصيّ في أنْ يكون شارْلاشْ الضحيَّةَ الرابعة. بعد ذلك، أقصى الاحتمال... افتراضيا، كان قد فكّ شيفرة القضية؛ والظروف عديمة الأهمية، والواقع (الأسماء، والتوقيفات، والوجوه، والإجراءات القضائية والسجنية)، تكاد لا تهمه الآن. كان يرغب في أن يرتاح من ثلاثة أشهر قضاها في البحث جالسا. فكَّر في أن تفسير الجرائم كان في مثلَّث مجهول الاسم وفي كلمة إغريقية علاها الغبار. بدا له اللغز شِبه مُتبَلْوِر؛ خجِل من كونه أفرد له مائة يوم.

وقف القطار في محطة للبضائع هادئة. نزل لونورْتْ. كان الوقت من صنف تلك المساءات المقفرة التي تُشبه أوقات الفجر. هواء السّهل الكَدِر كان رطبا وباردا. شرع لونورْتْ يخوض عبر الحقول. رأى كلابا، ورأى عربة في طريق مهجور، ورأى الأفق، ورأى حصانا فِضّيَّ اللون يشرب ماءَ بركةٍ قذِرٍ. كان الظلام قد بدأ يغمر ما حوله لمّا رأى المَرقَب المستطيل للبيت الريفي لتْريستي-لو-رويْ، يكاد يكون عاليا شأنَ أشجار الأوكاليبتوس التي تحيط به. فكَّر في أن فجرا واحدا وغروبا (إشراق قديم في الشرق وآخر في الغرب) يكادان يفصِلانه عن الساعة المُتطَلَّع إليها من قِبَل الباحِثين عن *الاسم*.

يُحدِّد سياجٌ صدئ المحيط غيرَ المتناسق للبيت الريفي. كان الباب الرئيس مُغلَقا. لونورْتْ، دون أمل كثير في الدخول، دار حول البيت دورة بكاملها. ومن جديد أمام المَدْخل مُستحيل التجاوز، أدخل يده بين القُضبان الحديدية، بحركة آلية تقريبا، فصادف المزلاج. فاجأه صرير الحديد. وبسلبية مُجهِدة، استسلم الباب برُمَّته.

تقدَّم لونورْت بين أشجار الأوكلبتوس، وهو يدوس أجيالا غامضة من الأوراق المكسورة والمتصلبة. عند النظر إلى البيت الريفي لتْريستي-لو-رويْ عن قرب، تُرى وفرةُ التناظرات غير المُجدية والتَّكرارات الهوَسية: إن أيقونة *دِيَانا* جليدية في مشكاة قاتمة تُقابِل بالمثل أيقونة *لِدِيَانَا* أخرى في مشكاة ثانية؛ وشرفةً تنعكس في أخرى؛ وسلالمَ مُضاعَفة تنفتح على درابزين مُضاعَف. ويُلقي هِرمس ذو وجهَيْن ظِلًّا مُشوَّها. طاف لونورْتْ تجول في البيت مثلما طاف حوله. فحص كلَّ شيء؛ ورأى أسْفَل مستوى الشرفة شمسية نافذة ضيِّقة.

دَفعها: بدتْ سلالم قليلة من مرمر تنزل إلى سرداب. لورنوتْ،

الذي كان قد حدس أولويات المهندس المعماري، تنبَّأ إلى وجود سلالم أخرى في الجدار المُقابل للسرداب. عثر عليها، رفع يديْه وفتح وجْرةَ الخروج.

قادَه إلى نافذة لَمَعانٌ. فتَحها: حدَّد قمرٌ أصفر ودائريّ في الحديقة الحزينة نافورتيْن مُعطَّلتيْن. استكشف لونورْت البيت. خرج من الحجرات المجاورة للمطبخ والأروقة إلى فِناءات متشابهة ومرَّاتٍ مُتكرِّرة إلى الفِناء ذاتِه. صعد عبر سلالم يعلوها الغُبار إلى غرف انتظار دائرية؛ وتتضاعَف إلى ما لا نهاية في مرايا متقابلة؛ تعب من كثرة فتح النوافذ أو مواربتها، والتي تكشف له، في الخارج، عن الحديقة الخرِبة نفسِها، انطلاقا من مرتفعات متنوعة، ومن زوايا متنوعة؛ في الداخل، أثاث بأغلفة صفراء وثريّات ملفوفة في نسيج التَّرْلَتان. توقَّف عند غرفة نوم؛ في تلك الغرفة، توجد وردةٌ وحيدة في إناء من خزف صيني؛ عند أوّل احتكاك له به تفتَّتتِ البَتَلات القديمة. في الطابق الثاني، في الأخير، بدا له البيتُ لا نهائيا ومتناميا. «ليس البيت كبيرا جدا»، فكَّر. «يَزيد في كِبره الظّل، والتماثل، والمرايا، والسنوات الكثيرة، وجَهلي، والعزلة.»

وصل عبر سُلّم لولبي إلى المَرقَب. كان قمر ذلك المساء يخترق مُعيَّنات النوافذ؛ كانت المعيَّنات صفراء، وحمراء، وخضراء. أوْقَفتْه ذكرى مُدهِشة ومُسبِّبة للدّوار.

انقضّ عليه رجُلان ذوا قامة قصيرة، وشرسان ومَتينان، ونزعا سلاحه؛ وآخَر، طويلٌ جدا، حيّاهُ بصوت جسيم وقال له:

- أنتَ لطيف جدا. لقد وفَّرتَ عليْنا ليلة ونهارا.

كان الرَّجل هو رِدْ شارْلاشْ. قيّدا الرَّجلان يديْ لونروتْ. هذا الأخير، عثَر في الأخير على صوته.

- شارْلاشْ! هل أنتَ تبحث عن الاسم السِّرّيّ؟

استمرّ شارْلاشْ واقفا، وغير مكترث. لم يكنْ قد شارك في الصراع القصير، بالكاد مدّ يدَه كي تستقبل مُسدَّس لونروتْ. تكلَّم؛ لونروتْ سمِع في صوته انتصارا مُتْعَبا، وحقدا بحجم الكَوْن، وحزْنا ليس بأقلَّ من ذلك الحقد.

- لا -قال شارْلاشْ-. أبحثُ عن شيء أكثرَ زوالا وقابلية للانكسار، أبحثُ عن إريكْ لونروتْ. منذ ثلاثة أعوام، في مَقمَرة بشارع تولون، أنتَ نفسُك اعتقلْتَ أخي وسجنتَه. وفي عربة، أخرجني رجالي من تبادل طلقات الرصاص برصاصة من شرطي في البطن. كنتُ في احتضار طيلة تسعة نهارات وتسع ليالٍ، في هذا البيت الريفي الموحش والمتناظر؛ تدُكّني الحمى، وخانو ذو الجَبهتيْن الممقوت، ينظر إلى مَشاهد غروب الشمس وشروقها، ويُفزِعني في منامي وسَهري. بلغ الأمر بي أن كرهت جسدي، ووصل الأمر أنْ أحسسْتُ أنّ عينيْن، ويديْن، ورئتيْن، هما شديدتا البشاعة مثل وجْهيْن. سعى إيرلاندي إلى تحويلي إلى دين المسيح؛ كان يُكرِّر عليَّ مَثَلَ *goyim* الجُويِيم[1]: كل الطُّرق تؤدي إلى روما. بحلول الليل، كان هذياني يتغذى على تلك الاستعارة: كنتُ أشعر أن العالَم متاهةٌ، يستحيل الفرار منها، ذلك أن كلّ الطُّرق وإن كانت توهم بأنها تتجه إلى الشمال أو الجنوب، فإنها كانت في الحقيقة تتجه إلى روما، التي كانت السجن رُباعيّ الزوايا حيث كان أخي يُحتضَر والبيت الريفي لتريستي-لو-روي. في تلك الليالي، أقسمْتُ باسم الرب الذي يرى بوجْهيْن وباسم كل آلهة الحُمّى والمرايا أنْ

---

(١) أي *الأغْيار* وهم عند اليهود الأقوام التي ليست منهم. [المترجم]

أنْسُجَ متاهة حول الإنسان الذي سَجَنَ أخي. لقد نسجْتُها وها هي ثابتة: المواد هي عالِم هرطقة ميِّت، وبوصلة، وطائفة من القرن الثامن عشر، وكلمة إغريقية، وخنجر، ومُعيَّنات مَتْجر طِلاء.

»لقد قُدِّم لي الحَدُّ الأوَّل من السلسلة من قِبَل الحَظِّ. كنتُ قد حَبَكْتُ مع بعض الزملاء -من بينهم دانْيِيل أَزفِدو سرقة يواقيت حاكم الولاية. خاننا أَزفِدو: سكر بالمال الذي كنا قد قدَّمناه إليه فبدأ المشروع يوما قبل الموعِد. ضاع في الفندق الهائل؛ وحوالى الثانية صُبحا اقتحَم غرفة نوم يارمولينسكي. هذا الأخير، الذي وقَد جفاه النومُ، كان قد جلس لكي يكتب. يُحتَمل أنه كان يُحرِّر ملاحَظات أو مقالة عن *أسماء الرب*؛ كان قد كتب الكلمات: «الحرْفُ الأول من الاسم نُطِقتْ». أشار إليه أَزفِدُو بأن يَصْمت؛ مدَّ يارمولينسكي صوب الجرس الذي قد يوقظ كل قُوى الفندق؛ فعالَجه أَزفِدو بطعنة خنجر واحدة في الصدر. كانت حركة انعكاسية تقريبا؛ لقد علَّمه نصف قرن من العنف أنّ الأسهل والآمن هو أن يقتل... عشرة أيام بعد ذلك، عرفْتُ عبر *اليِديش زايتونغ* أنّك تبحث في كتابات يارمولينسكي عن مفتاح سِرِّ موتِ يارمولينسكي. قرأتُ *تاريخ طائفة الحسيديين*؛ وعرفْتُ أنّ الخوف المُوقَّر من نُطق *اسم الربّ* كان منشأُه المذهب القائل أنّ *الاسم* كلِّيُّ القدرة وخفي. عَرفْتُ أنَّ بعض الحسيديّين، في بحثهم عن ذلك *الاسم السّرّيّ*، بلغ بهم الأمر أن قدَّموا أضحيات بشرية... فهِمْتُ أنك كنت تتكهن بأن *الحسيديين* قد ضحَّوا بالحَاخام؛ فانصرفْتُ على تبرير ذلك التكهُّن.

«توفي مارسِلو يارمولينسكي ليلة ٣ ديسمبر؛ وبالنسبة «للأضحية» الثانية اخترتُ يوم ٣يناير. مات في *الشمال*؛ بالنسبة «للأضحية» الثانية كان يلائمنا مكان في الغرب. كان أَزفِدُو هو الضحية

الضرورية. كان يستحق الموت: كان اندفاعيا، وخائنا؛ وكان بِوُسع إلقاء القبض عليه أنْ يقضي على الخطة برُمّتها. لقد طعنَه أحَدُ المنتمين إلينا؛ ولعقد صلة لجثته مع الجثة السابقة، كتبْتُ على مُعيَّنات مَتجَر الطِّلاء «نُطِق الحرف الثاني من *الاسم*.»

وقعت «الجريمة» الثالثة يوم ٣ فبراير. كانت، مثلما تنبَّأ ترفيرانوس، مجرَّد حدث مُصطَنع. أنا هو غريفيوس-غرينسبرغ-غينسبورغ. تحمَّلتُ أسبوعا لا نهاية له (مُلحِقا بوجهي لحية خفيفة، واصطناعية) في غرفة النوم تلك بشارع *تولونْ*، إلى أن اعتقلني الأصدقاء. وانطلاقا من مِرقاة العربة، كتب أحدُهما على عمود «نُطِق الحرفُ الأخير من *الاسم*». أذاعتْ تلك الكتابةُ أنّ سلسلة الجرائم كانت ثلاثية. هكذا فهِمَ المسألةَ جمهورُ الناس؛ أنا، على الرغم من ذلك، أقحمْتُ مؤشِّرات مُتكرِّرة كي تَفْهَمَ أنتَ، أيها المُتعقِّل إريكْ لورنوتْ، أنَّ السلسلة *رُباعية*. أعجوبة في *الشَّمال*، وأخرَيان *الغرب* و*الشّرق*، كانت تُطالِب بأعجوبة رابعة في *الجنوب*؛ *الاسم رباعي الأحرف* (*اسم الرب*، يَافِي *JHVH* [Yahveh]) يتألّف من *أربعة* أحرف؛ يُشير المهرِّجان وعَيّنة الطِّلاء إلى *أربعة* تحديدات. لقد أبرزْتُ بعض الفقرات في دليل لِوْسْدِنْ؛ تُظهِر تلك الفقرة أنّ العِبريين كانوا يحسبون اليومَ من غروب إلى غروب. تُفهِم تلك الفقرة أنّ حالات القتل قد حدثت في اليوم *الرابع* من كل شهر. أنا أرسلْتُ المثلَّث متساوي الأضلاع إلى تريفيرانوس. لقد حدسْتُ أنك ستُضيف النقطة التي كانت تنقص. النقطة التي تحدِّد مُعيَّنا تاما، النقطة التي تُعيِّن الموضع الذي ينتظرُك فيه موتٌ دقيق. تعمَّدتُ كلَّ شيءٍ، يا إريكْ لونروتْ، كي أجْذِبكَ إلى توحُّدات تريستي-لو-رويْ.

تفادى لونروتْ عينيْ شارْلاش. نظر إلى الأشجار والسماء

مُقسَّمةً إلى مُعيَّنات عَكِرة صفراء، وخضراء، وحمراء. أحسّ بقليل من البرد وبحزن غير شخصي، يكاد يكون مجهولا. حلّ الليل فعلا؛ وانطلاقا من الحديقة المغبَرَّة تناهى الصُّراخ العبثي لطائر. للمرة الأخيرة، تأمَّل لينورْت مشكلةَ الميتات المتناظرة والدَّوريّة.

- في متاهتك ثلاثة خطوط زائدة عن اللزوم -قال أخيرا-. أنا أعْرِف عن متاهة إغريقية هي خط متفرِّد، ومستقيم. ضاع في ذلك الخط العديد من الفلاسفة، ويمكن أن يضيع فيها مُحقِّق شرطة متواضع. يا شارلاش، لمّا ستُلاحِقني في تجسُّد آخَر، تظاهرْ (أو اقترفْ) جريمة في أ، ثم جريمة ثانية في ب، على مسافة ٨ كيلومترات من أ، ثم جريمة ثالثة في ج، على مسافة ٤ كيلومترات عن أ وب، في منتصف الطريق بين الاثنيْن. انتظرني بَعْدُ في د، على مسافة كيلومتريْن اثنيْن عن أ و ج، ومجدَّدا في منتصف الطريق. أُقتُلني في د، بما أنك ستقتُلني الآن في تريستي-لو-روي.

- بالنسبة للمرة القادمة التي سأقتلك فيها -ردَّ شارْلاش- أَعِدُكَ بتلك المتاهة، التي تتكوَّن من خطّ واحد مستقيم وغير مَرئِيّ، وغير مُنقَطع.

تراجع إلى الوراء لخطوات. وبعد ذلك، وبعناية فائقة، أطلق النار.

١٩٤٢



المعجزة السّرّيّة

«فأماتَه الله مائةَ عام، ثم بَعَثَه، قال:
كم لَبِثْتَ؟ قال: لَبِثْتُ يومًا أو بعضَ يوم»
القرآن، سورة البقرة، الآية ٢٥٩

ليلةَ اليوم الرابع عشر من مارس ١٩٣٩، في شقة بشارع زِلتْنِغْراسِ في بْراغ، حَلُم جارُومير هْلاديك- مؤلِّف المسرحية غير التامة *الأعداء*، و*ثأر الأبدية*، وبفحص للمصادر اليهودية غير المباشرة عند جاكوب بُووِهْمِ- بمباراة شطرنج طويلة. لم يكن يخوضُها فَردَان، بل عائلتان بارزتان؛ كانت المقابلة قد بدأتْ منذ قرون كثيرة؛ ولا أحد كان قارا على أن يُسمّيَ الجائزة المَنسيَّة، لكنْ كان يُتَمْتمُ بأنها كانت هائلة، وربما لا نهائية؛ كانت القطع والرقعة في برج سِرِّيّ؛ وكان جارُومير (في الحلُم) بِكرَ إحدى العائلتَيْن المُتَعادِيتيْن؛ في السّاعات كان وقْتُ اللعبة التي لا يُمكن تأجيلُها يرِنّ، وكان الحالِم يجري عبر رمال صحراء مَطير، ولم يكن يُفلِح في أن يتذكَّر أشكال الشطرنج ولا قواعده. في تلك النقطة، استيقظَ. من شارع زِلتْنِغْراسِ، كان ضجيجٌ موزون ومتَّحد يصعد، وتقطَعه بعضُ الأصوات القائدة. كان الوقتُ بوادرَ الصباح، وكانت طلائع مُصفَّحات الرايخ الثالث تدخُل إلى بْراغ.

وفي اليوم التاسع عشر، تلقت السلطات إبلاغا؛ وفي اليوم التاسع عشر نفسه، بداية حلول الليل، أُوقِفَ جارومير هْلافْديك، وسِيقَ إلى معتَقَل بارد وأبيض، على الضفة المقابِلة لنهر مُولْدَاوْ. لم يتمكَّن من أن يدفع عنه ولو اتهاما واحدا من الاتهامات التي وجَّهها إليه جهاز الجِيسْتابو: اسمُه العائلي من جهة أمه كان هو جاروسْلافسكي، وكان دمه يهوديا، ودراستُه عن بُووِم كانت ذات منحى يهودي، وتوقيعه كان يؤجِّل الإحصاء النهائي لاحتجاج على الأنْشلوسْ[1]. وفي ١٩٢٨، كان قد ترجم *سِفر التكوين Sefer Yetzirah* لدار النشر هِرْمان بارْدْسْدُورف؛ الكاتالوج الكاشف عن تلك الدار التي ألَحَّتْ تجاريا على إشهار المترجِم على الغلاف؛ وقد تُصُفِّح ذلك الكاتالوج من قِبَل جوليوس روتْ، أحد الرؤساء الذين كان مصيرُ هْلاذْليك في يديْه. لا رجُل، ضِمن تخصُّصِه، لم يكن سريع التصديق؛ فنَعتٌ أو نعتان بالحروف القوطية يكفيان لكي يَقبَل جوليوس رُوتْ بتَفوُّق هْلاذْليكْ، وأنْ يُرتِّب للحكم عليه بالموت، كي يُشجِّع *الآخرين pour encourager les autres*. حُدِّد يوم التاسع والعشرين من مارس، على الساعة التاسعة صباحا. ذلك التأخُّر (الذي ستظهر أهميته للقارئ لاحقا) مَردُّه إلى الرغبة الإدارية في العمل بطريقة غير شخصية وبتمهُّل، مثلما النباتات والكواكب.

كان الإحساس الأول لهْلاذْليك مجرَّد رعب. فكَّر في أنه لم تكنْ لتُفزِعه المشنقةُ أو ضرب العُنق أو النحر، لكنَّ الموتَ رميا بالرَّصاص كان ما لا يُطاق. عبثًا كرَّرَ القول على نفسه بأنّ فِعل الموت خالصا وعامّا كان هو ما يُخيف، وليس الظروف الملموسة.

---

(١) الأَنْشْلُوسْ Anschluss عملية ضم النمسا إلى ألمانيا سِلميّا من قِبَل النازيين في ١٢ مارس ١٩٣٨. [المترجم]

لم يكن يَتعب من تخيُّل تلك الظروف: وفي عبث كان يسعى إلى استنفاد كل التنويعات عليها. كان يستبق الإجراءَ إلى ما لا نهاية، بدءً من الفجر الأرِق إلى غاية إفراغ الرّصاص المُلغِز. قبل اليوم المُحدَّد مسبَّقا من قِبَل جوليوس رُوتْ، مات مئات المَيتات، في فِناءات كانت أشكالُها وزواياها تُتعِب الهندسةَ، مَرْميًّا برصاص جنود متنوِّعين، وبأعداد متغيِّرة، أحيانا كانوا يُنجِزون ذلك من بعيد؛ وأحيانا أخرى، عن قرب شديد. كان يُجابه برعب حقيقي (ربما بشجاعة حقيقية) تلك الإعدامات المتخيَّلة؛ كلُّ إعدام مُصطَنع كان يستغرق ثواني قليلة؛ وبإغلاق الدائرة، كان جارومير إلى ما لا نهاية يعود إلى ارتجفات العشيات السابقة على موته. ثم فكَّر في أن الواقع عادة ما لا يتطابق مع التنبُّؤات؛ وبمنطق منحرِف استدلّ على أنّ التنبُّؤ بتفصيل ظرفي هو منع لهذا الأخير من الحدوث. ووفِيًّا لذلك السِّحر الضعيف، كان يخترع، عباراتٍ شنيعة، *لأجل ألّا يَحْدُث*؛ وبالطبع، فقد انتهى به الأمر إلى الخوف من أن تكون تلك العبارات نبويَّة. بائسا في الليل، سعى أنْ يُثبت ذاتَه بصيغة ما في كُنه الزمن الهارب. كان يَعْلم أنّ الأخير يتسرَّع حوالى فجر اليوم التاسع والعشرين؛ وكان يتكلّم بصوت عال: «أنا الآن في ليلة اليوم الثاني والعشرين؛ وطالما تدوم هذه الليلة (وست ليال أخرى) فأنا بمنأى عن كل أذى، وأبَديّ». فكَّر في أنّ ليالي النوم كانت أحواض سباحة عميقة ومعتمة، يُمكِنُه أن يغطس فيها. أحيانا كان يتشوَّق بنفاد صبر إلى إطلاق النار النهائي عليه، الذي قد يُخلِّصه، بشَرّ أو خير، من مهمة التخيُّل عديمة الجدوى. ويوم الثامن والعشرين، لما كان الغروب الأخير ينعكس في القُضبان العالية، صرَفتْه عن تلك الاعتبارات الخسيسة صورةُ مسرحيته *الأعداء*.

هْلاديك كان قد تخطى الأربعين عاما. وعدا بعض الصداقات وكثير من العادات، كانت الممارسة الإشكالية للأدب تُؤلّف حياتَه؛ وعلى غرار كلّ كاتب، كان يقيس فضائل الآخَرين بمُنجَزِهم، وكان يُطالِب بأن يَزِنه الآخَرون بما كان يَلمَح أو يُخطِّط له. إنّ جميع الكُتب التي كان قد سلَّمها إلى المطبعة كانت تبثّ فيه إحساسا بالندم معقَّدا. في اختباراته لأعمال بُووِمْ، وابن عزرا، وفْلُوُود، تدخَّل أساسا التطبيق المحض، في ترجمته *سِفر التكوين* ***Sefer Yetzirah***، الإهمالُ والتّعب والتكهُّن. وقدَّر بأن الأقل نقصا، ربما، هو *ثأر الأبدية*: يحكي المجلَّد الأوّل مختلَف الأبديات التي تصوَّرها البشر، منذ *الكائن* الثابت عند *بارمينيديس* حتى الماضي المُعدَّل عند هينْتون؛ ويُنكر المجلَّد الثاني (مع *فرانسيس بْرادلي*) أن تكون كل وقائع الكون تُتمّم سلسلة زمنية. يَستنتج أن رقم تجارب الإنسان المُمكِنة ليس لا نهائيا، وأنه يكفي «تَكرارٌ» واحد للبرهنة على أن الزمن خِداع... لسوء الحظ، ليست الحججُ التي تُبرهن على ذلك الخِداع أقلَّ خِداعا؛ لقد تعوّد هْلاديك أن يستعرضها بنوع من الارتباك المُستهين. كذلك، كان قد حرَّر سلسلة من القصائد الانفعالية المَذْهب؛ وهذه الأخيرة، بسبب ارتباك الشاعر، ظهرتْ في أنطولوجيا سنة ١٩٢٤، ولا أنطولوجيا لاحقة تخلَّتْ عن إدراجها بالوراثة. من كل ذلك التاريخ المُلتبِس والخامل رغب هلاديك في أن يتحرر بمسرحية *الأعداء*. (هلاديك كان يمتدح الشعر، لأنه يحول بين الجمهور ونسيان ما ليس واقعا، الذي هو شَرطُ الفنّ.)

حافظتْ هذه المسرحية على وحدات الزمان والمكان والأحداث؛ وتدور وقائعها هْرادْكاني، في مكتبة بارُون رُوْمِرْسْتاِتْ، في أحد المساءات الأخيرة من القرن التاسع عشر. في المَشهد الأول

من الفصل الأول، يزُور مجهولٌ رُوْمِرْسْتاتْ. (تدُقّ ساعةٌ السابعةَ، تُهيِّج حِدّةُ الشمس الراحلةِ زُجاج النوافذ، ويَجلُب الهواءُ موسيقى هنغارية نزقة ومُميَّزَة.) تتلو هذه الزيارةَ زياراتٌ أخرى؛ رُوْمِرْسْتاتْ لا يَعرِف الأشخاص الذي يُزعجونه، لكنّ لديه الانطباع غير المُريح بأنه قد رآهم فعلا، ربما في حُلُم. جميعُهم يُطرونَه بمُبالَغة، لكن المعلوم -أولا بالنسبة إلى مُشاهدي المسرحية، ولاحقا بالنسبة إلى البارون نفسِه- هو أنهم أعداء سرِّيُّون، وأنهم يتآمرون على هلاكه. أفلح رُوْمِرْسْتاتْ في أنْ يُوقِف أو أنْ يَسْخر من دسائسهم المعقَّدة؛ في الحوار، يُلمِّحون إلى خطيبته، جولْيا دُو فيدُونُو، وإلى شخص يُدعى جارُوسْلاف كُوبِين، الذي ضايَقها ذاتَ مرَّة بإعلانه حُبَّه. هذا الأخير، الآن، قد جُنَّ، ويَعتقد أنه صار رُوْمِرْسْتاتْ... تشتَدّ الأخطار؛ ويجد رُوْمِرْسْتاتْ نفسَه، في نهاية الفصل الثاني، مُضطرًّا إلى قتل أحد المتآمِرين. يبدأ الفصل الثالث، الأخير. ينمو انعدام التناسق تدريجيا: يعود ممثِّلون بدا أنَّهم أُبْعِدوا فِعْلا من الحُبكة؛ يعود، للحظة، الرَّجلُ الذي قتلَه رُوْمِرْسْتاتْ. يُبدي أحدُهم ملاحظةَ أن المساء لم يحلَّ بعْد: تُعلن الساعة عن السابعة، الشمس الغربية تنعكس في زجاج النوافذ العالية، والهواء يَجْلُب الموسيقى الهنغارية النَّزِقة. يَظهر المُحاوِر الأول ويُكرِّر الكلمات التي نطقها في المَشهَد الأوَّل من الفصل الأول. يُكلِّمه رُوْمِرْسْتاتْ دون اندهاش؛ يَفهَم المُحاور أن رُوْمِرْسْتاتْ هو جاروسلاف كُوبِين البائس. لم تَحْدُث المأساة: إنه الهذيان الدائري الذي يعيشُه كوبين إلى ما لا نهاية.

لم يسبق لهلاديك أن تساءل أبدا إن كانت تلك المأساة الكوميدية من الأخطاء تافهةً أو رائعة، قاسية أو عَرَضية. في الوثيقة التي وضعتُ خُطاطتَها الأولى يُحْدَس الابتكارُ الأكثر كفاءة لإخفاء

عيوبه، ولتدريبه على ما يُسعده، وعلى إمكان إنقاذِه (بطريقة رمزية) للأساسي في حياته. فعلا، كان الفصل الأول قد انتهى ومَشْهدٌ من الفصل الثالث؛ سَمَح له الطابَعُ العروضي الشعريّ للمسرحية بفحصها باستمرار، وبتصويب سُداسي الوزن منها، دون التوافر على المخطوط بين يديْه. فكَّر في أنه لا يزال ينقُصُه فَصلان، وأنه قريبا جدا سيموت. تكلَّم مع الله في العتمة. «إذا ما كنتُ بصيغة ما موجودا، وإذا لم أكنْ تَكرارا من تَكراراتك وأخطائك، فأنا موجودٌ بصفتي مؤلِّفَ *الأعداء*. ولإتمام تلك المسرحية، التي يُمكنُها أن تُثبِت وجودي ووجودَك، فأنا أحتاج إلى سنة إضافية. اِمنحْني تلك الأيام، *أنتَ يا مالك القرون والزمان*». كانت الليلة الأخيرة، وكانت أكثرَها فظاعة، لكنْ عشْر دقائق بَعْدُ، غَمَره النومُ مثل مياه داكنة.

حوالى الفجر، حَلُم بأنه قد تخفى في أحد أجنحة مكتبة كْلِمنْتِينُومْ. سأله أحدُ المكتبِيِّين ذو نظَّارَة سوداء: «عمَّ تبحث؟». أجابَه هْلاديك: «أبحث عن *الرّب*». قال له المَكْتبِيُّ: «يوجَد الربُّ في أحد حروف إحدى صفحات مجلدات الكْلِمنْتِينُوم الأربعمائة ألف. لقد بحث والداي ووالِدا والِدَيّ عن ذلك الحرف؛ وأنا أُصبْتُ بالعمى أثناء بحثي عنه». نزع نظّارتَه، فرأى هْلاديك العينيْن، كانتا ميّتَتيْن. دخل قارئ لإعادة مجلَّد أطلس. «هذا الأطلس غير ذي نفع»، قال، وقدَّمه إلى هْلاديك. فتحَه هذا الأخير عشوائيا. رأى خارطة *للهند*، تُسبِّب الدّوار. فجأةً وواثِقا، لمس أحد الحروف الصغيرة. فقال له صوتٌ كُلّيُّ الحضور «لقد مُنِحتَ زمنَ عَمَلِكَ». هنا استيقظ هْلاديك.

تذكَّر أن أحلامَ الناس مِلك للرب، وأن الفيلسوف *ابن ميمون* كتب أن كلماتِ الحلُم ربَّانية، عندما تكون مختلفة وواضحة وتتعذَّر

رؤيةً قائلها. ارتدى ملابسه؛ دخل عليه زنزانتَه جنديان، وأمراه بأن يتبعهما.

في الجهة الأخرى من الباب، كان هلاديك قد توقَّع متاهةً من الأروقة، والسلالم، والأجنحة. الحقيقةُ كانتْ أقلَّ ثراء: لقد نزلوا إلى فِناء خلفيّ عبر سُلَّم واحد من حديد. العديد من الجنود -أحدُهم بلباس رسمي غير مُزرَّر- كانوا يفحصون درَّاجة نارية ويتناقشون في شأنها. نظر الرَّقيب إلى الساعة: كانت تُشير إلى الثامنة وأربع وأربعين دقيقة. كان عليه أن ينتظر إلى أن تُعلن الساعة التاسعةَ. هْلاديك، في حال أكثر تفاهة منه بؤسا، جلس على كومة حطب. لاحَظ أن عيون الجنود كانت تتحاشى عينيْه. ولكي يُخفِّف عنه الانتظار، سلَّمَه الرقيبُ سيجارة. هلاديك الذي لا يُدخّن قَبِلها من باب المجاملة أو التواضع. عند إشعالها، رأى أن يديْه ترتعشان. ادلهمّ النهار غيوما؛ والجنود كانوا يتحدَّثون بصوت خفيض كأنما لو كان هو ميِّتًا. عبثًا سعى إلى تَذَكُّر المرأة التي اسمُها جوليا دُو فيدُونُو...

تشكَّلتْ المَفْرَزة، وانتظَمت. هْلاديك واقفا وموليًّا ظهْرَه لحائط الثكنة، انتظر رشقة الرصاص. خشي أحدُهم من أنْ يظلّ الجدار مُلطَّخا بالدم؛ عندئذ أُمِر السجين بأن يتقدَّم خطوات. هلاديك، في عبث، تذكَّر التذبذبات التمهيدية للمصوِّرين. حاذتْ قطرةُ مطر ثقيلة أحَد صُدْغَيْ هلاديك، وتدحرجتْ وئيدا عبر خدِّه؛ صاح الرقيب مُصدِرا الأمر النهائي.

توقَّف الكون المادي.

التقت الأسلحة لتَرْمي هْلاديك، لكنّ الرجال الذين كانوا سيقتلونه كانوا بلا حِراك. كانت ذِراع الرقيب تُؤبِّد حركة غير تامة.

على بلاطة في الفِناء كانت نحلةٌ تعكس ظِلّها الثابت. الريح كانت قد توقَّفتْ، مثلما في صورة بإطار. جرَّب هْلاديك صرخة، مَقطعا صوتيا، لَيَّ يَدٍ. فَهِم أنه كانَ مشلولا. لم يكنْ تصله ولو أقَلّ همهمة من العالَم العاجز. فكَّر «أنا في الجحيم، أنا ميِّت». فكَّر «أنا مجنون». فكَّر «توقَّف الزمن». ثم فكَّر أنه في نظير هذه الحال، كان تفكيرُه سيتعطَّل أيضا. رغِب في أنْ يُخضِعه للتجربة: كرَّر (دون أن يُحرِّك الشَّفتيْن) قصيدة فرجيل الرعوية الرابعة والمُبهَمة. تخيَّل فعلا أن الجنود البعيدين يتقاسَمون قلقَه؛ اشتاق إلى التواصل معهم. أدْهشَه عدَمُ إحساسه بأي تَعَب، ولا حتى الدُوار الناجم عن ثَباته الطويل. نام، بعد مهلة غير مُحدَّدة. عند استيقاظه، استمرّ العالَم ثابتا وأصمَّ. واستمرَّتْ على خدِّه قطرة الماء؛ في الفِناء، استمرَّ ظِلُّ النحلة؛ ودُخان السيجارة الذي كان قد نفثَه لم يَصِل على أن يتبعثر أبدا. مرَّ «يوم» آخَر، قبل أنْ يَفهم هلاديك.

كان قد التمس من الرَّبّ عاما برُمَّته كي يُنهِي عمَله: منَحه كُلِّيُّ القدرةِ عاما. كان الرَّبّ يُهيئ له مُعجزة سريّة: سيقتُله الرَّصاص الألماني، في الساعة المحدَّدة، لكنَّ في ذهنه فإنّ عاما سينصرم بين الأمر وتنفيذه. انتقل من الارتباك إلى الاندهاش، ومن الاندهاش إلى الخنوع، ومن الخنوع إلى الامتنان الفُجائي.

لم يكن يتوافر على وثيقة أخرى سوى الذاكرة؛ لقد فرض عليه تعلُّم كل وزن سُداسي يُضيفُه إلى النص القديم دِقّةً بالغة وسعيدةً، لم يشُكّ فيها مَن يُغامرون ويَنْسون فقرات مؤقَّتة وغامضة. لم يشتغل من أجل الذُّرّية ولا حتى من أجل الرَّب، الذي لم يكن يعرف سوى القليل عن أولوياته الأدبية. دقيقا، وثابتا، وسِرّيًّا، سدَّى في الزمان متاهتَه العالية وغير المرئية. أعاد صياغة الفصل الثالث مرَّتيْن. مسح

رمزا ما جليًّا كفايةً: دَقّات الجرس المتكرِّرة، الموسيقى. لا ظَرف كان يُزعجه. أَغْفل، اختزل، وسَّع؛ وفي حال ما، اختار النسخة الأولى. بلغ به الأمر أنْ أحَبَّ الفِناء، الثُّكنة؛ عدَّل أحدُ الوجوه التي كانت تواجهه فكرتَه عن طَبْع رُوْمِرْسْتاتْ. اكتشفَ أنّ التنافرات الصوتية العسيرة التي لفتت انتباه فْلوبير هي مجرَّد خُرافات بصرية: وَهَن وإزعاجٌ من الكلمة المكتوبة، وليس من الكلمة المُصوَّتة... أنهى مسرحيَّتَه: لم ينقُصه فِعْلا أنْ يَحُلَّ سوى نعت واحد. عثَر عليه؛ انسكبت قطرة الماء على خده. استهلَّ صرخةً مجنونة، حرَّك وجهه، فأسقطتْه الرشقة الرباعية.

جاروميير هْلاديك مات يوم التاسع والعشرين من مارس، في التاسعة ودقيقتيْن صباحا.

ثلاث روايات ليهوذا

There seemed a certainty in degradation.

T.E. LAWRENCE,
Seven Pillars of Wisdom, CIII

في آسيا الصغرى أو الإسكندرية، في القرن الثاني لعقيدتنا، بينما كان باسيليديس ينشر أنّ الكون كان ارتجالا متهوِّرا أو شريرا من قِبَل ملائكة مُقصِّرين، كان يُمكن نِيلْس رُونبِرْغ أنْ يُسيِّر، بشغف ثقافي متفرِّد، أحَدَ الاجتماعات السرية الغنوصية. لربما كان دانتي قد أفرد له قبرا من نار؛ اسْمُه قد يَزيد من كاتالوجات المُبتَدِعة الأحْداث، بين سَاتُورْنِيلُو وكارْبُوكراطيس؛ قد يَدوم أحَدُ مَقاطع تبشيراته، مُجَمَّلا بالشتائم، في الكتاب المنتَحَل *مَجَّانيّ لكل البِدع* أو سيكون قد هَلَك لمّا يكون حريق مكتبة دَيْر قد التهم آخر نسخة من *سينْتاغْما*. في المقابل، فقد هيَّأ له الرَّبُّ القرنَ العشرين ومدينةَ لونْدْ الجامعية. هناك، سنة ١٩٠٤، نشر الطبعة الأولى من كتاب *المسيح ويهوذا*؛ وهناك سنة ١٩٠٩، نشر كتابَه الرئيس *Den heimlige Frälsaren* *المُخلِّص السِّرّيّ*. (توجد من الأخير ترجمة ألمانية، أنجزها سنة ١٩١٢ إِميلْ شِرينْغ؛ عنوانُها *Der heimlich Heiland* *المُخلِّص السِّرّيّ*.)

وقبل أن أُجرِّب فحصا للأعمال المذكورة، ضروريٌّ أن أكرِّر أن نِيلسْ رونبِرْغْ، عضو *الاتحاد الإنجيلي الوطني*، كان عميق التديُّن. ويُمكِن لمتأدِّب أنْ يُعِيد بشكل جيد اكتشافَ أطروحات رونبِرْغْ، في ندوة أدبية، بباريس أو حتى ببوينوس آيرس، تلك الأطروحات التي اقتُرِحتْ في ندوة، ستكون تمارين خفيفة لا يجدي نفعا في حقها التهاونُ أو التجديف. بالنسبة إلى رونبِرْغْ، كانت هي المفتاح الذي فكَّ شيفرة لغز مركزي في علم اللاهوت؛ كانتْ مادة للتأمُّل وللتحليل، وللمُناظَرة التاريخية والفيلولوجية، وللعجرفة، وللغبطة وللرُّعب. لقد برَّرتْ حياتَه وخرَّبتها. يَلزَم بالمِثل من سيقرؤون هذا المقال أنْ يأخُذوا بعين الاعتبار أنه لا يُسجّل سوى خلاصات رُونبرغْ، وليس جدَلَه وأدلَّتَه. سيُلاحِظُ أحدُهم أن الخُلاصة تسبق دون شك «الأدلة». مَنْ يُذعِن للبحث عن أدلة شيء لا يؤمن هو به أو أنَّ عِظتَه لا تهُمُّه؟

إنّ الطبعة الأولى من *المسيح ويهوذا* تحمل هذا التصدير الحاسم، سنواتٍ بَعْدُ، سيُوسِّع نيلْس رونبرغ نفسُه معناه بشكل همجي: «ليس شيئا واحدا، كل الأشياء التي تنسُبها الأحاديث إلى يهوذا الإسخريوطي هي مُزَيَّفة» (دي كوينْسي، ١٨٧٥). مسبوقا بأحد الألمان، خمَّن دي كوينسي أنّ يهوذا سلَّم المسيح لكي يُجبِرَه على الإعلان عن ربوبيته، وليُشعِل تمرُّدا شاسعا على نَيْر روما؛ أوحى رونبرغ بثأر ذي طابع ميتافيزيقي. بمهارة، يبدأ بإظهار فِعل يهوذا زائدا عن الحاجة. يُلاحِظ (مثل روبرتسون) أنه لتمييز مُعلِّم يُقدِّم يوميا مواعِظ في كنيس، ويأتي بمعجزات أمام حشود من آلاف البشر، لا يُحتاجُ إلى خيانة حَواريٍّ. ذاك ما حدث، على الرغم من ذلك. إن افتراض خطإ في *الكتاب المقدَّس* شيء لا يُتحمَّل؛ وليس أقلَّ منه

تحمُّلا القبولُ بفعل عَرَضي في أَثْمن حدث في تاريخ العالَم. وبَعدُ، فإنّ خيانةَ يهوذا لم تكن فعلا عرضيا؛ كانت واقعة دُبِّر لها مُسبّقا، ولها مكانُها السّرّيّ في اقتصاد الفداء. يواصل رونبرغ: إن *الكلمة*، لما صارتْ جسدا، انتقلتْ من الوجود الكُلّيّ إلى مكان بعينه، من الأبدية إلى التاريخ، من السعادة التي لا حدود لها إلى التحوّل وإلى الموت؛ لكي تناسب نظير تلك التضحية، كان ضروريا أن يقوم إنسان، نيابة عن كل البشر، بتضحية ملائمة. كان يهوذا الإسخريوطي هو ذلك الرَّجل. يهوذا، الوحيد بين الحَواريين، الذي حدَس ربوبيةَ المسيح والقصد المُرعِب. لقد تنزَّلت *الكلمة* في شخصه إلى مرتبة بشر فانٍ؛ يهوذا مُريدُ *الكلمة*، كان يُمكن أن يُنزَّل إلى مرتبة *واشٍ* (أسوأ جريمة يُمكن للعار أن يَقبل بها) وأنْ يصير ضيْفَ النار التي لا تخبو. إنّ النظام الأدنى هو مرآة للنظام الأعلى؛ وأشكال الأرض تتناسب وأشكال السماء؛ فبُقع البَشَرة هي خارطةُ الكوكَبَة غير قابلةِ الفساد؛ يعكس يهوذا المسيحَ بصيغة ما. من هناك الدنانير الثلاثون والقُبلة؛ من هناك الموت الإرادي، للقَبول حتى بما أكثر من الشجب. هكذا وضَّح نيلْس رونبرغ لغز يهوذا.

فنَّد اعترافاتِ يهوذا لاهوتِيُّو كلّ الطوائف. فقد اتَّهمه لارْسْ بِيتِرْ إنْغْسْتْروم بالجهل بالأُقنومية[1] أو بالتغاضي عنها؛ واتهمه أَكْسِل بُوريلْيوس بإعادة تجديد هرطقة الدُّوسِتِيِّين[2]، الذين يُنكرون إنسانية

---

(١) اتحاد البشري بالإلهي في المسيح Hióstasis. [المترجم]

(٢) نسبة إلى فرقة الدوسيتية Docetismo ق IIم، التي اعتبرتها الكنيسةُ هرطقة، لأنها ترى أن لا وجود حقيقي لِ(جسد) المسيح، لأن الجسد مادي والمادة ليس لها وجود فعلي حقيقي في اعتقادهم [المترجم]

يسوع، أما أُسقُفُ لُونْدْ الصُّلب فقد اتهمَه بمناقضة الآية الثالثة من الإصحاح الثاني والعشرين من إنجيل لوقا.

لقد أثَّر هذا اللَّعنُ المتنوّع في رونِبرِغ، الذي أعاد جُزئيا صياغة الكِتاب المُسْتَنْكر وعدَّل مَذهَبَه. تَرك لخصومه الميدان اللاهوتي، واقترح أسبابا منحرفة ذات طراز أخلاقي، وأقرَّ بأن يسوع، «الذي كان يتوافر على الموارد الهائلة التي يُمكن *للكُلّيّ القُدرة* أنْ يُقدِّمها له»، لم يكن في حاجة إلى إنسان كي يفتدي جميعَ البشر. ولاحقا، دحض آراء من يُؤكِّدون أنْ لا شيء نعرف عن الخائن المتعذِّر عن الشرح؛ قال إننا نعرف أنه كان أحَد الحَواريين، أحدَ المُختارين للإعلان عن مملكة السماوات، لإشفاء المرضى، ولإبراء المجذومين، ولإحياء الموتى، ولطرد الجنّ (إنجيل متّى ١٠: ٧-٨؛ إنجيل لوقا ٩ :١). يستحق منا رَجُلٌ اختصَّه *الفادي* بهذه الميزة أفضل تأويل لأفعاله. إنّ عَزْوَ جريمته إلى الجشع (مثلما فعل بعضُهم، مُتذَرِّعين بإنجيل يوحَنّا ١٢ :٦) معناه الاستسلام للباعث الأكثر بلاهة. اقترح نيلس رونِبرغ الباعثَ النقيض: باعثا نُسكيًّا مُبالَغًا فيه وحتى لا حدَّ له. تمجيدا لله الأعظم، يُذلّ الناسكُ الجسد ويُميتُه؛ ويهوذا فعل الشيءَ ذاتَه بالروح. لقد تنازل عن الشرف، عن الخير، عن السلام، مُقابل مملكة السماوات، مثل آخَرين، أقلَّ بطولة منه، ممن تنازلوا عن اللذة.[1] فكَّر مَليّا وبوضوح رهيب في ذنوبه الرهيبة. في الزنى عادة ما يساهم الحنان وإنكار الذات؛ وتساهم في الجريمة الشَّجاعة؛ ويُساهم في أعمال التدنيس والتجديف نوعٌ من الوهَج

(١) يتساءل بُورِلْيوس متهكِّما: «لماذا لم يتنازل عن تنازُله؟ لماذا رفض التنازل عن التنازل؟».

الشيطاني. اختار يهوذا تلك الذنوب التي لم تَعرفْها أيُّ فضيلة: إساءة الثقة (إنجيل يوحنا ١٢ :٦) والوشاية. تصرَّف بتواضع هائل، اعتقد أنه غير خليق بأنْ يكون طيِّبا. كتب بولس: «مَنِ افتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ» (I، كورنثوس ١ :٣١)[1]؛ طلب يهوذا الجحيمَ، لأن هناءَ الرَّبّ كان يكفيه. فكَّر في أن السعادة، مثل الخير، هي صفةٌ إلهية، وأن البشر يَلزَمُهم عدم اغتصابها.[2]

لقد اكتشف كثيرون، لاحقا *post factum*، أن في البدايات المُبرَّرة لرونبرغ توجد نهايتُه الغريبة الأطوار، وأنّ كتاب *Den heimlige Frälsaren* *المُخلِّص السِّرّيّ* هو مجرَّد تحريف أو سُخط على كتاب *المسيح ويهوذا*. وأنه في أواخر سنة ١٩٠٧، أنهى رونبرغ النصَّ المخطوط وراجَعه؛ وانصرم قُرابةُ عاميْن دون أن يُسلِّمه إلى المطبعة. وفي أكتوبر من سنة ١٩٠٩، ظهر الكتابُ بمقدِّمة (دافئة حتى الإبهام) لعالِم العِبريات الدانماركي إِريكْ إِرْفْخورْد، وبهذا التصدير الغادر: «كان في العالَم، وكُوِّن العالَمُ به،

---

(١) (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١: ٣١) كما هو مكتوب: «مَنِ افتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ». [المترجم]

(٢) يُشير أوقليدس دا كونْيا في كتاب أعرض عنه رونبرغ إلى أنه بالنسبة إلى هرطقي كانودوس، أنطونيو كونْسيلْهايرو، فإن الفضيلة «كادت تكون معصية». وسيتذكَّر القارئ الأرجنتيني مَقاطع مماثلة في مؤلَّف لألْمافويرتي. نشر رونبرغ، في الورقة الرمزية *Sju Insegel* *سبعة أختام*، قصيدة وصفية عادية «الماء السِّرّيّ»؛ تحكي مَقاطعُها الأولى وقائعَ يوم صاخب، وتحكي المَقاطع الأخيرة العثور على حوض جليدي؛ ويقترح الشاعر أن استمرار ذلك الماء الهادئ يُصوِّب عُنفَنا غير المجدي، وبصيغة ما يسمح به ويصفح عنه. وتنتهي القصيدة على هذا النحو: «ماء الغابة سعيدٌ؛ ويُمكنُنا أن نكون أشرارا ومُؤْلِمين».

ولم يَعرفْه العالَمُ.» (يوحنا ١ : ١٠) ليست الحُجّة العامَّة مُعقَّدة، على الرغم من فظاعة الاستنتاج. إنَّ الرَّبّ، يستنتجُ نيلْسْ رونِبرْغ، تنازل ليَغدو بشرا من أجل فداء النوع البشري؛ يُفتَرَض أنَّ التضحية التي قام بها كانتْ مثالية، لم يُبطِلْها إغفالٌ أو يُلطِّفها. إنّ حَصْر ما عاناه في احتضار مساء على الصليب هو عمل تجديفي.[١] يتضمَّن التناقضَ التأكيدُ على أنه كان بشَرا، وكان غير قادر على أن يأتي المعاصي؛ ذلك أن نعْتَي *العِصمة من اقتراف الذُّنوب والآدمية* غير متوافِقيْن. ويَقْبل كِمْنيتز أن الفادي يُمكن أن يكون قد شعر بالوَهَن، والبرد، والقلق، والجوع، والعطش؛ كذلك اعترف أنه أمكن أن يكون قد أذْنَب وضّلّ. إن النص الشهير «نَمَا كَبُرْعُم أَمَامَهُ، وَكَجِذْرٍ فِي أَرْضٍ يَابِسَةٍ، لَا صُورَةَ لَهُ وَلا جَمَالَ يَسْتَرْعِيَانِ نَظَرَنَا، وَلا مَنْظَرَ فَنَشْتَهِيَهُ. ٣ مُحْتَقَرٌ وَمَنْبُوذٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلُ آلامٍ وَمُخْتَبِرُ الْحُزْنِ» (إشعيا ٥٣ : ٢-٣)، إنه بالنسبة إلى كثيرين توقُّعٌ للمصلوب، ساعة موتِه. وبالنسبة إلى بعضهم (مثلا، هانْسْ لاسِنْ مارْتِنْسِنْ)، تفنيدٌ للجَمال الذي يعزوه الإجماع العامّيّ إلى المسيح؛ بالنسبة إلى

---

(١) يلاحظ موريس أبراموفيتش Maurice Abramovicz: «يسوع، وَفقَ هذا السكنديناڤي، يقوم دوما بالدور الجميل؛ وتُضيف انتكاساتُه لها، بفضل علم الطباعة، سمعةً متعددة اللغات؛ لم تكن إقامته بين البشر لمدة ثلاثة وثلاثين عامًا، باختصار، سوى عطلة.» إرْفْخورْد، في الملحق الثالث من *العقائد المسيحية Christelige Dogmatik*، يُفند هذا المَقطع. يُسجِّل أنَّ صَلب الرَّبّ لم يتوقَّف، لأن ما حدَث مرَّة واحدة في الزمن يتكرَّر دون هوادة في الأبدية. يهوذا، *الآن*، يواصِل تقاضيه النقود الفضية؛ ويواصل تقبيل المسيح؛ يواصل إلقاء النقود الفضية في المَعبد؛ ويواصل عَقْد أنشوطة الحَبل في ميدان الدَّم. (إرفخورد، لِيُبرِّر ذلك التأكيد، يستحضر الفصل الأخير من المجلَّد الأول من *ثأر الأبدية*، لمؤلِّفه جاروميرهْلاديك.)

رونبرغ، فإنّ النبوءة الدقيقة، لم تكن بلحظة، وإنما بكلّ المستقبَل الفظيع، في الزمان وفي الأبدية، مِن قِبل *الكلمة* التي صارتْ جسدا. لقد تجسّد الربُّ كُلِّيا في إنسان، لكنْ في إنسان حتى بلوغ العار، إنسان حتى التعرُّض للاستنكار والوقوع في الجحيم. ولكي يُنقِذنا، أمكنَه أنْ يختار *أيًّا* من المصائر التي تحبكها شبكة التاريخ المُرْتبِكة؛ أمكنه أن يصير الإسكندر أو فيثاغوراس أو رُورِيك أو يسوع؛ لقد اختار مصيرا وضيعا: كان يهوذا.

عبَثًا اقترحتْ ذلك الكشفَ مكتباتُ استوكهولم ولُونْد. واعتبرَها الكافرون، مُسبَّقا، لَعِبًا لاهوتيا تافِها ومُجهِدا؛ ازْدَراه اللاهوتيون. حدس رونبرغ في عدم الاكتراث المسكوني ذاكَ تأكيدا معجزا تقريبا. لقد نظَّم الرّبُّ عدم الاكتراث ذلك؛ لم يرغب الرَّبُّ في أن ينتشر في الأرض سرُّه المخيف. فَهِم رونبرغ أنّ الساعة لم تَحِن. شعر بانهيال اللعنات الربانية القديمة عليه؛ تذكَّر إلياس وموسى، اللذيْن غطَّيا وجهَيْهِما في الجَبل كي لا يريا الرَّبَّ؛ وإشعيا، الذي ذُعِر لما رأتْ عيناه *ذاك* الذي مَجدُه يملأ الأرض؛ وشاؤول، الذي عَمِيَتْ عيناه في الطريق إلى دمشق؛ والحاخام شمعون بن عزائي، الذي رأى *الفردوس* ومات؛ والساحر الشهير خْوانْ دِي فيتِرْبو، الذي جُنَّ لما أمْكَنه أن يرى *الثالوث*؛ *والمِدراشيِّين*، الذين يَلعنون الكفرة الذين كانوا ينطقون *اسْمَ الرَّبِّ السِّرِّيَ*[1] *Shem Hamephorash*. ألم يكن هو، ربما، الآثِمَ في تلك الجريمة الغامضة؟ ألا يكون ذلك التجديف في حق *الرُّوح* ما لن يُغفَر؟ (متّى ١٢: ٣١) مات فالِرْيو صُورانو

---

(١) مفهوم يصف اسم الله السري في القَبَّالة اليهودية الذي يستحيل نُطقُه، وهو يتشكَّل من اجتماع اثنين وسبعين اسما للملائكة. [المترجم]

بشبب نشرِه اسْمَ روما الخفيَّ؛ أيُّ عقاب لا نهائيّ سيكون جزاؤه، بسبب اكتشافِه اسمَ الرَّبِّ المُرعِب ونشرِه؟

تاه نيلْسْ رونِبرغ عبر شوارع مدينة *مالْمُو* ثَمِلًا أرَقًا وجَدَلا دُوّاريا، متضرِّعا في صرخات بأنْ تُتاح له نِعمة أن يتقاسم مع الفادي الجحيم.

لقد تُوُفّي بتمزُّق في جدار الشرايين، يوم ١ مارس ١٩١٢. ربما يتذكَّرُه دارِسُو الهرطقة؛ لقد ألحق بمفهوم *الابْن*، الذي بدا كأنه اسْتُنْفِد، تعقيداتِ الشَّرّ والبليَّة.

١٩٤٤

النهاية

متمدِّدا فتح ريكابارِّين عينيْه بالموارَبة، ورأى سَقف الأسَلِ المائلَ سماءً مستوية. يصِلُه من الحجرة الأخرى عزْفٌ على القيثارة، نصيب من متاهة بائسة كانت تتشبَّك وتفتَكُّ إلى ما لا نهاية... استعاد الواقعَ شيئا فشيئا، الأشياءَ اليومية التي قد لا يُغيِّرها أبدا مُقابل أشياءَ أخرى. نظر دون أسَفٍ جَسَده الجسيم عديم الفائدة، ومعطفَ الصوف العادي الذي يغطي منه الرِّجْلين. في الخارج، ما وراء قُضبان النافذة، كان السّهل يتمدَّد والمساءُ؛ كان قد نام، لكنْ لا يزال كثير من الضوء في السماء. بالذِّراع اليُسرى تحسَّس، إلى أن وقع على جُلجل من برونز كان عند قائمة الفراش. حرَّكهُ مرَّة أو مرَّتيْن؛ من الجانب الآخر للباب واصلتِ الأنغام المتواضعة تناهيها إليه. المُنفِّذ كان أسْود وقد ظهر ذات ليلة، وادَّعى أنه مُغنٍّ، وأنه كان قد تحدّى غريبا آخَر بدعوته إلى تنافس شعري وغنائي متجوِّل وطويل. وواصل التردد على الحانة حتى بعد انهزامه، كأنه كان في انتظار أحد ما. كان يقضي الساعات مع القيثارة، لكنه لم يعد إلى الغناء، ربما نغَّصت عليه الهزيمة العيش. فِعلا تعوَّد الناس على ذلك الرَّجل غير المؤذي. لن ينسى ريكابارِّين، مالكُ الحانة، تلك المنافسةَ في اليوم اللاحق، وبينما كان يُنسِّق حمولة عشب، فجأةً

أُصيبَ جانبُه الأيمن بالشلل وفقد القدرة على الكلام. إنه من كثرة إشفاقنا على تعاسة أبطال الروايات ننتهي إلى إشفاقنا بإفراط على تعاستنا الخاصة؛ ولم تكن كذلك حال الصّابر ريكابارِّين، الذي قَبِل الشَّبب مثلما قَبِل من قَبْل في أمريكا القسوةَ والخلوات. ولتعوُّده على العيش في الحاضر، كما الحيوانات، فهو الآن ينظر إلى السماء، ويَتخيَّل أن هالة القمر الحمراء تُعلِم بقدوم المطر.

فتح طفلٌ ذو قَسمات هندية (ربما كان ابنَه) البابَ مُوارَبًا. سأله ريكابارِّين بالعيْنيْن إن كان من زَبون هناك. أجابه الطِّفل السكوت بإيماءة نافية؛ لم يَدْخل الأسْود في الحساب. بقي الرَّجل المُنهَك وحيدا؛ لعبتْ يدُه اليسرى بالجُلجُل مدَّة، كأنه يُمارس سلطة.

كان السَّهل، تحت أشعة شمس الغروب، كما لو يُشاهَد في حَلُم. تحرَّكت نقطةٌ في الأفق، ونمت إلى أن صارتْ فارسا، كان يأتي، أو بدا أنه قادم، إلى البيت. رأى ريكابارِّين البرنيطةَ، والمعطف الطويل الأسود، والحِصان العربي، لكنه لم ير وجه الرَّجل، الذي حثّ العَدو أخيرا، وشرع سيرُه يقترب من الخبب. وانعطف على مسافة مائتي ياردة. لم يعد ريكابارِّين إلى رؤيته بعد ذلك، لكنه سمعهَ يتكلَّم، وينزل عن الحصان، ويعقِلُه في العمود، ويَدخل بخطى ثابتة إلى الحانة.

بحلاوةٍ، قال الأسْودُ دون أن يرفع عينيْه عن الآلة، حيث كان يبدو أنه يبحث عن شيء ما:

- فِعلا، كنتُ أعْلَم، يا سيدي، أنه يُمكنني الاعتماد عليك.

ردَّ الآخَر بصوت خشن:

- وأنا معك، أيها الأسمر. لقد جعلتُك تنتظر عددا من الأيام، لكنني إلى هنا جئتُ.

ساد صمت. في الأخير، أجاب الأسْود:

- صِرت مُتعوِّدا على الانتظار. لقد انتظرْتُ سبع سنين.

شرَح الآخر دون عجلة:

- أمضيْتُ أكثر من سبع سنين دون أن أرى أبنائي. لقد عثرْتُ عليهم اليومَ، ولم أرغبْ في أن أَظهر مثل رَجُل يعيش على الطَّعْن.

- لقد تكفَّلتُ بالأمر -قال الأسْود-. أرجو أنْ تكون قد تركتَهم في عافية.

الغريبُ، الذي كان قد جلس إلى المنضدة، ضحِك من القلب. طلب قدح جعة، وتذوَّقَها دون أنْ يُفرِغَها في جوفه.

- قدَّمتُ لهم نصائح طيبة -صرَّح-، لا تزيد عن اللزوم أبدا، ولا تُكلِّف شيئا. قلتُ لهم، من بين أشياء أخرى، إنّ الرَّجُل لا يَنبغي له أن يسفك دماء إنسان آخر.

سبَقتْ ردَّ الأسْود نغمةٌ وئيدة:

- فعلْتَ حسَنا. هكذا سوف لن يُشْبهوننا.

- أنا على الأقل -قال الغريب وأضاف كما لو كان يُفكِّر بصوت عال-: أرادَ لي قَدَري أن أقتُل، والآنَ، مرَّة أخرى، يضَع لي السكين في اليد.

الأسْود، كأنه لم يَسمعْه، لاحَظ:

- بحلول الخريف تغدو الأيام أقصر.

- يكفيني ما فضُل لي من نور -ردَّ الآخَر، وقد انتصب واقفا.

وقف أمام الأسْود وقال له وكأنه مُتعَب:

- دعِ القيثارة وشأنها، فاليومَ ينتظرُكَ نوع آخر من المنافسة.

مضى الاثنان صوب الباب. همهم الأسْود عند خروجه:

- ربما في هذه المنافسة يكون الأداء أسوأ كما في المرة الأولى.

أجاب الثاني في جدِّية:

- لم يكن أداؤك في المنافسة الأولى سيئا. ما حدث هو أنك كنتَ متشوقًا إلى نيل المركز الثاني.

ابتَعَدا مسافةً عن المنازل، وهما يسيران على قدم المساواة. كان موضِعٌ من السَّهل مماثلا لآخَر، وكان القمر متوهِّجًا. فجأةً، تبادلا النظرات، توقَّفا، ونزع الغريبُ المِهمازيْن من حذاءيْه. كان كلاهما بالمعطف في ساعده، لمّا قال الأسْود:

- أريد أن أطلُب منك شيئا قبل أنْ نتشاجر. ضَعْ في هذا اللقاء كلَّ شجاعتك وكلَّ مهارتك، كما في ذلك اليوم الذي كان قبل سبعة أعوام، لمّا قتلْتَ أخي.

ربما سمِع مارْتِينْ فِيِرُّو، للمرَّة الأولى في حواره، الحقْد. شعر بدمه يُشبه مهمازا. اِلتحَم الاثنان، وخدَش السّكين الحادُّ وجْهَ الأسْود وعلَّمه.

هنالك ساعة في المساء يكون فيها السَّهل على أهبة قول شيء؛ لا يقوله أبدا، أو ربما يقوله إلى ما لا نهاية، ولا نَفهَمُه، أو أننا نفهَمُه لكنه غير قابل للترجمة مثلما الموسيقى... رأى ريكابارِّين من سريره النهايةَ. رأى هجمةً تراجع أمامها الأسْود، وفقد توازُنَه، أوْهَم بضربة فأس في الوجه، وتمدَّد في طعنة عميقة اخترقت البطن. بعد ذلك جاءتْ طعنة أخرى لم يتمكّن رَجُل الحانة من تبيُّنِها، ولم يقف فِيِّيرو بعدَها. ساكنا، بدا أن الأسْود كان يسهر على احتضاره

المُتعِب. نظَّف السِّكين الدامي في العشب، وعاد إلى المنازل متمهلا، دون أن ينظر خَلفَه. الآن لم يَعُدْ أحدا ذا شأن، بعد أن أنهى مهمتَه بِصِفَته مُقيما للعدل. بالأحرى كان الآخَر: لم تكن له من وِجهة على البسيطة، كان قد قتل رَجُلا.



طائفة العنقاء

أولئك الذين يكتبون أنّ طائفة *العنقاء* تعود أصولُها إلى هيليوبوليس، ويَشتقُّونها من الترميم الديني الذي حدث عند وفاة المُصلح أَخناتون [أمِنوفيس IV]، يتذرَّعون بنصوص لهيرودوت وتَاسِيتُسْ والآثار المصرية، لكنَّهم يجهلون أو يرغبون في أنْ يجهلوا أنّ تسمية *العنقاء* ليست سابقة على هْرابانو ماوْرُو، وأن المصادر الأكثر قِدما (لنقُل احتفالات ساتُورْن الرومانية، أو فْلافيو يُوسِيفُو) تتحدَّث عن *أهل العادة*. فِعْلا لاحَظ غْرِغوروفيوس، في الاجتماعات السريّة الشريرة في مدينة فِرَّارا الإيطالية، أنّ الإشارة إلى *العنقاء* كانت نادرة جدا في الكلام الشفهي؛ وقد تعاملتُ في جُنِيف مع صُناع تقليديين لم يفهموني لمّا استعْلمتُهم إنْ كانوا من رجال *العنقاء*، لكنهم تقبَّلوا، لاحقا، كونَهم من *أهل العادة*. وإذا لم أكن أخدع نفسي، وهو شيء مَثِيل لِمَا يَحدث مع البوذيين؛ فإنّ الاسم الذي يَعرِفهم به العالَمُ ليس هو ما ينطِقونَه.

مِيكْلوزيشْ، في صفحة مشهورة للغاية، قابَل بين طائفيّي *العنقاء* والغجر. يوجَد في الشيلي وفي هنغاريا غجَرٌ، وكذلك يوجد طائفيُّون؛ وخارج هذا النوع من الوجود الكُلِّيّ، فإنّ القليل جدا ما يجمع بينهما. إن الغجر محتالون، وصانعو غلّايات، وحَدّادون،

وعَرّافون؛ بينما الطائفيون عادة ما يُمارسون في سعادة المهن الحرَّة. يكتسب الغجر نمطا جسمانيا ويتكلَّمون، أو كانوا يتكلمون، لغة سرية؛ بينما الطائفيون يختلطون بالآخَرين، والدليل هو أنهم لم يُكابدوا الملاحَقات. الغجر غريبون، وهم يُلهمون الشعراء السيّئين؛ وتتغاضى الحكاياتُ العاطفية، والصُّور والأغاني عن الطائفيين... لقد أعلن مارْتِين بوبِر أن اليهود مُثيرون للشفقة؛ وليس كل الطائفيين كذلك، ويكره بعضُهم إثارة الشفقة؛ وهذه الحقيقة العامة والشهيرة تكفي لتفنيد الخطأ المُبتَذل (المُدافَع عنه بعبث من قِبل أُورْمان) الذي يرى في *العنقاء* نِحلة ضمن ديانة إسرائيل. هكذا يُفكّر الناس إلى حد ما: كان أُورْمان رجلا حسّاسا؛ كان أورْمان يهوديا؛ تردَّد أورْمان على الطائفيين في مَلَّاحات بْراغ؛ ويدل انجذابُ أورمان على واقعة حقيقية. عن صِدق، لا يُمكنني أن أتفق مع ذلك الرأي. لا يعني شيئا أن يكون الطائفيون في وسط يهودي متشابهين مع اليهود؛ وما لا يُمكن إنكاره هو أن يُشبِهوا، مثلما شكسبير الأبدي عند هازْلِتْ، كلَّ بَشَر العالَم. إنهم كلُّ شيء في سبيل الجميع، مثل الرَّسوليِّ؛ وقد أشاد الدكتور فرانثيسكو أمارُو، من بايْساڭدو، قبْل أيام، بالسهولة التي يتكيّفون بها.

لقد قلت إن قصة الطائفة لا تُسجِّل الملاحَقات. ذلك حقيقي، لكن طالما أنه لا وجود لجماعة بشرية لا يوجد فيها مُشايعون *للعنقاء*، كذلك حقيقي أنْ لا وجود لمُلاحَقات أو قسوة لم يُعانِها ويُكابِدْها هؤلاء. في الحروب الغربية وفي حروب الأزمنة القديمة في آسيا سُفِكت دماؤهم دَوْريا بتوالي القرون، تحت ألوية معادية؛ ولا يُفيدُهم في شيء تَماهيهم مع كل أمم كوكب الأرض.

دُون كتاب مقدَّس يجمعُهم مثل الكتاب المقدَّس لإسرائيل،

ودون ذاكرة مشتركة، ودون تلك الذاكرة الأخرى التي هي لغة، ومُبَعثَرين على وجه الأرض، متنوِّعي اللون والقَسمات، فإنّ شيئا واحدا -هو *السِّرّ*- يُوحِّدهم وسيُوحِّدهم حتى نهاية الزمن. ذات مرَّة، بالإضافة إلى *السّرّ*، كانت هناك خرافة (وربما أسطورة عن نشأة الكون)، لكنّ رجال *العنقاء* السطحيِّين نسوها، وهم يحتفظون اليومَ بالتقليد الغامض لعقاب فقط. لقد نسوا عقابا، أو اتفاقا، أو امتيازا لأن الروايات تختلف، وبالكاد تسمح بتبيُّن حُكْم إله يَضمَن الخلودَ لسلالة، إذا ما رِجالُها، جِيلًا بعد جيل، نفَّذوا شعيرة. لقد قارنتُ تقارير الرّحالة، وتناقشت مع بطريركات ولاهوتيين؛ وبوسعي أن أؤكِّد أن أداء الشعيرة هو الممارسة الدينية الوحيدة التي يحرص عليها الطائفيون. تمثِّل الشعيرةُ *السِّرَّ*. هذا الأخير، مثلما أشرتُ إليه سابقا، يُنقَل من جيل إلى جيل، لكن العُرف يقضي بألّا تُلقِّنه الأمهاتُ للأبناء، ولا حتى الكهان؛ لأن تلقين *السّرّ* مهمة الأفراد الأكثر وضاعة. إن عبدا، أو مجذوما، أو متسوِّلا يُمكن أن يكون مُلقِّن أسرار الدين، كذلك يُمكن لطفل أنْ يُلقِّن طفلا آخر، فالعمل في ذاته مُبتَذل، ومؤقَّت، ولا يستدعي وصفا. المواد هي الفلِّين، والشمع، والصمغ العربي. (يُتحدَّث في الطقوس عن الطَّمي؛ هذا الأخير عادةً ما يُستخْدَم.) لا معابد انصرفت تخصيصا إلى الاحتفاء بهذه العبادة، لكنّ طللا، أو قبوا، أو دهليزا هي أمكنة مناسبة. *السّرّ* مُقدَّس، لكنه لا يكف عن أن يكون مَبْعثا للْهُزء شيئا ما؛ ويُمارَس خفية، وحتى سِرًّا، ولا يتحدَّث أتباعُه عنه. ولا توجد كلمات لائقة لتسميته، لكنْ يُفهَم أن كل الكلمات تُسمِّيه، أو بالأحرى، تُلْمِع إليه حتْما، وهكذا، فقد قلتُ في الحوار شيئا ما، فابتسم الأتباع، أو انزعجوا، لأنهم أحسُّوا بأني قد مسستُ *السّرّ*. وتوجَد في الآداب الجرمانية قصائد

كُتِبتْ من قِبل طائفيين، موضوعها البحر، أو شفق الليل؛ وهما بصيغة ما، وَفق ما تكرَّر على سمعي، رَمْزان *للسر*. عالَم الأرض مرآةٌ *للمدرسة*. تتعبَّد حكمة منتحلة سجَّلها دُو كانْجْ في معجَمه. ويَحُول نوع من الرّعب المقدَّس بين بعض المؤمنين وتنفيذهم للشعيرة البسيطة جدا؛ فيزدريهم الآخَرون، لكنهم يحتقرون أنفسهم أكثر من ذلك. إنهم يتمتعون بكثير من المصداقية، وفي المُقابل، فإنّ من يتخلَّونَ عَمْدا عن *العادة*، ويتمكّنون من عقد تجارة مُباشرة مع الألوهية؛ هؤلاء، لكي يُبرِزوا تلك التجارة، يقومون بذلك مستعمِلين أشكالا من طقس التعبُّد، وهكذا وصف ذلك جُونْ أُوفْ ذِ *الرُّودْ*:

فلْتعْلم السّموات التسعة أن الرَّب
مَسرَّةٌ كالفلّين والحمأ

لقد نِلتُ عن استحقاق، في ثلاث قارات، صداقةَ كثير من مُتعبِّدي *العنقاء*، وأَعْلَم أنّ *السِّرّ*، في البداية، بدا لهم تافها، ومُجهِدا، ومُبتَذَلا، و(ما هو أكثر غرابة) لا يُصدَّق. إنهم لم يستسيغوا أن آباءهم قد انحطوا إلى نظير تلك الدسائس. والغريب هو أنّ *السّرّ* لم يختف منذ وقت طويل؛ فعلى الرغم من تقلُّبات الأرض، وعلى الرغم من الحروب والهجرات، هو يَصِل، بشكل هائل، إلى كل المؤمنين به. ولا يتردَّد بعضُهم في التأكيد على أنّه فِعلا غريزيٌّ.

الجنوب

الرَّجُل الذي أرست به السفينة في بوينوس آيْرِس سنة ١٨٧١ كان يُدعى يوهانِسْ دالْمَان، وكان قِسًّا في الكنيسة الإنجيلية؛ في سنة ١٩٣٩، شغل أحد أحفاده، وهو خوان دالْمان، منصب سكرتير مكتبة عمومية في شارع قُرطبة، وكان يَشعر في أعماقه أنه أرجنتيني. وكان جدُّه من جهة الأم هو فرانْثيسكو فْلورِسْ، ذاك المنتمي إلى الفيلق الثاني من مشاة الخَطّ، الذي مات على حدود بوينوس آيْرس، برمية رمح من هنود كاطْرِيلْ؛ اختار خوان دالْمان (ربما بدافع من الدَّم الجِرماني)، في خضم النزاع بين سلالتيْه، ذلك الجَدَّ الرومانسي، أو ذا الميتة الرومانسية. لقد دعَّمتْ ذلك النزوعَ لدى أبناء المولَّدين المُتَبَنّى تطوُّعا، لكنْ غير المتباهي أبدا، عُلبةُ آلةِ تصوير فيها صورة رجُل غيرُ معبِّر ومُلتحٍ، وسيفٌ قديم، وسعادةُ وشجاعة بعض أنواع الموسيقى، وديدَن مقاطع شعرية *لمَارْتينْ فْيِيرُو*، والأعوام، والقَرف، والعزلة. وعلى حساب بعض أنواع الحرمان، كان دالْمان قد أفلح في أنْ يُنقذ وضع إقامة سكنية في *الجنوب*، كانت في مِلكية آل فْلورِسْ؛ وكانت إحدى ذكريات صورةَ أشجار الأوكلبتوس المتضوِّعة، وصورة البيت الوردي الذي كان ذات مرة قرمزيا. إنَّ المهمات وربما الخمول كانا يُلزمانه بالمكوث في

المدينة. وصيفا تلو صيف كان يكتفي بفكرة مجردة هي الامتلاك، وبيقينٍ بأن بيته كان في انتظاره، في مكان محدَّد من السهل. وحدَث له شيء في الأيام الأخيرة من فبراير ١٩٣٩.

في عمى عن الأخطاء، يُمكن للمصير أن يكون عديم الرأفة مع أقلّ غفلة. في ذلك المساء، كان دالْمان قد حصل على نسخة ناقصة من *ألف ليلة وليلة* بترجمة فايْل؛ وحِرْصا منه على فحص تلك اللُّقية، لم ينتظر نزول المِصعد، بل صعد السلالم بسرعة؛ فخمش جبينَه شيءٌ ما في الظلمة. أخُفَّاش أم طائر؟ رأى الرعب محفورا في وجه المرأة التي فتحت له البابَ، والدَّمَ في اليد التي مرَّرتْها على الجبين. قد تكون المتسببة في ذلك الجرحِ حافّة حادّة لدفَّة حديثة العهد بالطلاء نسيَ أحدُهم إغلاقها. أفلح دالْمان في أنْ ينام، لكن بحلول الفجر كان قد استيقظ، ومنذ تلك الساعة غدا طَعم كل الأشياء فظيعا. أنهكتْهُ الحمى، وأسهمت رسوم *ألف ليلة وليلة* في تأثيث كوابيسه. زاره أصدقاءٌ وأقارب، وبابتسامة مُبالغ فيها كانوا يُكرِّرون عليه أنهم يجدونه في حال جيدة جدا. كان دالْمان يُصغي إليهم بنوع من الدّهشة الواهنة، وكان ما يُدهشه عدم معرفتهم بأنه كان في الجحيم. مرَّت ثمانية أيام، كأنها ثمانية قرون. وذات مساء، حضر الطبيب المُعتاد برفقة طبيب جديد، واقتاداه إلى مصحة في شارع إكْوَادُور، لأنه كان ضروريا التقاط صورة له بالأشعة. فكّر دالْمان، وهو في عربة الأجرة التي حملتهم، أنه قد يُمكنه النوم في غرفة ليست له. أحسّ بأنه سعيد، وبإقباله على الحديث؛ ولما وصل، جُرِّد من ملابسه؛ وحُلِق رأسُه، وقُيّد بالحديد إلى نقَّالة، وسُلّط عليه الضوء حتى العمى والدوار، فُحص صدره بالسمع، ووخزه رجُل مُقنَّع بإبرة في ذراعه. استيقظ بإحساس بالغثيان، وملفوفا في ضمادات، في

زنزانة شبيهة ببئر، وفي الأيام والليالي التي أعقبت العملية أمكنَه أنْ يفهم أنه بالكاد كان في إحدى ضواحي الجحيم. لم يكن الثلج يترك في فمه أقلَّ أثر للبرودة. في تلك الأيام، كره دالْمان ذاته في تفاصيلها؛ كره هويته، وحاجاته الجسدية، وذُلَّه، واللحية التي كانت تشك وجهه. عانى برباطة جأش حصص العلاج التي كانت شديدة الإيلام، لكنْ لمّا قال له الجّرَّاح إنه كان موشكا على الموت بسبب تعفُّن الدّم، أجهش دالمانُ باكيا، وَرَاثيا مصيرَه. إن الشقاء المادي والتوقُّع المتواصل لليال سيئة لم يدَعاه يُفكِّر في شيء شديد التجريد مثل الموت. وفي يوم آخر، قال له الجرَّاح إنه يتعافى، وأنه في القريب العاجل، يُمكنه أن يذهب في نقاهة إلى الإقامة. بشكل لا يُصدَّق، حلَّ اليوم الموعود.

تَروق للواقع التناظراتُ والمفارقات الطفيفة؛ كان دالمان قد وصل إلى المصحة في عربة الأجرة، والآن عربةُ أجرة تُقلُّه إلى شارع كونستيتوثيون. البرودة الأولى للخريف، بعد استبداد الصيف، كانت مثل رمز طبيعي لمصيره المُنقَذ من الموت والحُمّى. المدينة، في السابعة صباحا، لم تكن قد فقدت ذلك الجوّ الذي يكون لبيت عتيق والذي يُلهمُه الليلُ؛ كانت الشوارع مثل دهاليز طويلة، والساحات مثل فناءات. تَميَّزها دالمان في سعادة وبمُستَهلّ دُوار؛ وثواني قبل أن تُسجِّلها عيناه، تذكَّر الزوايا، ولوحات الإعلانات، والفروق البسيطة في بوينوس آيْرس. وفي النور الأصفر لليوم الجديد، كانت كل الأشياء تؤوب إليه.

لا أحد يجهل أن *الجنوب* يبدأ من الناحية الأخرى لِرِيفَادَافْيَا. أَلِف دالْمان أنْ يُكرِّر أنّ ذلك ليس اتفاقا، وأنَّ من يعبر ذلك الشارع يدخل في عالَم أقدم وأثبتَ. ومن العربة كان يبحث بين البناء الجديد

عن النافذة ذات الشباك الحديدي، والمقرعة، وقوس الباب، والدهليز، والفِناء الحميم.

انتبه في بهو المحطّة إلى أنّه لا تزال لديه ثلاثون دقيقة. تذكَّر فجأة أنه في مقهى بشارع البرازيل (على مسافة أمتار من بيت يِرْغُوِينْ) كان هناك قِطٌّ هائل، كان يسمَح للناس بأن يُلاطفوه، كأنه ألوهية مُستخفَّة. دخل، هنالك كان القط نائما. طلب فنجان قهوة، حلّاها بتؤدة، تذوَّقها (هذه المتعة كانت محظورة عليه في المصحة) وفكَّر، بينما كان يُمسد الزَّغب الأسْود، في أن ذلك الاتصال كان خادعا، وأنهما كانا مثل المفصولَيْن بزجاج، لأن الرَّجل يعيش في الزمان، وفي التوالي، بينما يعيش الحيوان السحري في الآني، وفي أبدية اللحظة.

وعلى امتداد الرصيف ما قبل الأخير كان القطار ينتظر. جاب دالمان العربات، وصادف إحداها شبه فارغة. وضع الحقيبة في الشبكة؛ ولما انطلقت العربات، فتحَها وأخرج، بعد نوع من التأرجح، المجلَّد الأول من *ألف ليلة وليلة*. السفر مع هذا الكتاب، شديد الارتباط بحكاية تعاسته، كان تأكيدا على أن تلك التعاسة كانت قد أُلغِيتْ، وأنّ تحدِّيا جذِلا وسِرِّيا لقوى الشَّرّ المخفقة قد حلَّ.

على جانبي القطار، كانت المدينة تتمزَّق إلى ضواح؛ هذه الرؤية ثم رؤية الحدائق والبيوت الريفية أخَّرت البدْءَ في القراءة. والحقيقة هي أن دالمان قرأ قليلا؛ فجبل حجارة المغناطيس والجني الذي كان قد أقسم بأن يقتل وليّ نعمته كانا رائعيْن، ومن يجرؤ أن يُنكر ذلك، لكنهما ليسا أروع من الصباح ومن واقعة الوجود حيا. شغَلَتْهُ السعادة عن شهرزاد وعن معجزاتها الزائدة عن الحاجة؛ أغلق دالمان الكتابَ، واستسلم ببساطة للعيش.

الغذاء (الحساء المقدَّم في أطباق معدنية لمّاعة، مثلما كانت الحال فعلا في أصياف الطفولة القصية) كان متعة أخرى هادئة وشكورة.

«غدا سأستيقظ في الإقامة»، فكَّر، وكان كما لو أنه رجُلان في وقت واحد: الرجل الذي يتقدَّم في اليوم الخريفي وعبر جغرافية الوطن، والرجل الآخر، المسجون في مصحة والمعرَّض إلى استعباد ممنهج. رأى بيوتا من آجُر غير مُملَّط، أشخاصا شرسين وطِوالا، ينظرون بلا حد إلى مرور القطارات؛ رأى فرسانا في الطرق الترابية؛ رأى مَسيلات وبُحيرات؛ رأى سُحبا طويلة لمَّاعة تبدو كأنها من مرمر، وكلّ هذه الأشياء كانت عرَضية، كأنها أحلامُ السَّهل. كذلك اعتقدَ أنه تعرَّف أشجارا وحقولا مزروعة لم يتمكَّن من تسميتِها، لأن مَعرفَته المباشرة بالبادية كانت أقلّ بكثير من معرفته الحنينيَّة والأدبية.

نام ذات مرَّة، وفي أحلامه كان يرى حِدَّة القطار. الآنَ الشمس البيضاء التي لا تُطاق في الثانية عشرة ظهرا كانت هي الشمس الصفراء التي تسبق الغسق، والتي لن تتأخّر في أن تصير حمراء. كذلك كانت العربة مختلفة؛ لم تكن العربة التي قطعت شارع كونستيتوثيون، عن مغادرته للرصيف: لقد اخترقه السهل والساعات وغيَّرا وجهه. في الخارج، كان ظِلّ المقطورة المتحرِّكة يتمدَّد في اتجاه الأفق. لم تكن تكدِّر التراب الأصلي ولا القرى ولا علامات بشرية أخرى. كل شيء كان فسيحا، لكنه في الوقت نفسه كان حميما، وبصيغة ما، سِرِّيًا. في البادية الشاسعة، لم يكن شيء آخر أحيانا سوى ثور. كانت العزلة مكتملة، وربما عدائية، وتمكن دالْمان من أن يرتاب في أنه كان يُسافر إلى الماضي، وليس إلى *الجنوب* وحده. وقد صرفه المفتّشُ عن هذا الظَّرف العجائبي، الذي نبَّهه عند

نظره في تذكرته إلى أن القطار لن يتركه في المحطة المعهودة، وإنما في أخرى، قَبلَها بقليل، وبالكاد يعرف دالمان عنها شيئا. (أضاف الرَّجل شرحا لم يسع دالمان إلى فهمه بله الإنصات إليه، لأن تراكب الوقائع لم يكن يهمه.)

توقَّف القطار بجهد، تقريبا وسط البادية. في الناحية الأخرى من السكة بقيت المحطة، التي كانت شيئا أكثر من رصيف بقليل وبِسقيفة. لم تكن من عربة بالمحطة، لكنّ رئيسها ارتأى أنه لربما أمكنه أن يُحصِّل على واحدة في محلّ تجاري أشار عليه به على مسافة عشرة مجمَّعات سكنية أو اثني عشر مجمَّعا.

قَبِل دالْمان بالمَسير وكأنه مغامرة صغيرة. الآن كانت الشمس قد غرقت، لكنّ وهجا نهائيا كان يُمجِّد السّهل الحيّ والصامت، قبل أن يمحُوَه الليل. دالمان لكي لا يُتعِب نفسَه، ولكي يجعل تلك الأشياء تدوم، كان يمشي ببطء، وهو يستنشق في سعادة وقور رائحة النَّفَل.

ذات مرَّة، كان المتجر ذا لون أحمرَ قانيّ، لكن السنوات كانت قد خفَّفت لمصلحته من ذلك اللون العنيف. شيءٌ ما في هندسته الفقيرة ذكَّرَه بِحَفْر في الصُّلب، ربما لنسخة قديمة من *بُولْ وفِرْجِينِي*. إلى عمود كانت بعض الخيول مربوطة. في الداخل، اعتقد دالمان أنه تعرَّف المالك؛ ثم فهِم أن مَظهرَه قد خدعه بشبهه مع أحد مُستخدَمي المصحَّة. قال الرَّجل، عند سماعه بالحال، إنه سيُلزِمه بربط الغِراس؛ بينما دالمان قرّ قرارُه على أن يأكل في المتجر.

في مائدة كان فتيان يأكلون ويشربون في هرج، ولم يركز دالمان، في البداية، بصرَه عليهم. على الأرض، ومتكئا على منضدة الشُّرب، كان رجل مُسِنّ جدا يتكوّم على ذاته، وساكنا مثل شيء. لقد قلَّصته السنون الكثيرة وصقلته مثلما يفعل الماء بالحجر، أو تفعل

أجيال الناس بِحُكم. كان قاتم البشرة، وضئيلا ونحيلا، كما لو أنه كان خارجَ الزمان، في أبدية. فتش دالمان عصابة الرأس، والمعطفَ الصوفي الغليظ، وجلبابَ شِيرِيبّا الطويل، والجزمة من جلد المُهر، وحدَّث نفسه، متذكِّرا نقاشات بلا طائل مع أناس من أحزاب *الشمال*، أو مع سكان إقليم إنْتْري رِيُّوس، والذين ما عاد رجالٌ غاوْشُّوسْ مثل هؤلاء موجودين إلا في الجنوب.

جلس دالمان بجوار النافذة. الظلام شرع في الاستحواذ على البادية، لكن رائحته وضوضاءه ما يزالان يتناهيان إليه بين القُضبان الحديدية. جلب إليه المالك سَردينا، وبعد ذلك لحما مشويّا؛ ابتلعهما دالمان مع كؤوس من نبيذ. متكاسِلا، كان يتذوَّق في لهاته الطَّعم الخشن ويترك نظَرَه يَشرُد عبر المحَلّ، فِعْلا وهو غافٍ قليلا. كان مصباح الكيروزين عالقا بإحدى الماسِكات؛ وكان زُبُن المائدة الأخرى ثلاثة: بدا اثنان منهم بَيْدقَي بِركة زراعية؛ وآخَر، ذو قسمات صينية ورعناء، كان يشرب مُعتمِرا القبعة. أحسّ دالمان، فجأة، بخمش طفيف في الوجه. بجانب الكأس الزجاجية العادية والكَدِرة، على أحد خطوط السماط، كانت توجد كرة صغيرة من اللباب. ذاك كلُّ ما كان، لكنّ أحدَهم كان قد رماه بها.

بدا الجالسون في المائدة الأخرى غير مُكترثين به. دالمان، مرتبكا، قرَّر أنْ لا شيء قد حدث، ففتح مجلّد *ألف ليلة وليلة*، كأنه يُخفي الواقع. أصابتْه كرة صغيرة أخرى دقائق قليلة بعد ذلك، وهذه المرة، ضحك بيادق البِركة. حدَّث دالمان نفسَه بأنه غير خائف، لكنْ سيكون من الحماقة أنْ يترك ذاتَه، هو الذي في فترة نقاهة، تنساق مع مجهولين إلى عراك غامض. قرَّر الانصراف؛ وكان فعلا واقفا لمّا دنا المالك منه، واستحثَّه بصوتٍ محذِّر:

- سيدي دالمان، لا تكترث بهؤلاء الفتيان، فإنهم شبه سكارى.

لم يستغرب دالمان أن الآخر، الآن، يعرفه، لكنّه أحسَّ أن هذه الكلمات المُصالِحة تؤزِّم الوضع فِعلا. سابقا، كان استفزازُه من قِبل بيادِق البِركة في حق وجْه عَرَضي، يكاد لا يقصد أحدا؛ الآن كان موجَّها إليه، وإلى اسمه، وسيعرفُه الجيران. نحّى دالمان المالكَ جانبا، وواجه بيادق البِركة، وسألهم عَمَّ يبحثون. وقف الفَيّاشُ ذو الوجه الصيني مترنِّحا. على مسافة خطوة من خُوانْ دالمان، وشتمه مُصدرا صرخات، كما لو أنه كان بعيدا جدا عنه. كان يلهو بالمبالغة في إظهار سُكره، وتلك المبالَغة كانت شراسة وتهكما. وبين كلمات سيئة وفاحشة، قذف في الهواء بسكين طويل، وتابَعه بعينيْه، والتقطه، ودعا دالمان إلى العراك. اعترض المالك بصوت مرتجف بأن دالمان كان مُسلَّحا. وعند تلك النقطة، حدث شيء لم يكن متوقَّعا.

انطلاقا من ركن، مرَّر الغاوشُّو العجوز والمنتشي، الذي رأى دالمان فيه علامة على *الجنوب* (*الجنوب* الذي كان مِلكَه)، خنجرا مجرَّدا عبر الهواء، فسقط عند قدَمَي دالمان. كانت المسألة كأن *الجنوب* قرَّر أنْ يَقبل دالمان المبارزة. انحنى دالمان ليلتقط الخنجر، وأحسَّ بشيئين. الأوّل هو أن هذه الحركة الغريزية تقريبا تُلزِمه بالعراك. والثاني هو أن السلاح في يده غير الماهرة لن يَصْلُح للدفاع عنه، وإنما لتبرير قتل الآخرين إياه. ذات مرّة، كان قد لعب بخنجر، مِثل كل الرجال، لكنّ إشهارَه لم يكن يتجاوز فكرةَ أنّ الضربات يَلزَمها أن تُسدَّد إلى فوق، وبالحَدّ مُسدَّدا إلى الداخل. فكَّر «ما كان لمسؤولي المصحة أن يسمحوا بأن تَحْدث لي هذه الأشياء.»

- لنخرجْ -قال الآخَر.

خرجا، وإذا لم يكن عند دالمان من أمل، فكذلك لم يكن به خوف. أحسّ، عند عبور العتبة، أن الموتَ في عراك سكاكين، تحت سماء عارية ومُهاجِما، قد يكون تحريرا له، وسعادة، وحفلة، في الليلة الأولى في المصحة، لمّا شُكَّ بإبرة. أحسّ أنه لو كان هو، آنئذ، من أَمْكنَه أن يختار أو أن يحلم بموته، فإن هذا هو الموت الذي سيكون قد اختار أو حلم به.

أحكم دالمان قبضته على السكين، الذي ربما لا يُحسن استعماله، وخرج إلى السَّهل.



الفهرس


مكتبة
t.me/t_pdf

هذا الكتاب

- عندما يصل المرء إلى سنّ معيّنة، سيتمكن من التظاهر بعدة أشياء، السعادة ليست من بينها.
- فليفخر الآخرون بالصفحات التي كتبوها، أما أنا فأفخر بتلك التي قرأتها.
- لا تقرأوا أي كتاب لأنه مشهور أو حديث أو قديم، يجب أن تكون القراءة أحد أشكال السعادة الخالصة. اقرأوا من أجل متعتكم ومن أجل أن تسعدوا.
- يكتب الكاتب ما يستطيعه، ولكن القارئ يقرأ ما يريد.
- في كلّ مرّة واجهتُ فيها الصفحة البيضاء، عرفتُ أنّ عليَّ أن أعود من جديد إلى اكتشاف الأدب وأن الماضي لا ينفعني في شيء.

من أقوال بورخيس